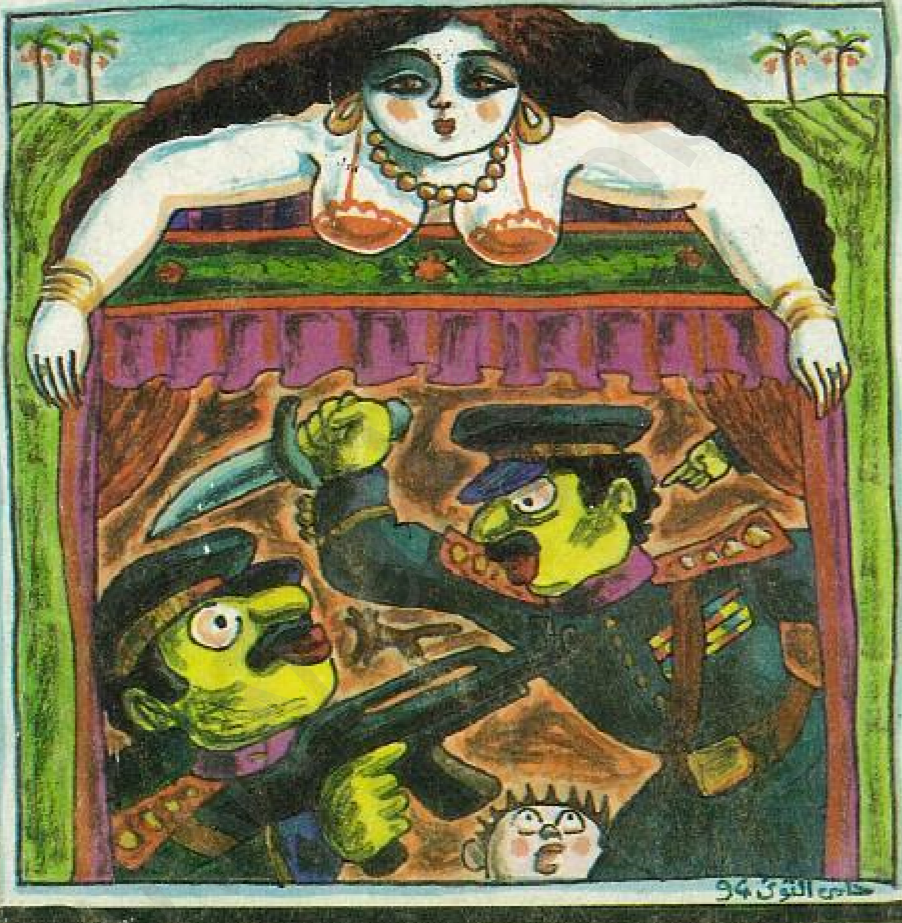
روايات الهلال

١٩٨١

جميل عطية ابراهيم



١٩٨١

بقلم :

جميل عطية إبراهيم

دار الهلال

الغلاف للفنان :
حلمى التونى

تمهيـد

عزبة عويس غارقة فى الهم ، وصفار شمس العصارى كالذهب المزيف "الفالصو" يثير الشجن . خفت حركة البيع والشراء فى سوق الخميس وتفرق الخلق فى حلقات ودوائر يستأنسون بمضغ الكلمات وتكرار السلام وشد الأيادى .

حلقة من الخلق حول مقاول الأنفار العائد من دول الخليج ليجمع الأنفار ويشحنهم الى العراق والسعودية والكويت وليبيا وكله بثمنه . حلقة اخرى حول صندوق الدنيا لسماع الحكاية المعادة "اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى" .

منذ مصرع السادات ـ رحمه الله وغفر له ـ والراوى يعدل فى الحكاية تعديلات بسيطة لا تتوقف عندها الآذان وقد شغلتهم الصور المتلاحقة الجريان .

هى صفحات من التاريخ يفرها الزمان وعزبة عويس على حالها والراوى علمته مصائب الأيام الحرص فى الكلام فاسقط اسم السادات لعدة اسابيع ثم عاد واستبدله باسم الرئيس حسنى مبارك .

* * *

ملاك الأرض من صغار المزارعين تجمعهم حلقة خاصة . تراودهم احلام تقسيم الأرض لإقامة مبان عليها بعد تجريفها . طحنتهم الأزمة الاقتصادية ولم تعد فلاحة الأرض تدر عائدا يشبعهم بعد هجرة الفلاحين وارتفاع اسعار البذور والسماد ومغالطات كاتب الجمعية وارتفاع ديون بنك التسليف وشراهة الدودة .

من فاته قطار السفر جرف الأرض وباع طينها الأحمر ـ خلسة ـ لقمائن الطوب ، وانتظر فرج الله ، ومن عاد سليما من هناك ، اشترى الأفدنة ليدق الخوازيق فيها ، معلنا عن تبويرها وخرابها ، حتى انتشرت الأعمدة الأسمنتية الواقفة فى الطل ، واصبحت كشواهد القبور .

هى حركة دوارة ، بيوع بعقود ابتدائية بين الأهالى ، فى انتظار الفرج ، والفرج هو تجريف الأرض وتبويرها ، وادخالها فى كردون المدينة وبناء المساكن عليها .

كلمة "التقسيم" اصبحت هى المارد الجنى فى حكاية صندوق الدنيا الذى يجلب الثراء لمن يفك عثرته وينقذه من القمقم .

حوض خالة بهانة دخل التقسيم . حوض ابوسريع خرج من التقسيم . والرد الجاهز على الشفاه : يسمع من "بقك" ربنا ، أو "فال الله ولا فالك" .

ولد ابوجعفر الغفير السابق للعزبة أتى بالخريطة من الجيزة ، خريطة مختومة . وترتفع وتنخفض الأسعار وفقا لهذه الخريطة المزعومة .

فى كل سوق تظهر خريطة جديدة معدلة ، ومن امتلك خريطة أو جزءا منها ، ظهر وكأنه امتلك خزانة بنك ، وباع بسعر اعلى ، ومن فاته الحصول على واحدة ، تناول العربون . اعطى كلمة ، وأجل التنفيذ حتى تتضح الأمور .

من يمتلك خريطة مخالفة ، يشكك فى خرائط الآخرين ، ولد أبوجعفر ، ملعون ، ويدعى انه يمتلك اوراق المشروع بأكمله .

اوراق الأرض وعقود الشهر العقارى تخبأ فى الدور ولا يكشف عنها ، فهذه صكوك الثراء الموعود ، وتجرى الكلمات على الألسنة ، مسبوقة وملحوقة بإن شاء الله . فرجه قريب . على عينى .

وظلت حركة البيع والشراء راكدة ومحصورة بين الأقارب . أرض فلان اخذها ولد فلان زوج ابنته المسافر الى الكويت . ارض عويضة اخذها ولد صميدة وكتب على ابنته الصغرى . أرض عكاشة بيعت لأولاد عمومته .

وفجأة دخل الأغراب حلبة الشراء . افندية وبكوات يأتون بسيارات طلبا للشراء واقامة مشروعات .

اولئك القادمون من البندر لا يعرفون الكلمة ، ولا يعترفون بقيمة العائلات ، يطلبون الأوراق لفحصها قبل الكلام ، ويأتون ايضا وفى صحبتهم المحامون .

خرجت عقود الأرض الملفوفة فى اوراق جرائد ، ومعها انطلقت اعاصير الغضب المكتوم بين العائلات ، واصبحت فضائح الجدود على الشفاه ، فهذا أكل ارض أخيه ، وهذا سرق حق اخته المطلقة ، وحلت فروع من العائلات انقطعت صلتها بالعزبة تطالب بحقها المهضوم .

* * *

يقول الراوى :

ـ ياسادة ياكرام . اصل الحكاية اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى . الأمير بهريز بن شهرمان اصطاد القرد المسحور بسهم مسموم فى ساعة معلومة من نهار ميمون فلما فتح بطنه واخرج مصارينه ليحنطه ويعلقه على باب قصره فى فم الخليج كعادة أهل زمان . خرج له مارد جنى وخر ساجدا بين يديه قائلا :

ـ انقذتنى من العذاب ياابن آدم ، "شبيك لبيك عبدك وملك يديك" .

قال له الأمير بهريز بن شهرمان :

ـ آتنى بكنوز الفراعنة .

أجابه المارد ، قال :

ـ كنوز الفراعنة مسحورة ـ آتيك بكنوز لا تفنى . مجوهرات بعدد النجوم ونقود ذهبية بعدد رمال شواطىء البحار والصحارى . اصعد الى القلعة واقتل السلطان وتسلطن .

يصفق البنات والصبيان .

* * *

منذ الهوجة التى حلت بعزبة عويس بسبب بيوع الأرض وقد قلت

الأشغال وكثر الكلام وانتشرت الحواديت ، يتجمع الفلاحون فى السوق بحثا عن قطعة لحم وحزمة جرجير واربع بيضات بشق النفس . اما الزبد والجبن القريش فقد اختفيا وحل محلهما الزبد والجبن الدانماركيين.

اهالى عزبة عويس اصبحوا يتسوقون حاجياتهم من سقارة والبدرشين وابوالنمرس ، وفى الرايحة والجاية يلعنون هذا الزمان . عيونهم على مكتب البريد لتلقى الحوالات من الأولاد الذين يطفحون "الكوتة" فى بلاد النفط الغنية ، النقود جرت فى ايديهم ، وعزت عليهم اللقمة .

اولئك الذين مد الله فى اعمارهم يتحسرون على ايام كانت فيها عزبة عويس تستعد لإقامة مشروع لتعليب الخضراوات من كثرتها ويترحمون على اللواء عويس وايامه .

كانت المانجو تباع هنا بالكوم والخضراوات بـ "الشروة" .

* * *

شاعت موضة بين التجار ، تحويل دكاكينهم الطينية المقامة على حافة الطريق وحول ارض السوق الواسعة الى بوتيكات ، تباع فيها الحلى والتماثيل الى السياح ويجرى فيها تغيير العملة سرا ، وسيد العملات هو الدولار .

بوتيكات توجد بها سجائر وزجاجات كوكاكولا لكنها خالية من رغيف الخبز ، والجبن والفول والطعمية .

وتكفلت العجائز بسد حاجات العزبة . يفلحن الأرض الخربة بزراعة الجرجير والخس ويربين الدجاجات والماعز ويحلبن البقر . هى اركان صغيرة من الأرض يحافظن على خضرتها ويشقين فى سبيلها . ويبعن خيرها فى سوق الخميس .

ذهب المتعلمون الى المدينة ، وغاب الرجال فى بلاد النفط ، وبقى الجدود والآباء يلوكون حلم التقسيم والرحيل الى البندر .

سياحة . انفتاح . تاكسى بالنفر . تحويل عملة . تأشيرة دخول الى

السعودية . الى الكويت . توظيف الأموال . احلام كالذهب الفالصو فى شمس العصارى التى تغرق السوق .

* * *

لا يعرف احد على وجه الدقة متى حل عبدالله صابر بعزبة عويس . هو رجل سمين . كرشه امامه . ووجهه عريض مفلطح كرغيف العيش . وعلى خده شامة سوداء كبيرة . عيناه واسعتان مستديرتان وحدقتاه لا تستقران فى موضع ثابت ، نظراته ليست زائغة أو قلقة ، لكنه يقرأ صفحة ما يحيط به وما يمر به قراءة واعية .

عبدالله صابر ضخم البنية واذا سار حرك ذراعيه مطوحا بهما واهتز جسده يمينا ويسارا ، وملابسه الواسعة تجعله يسير منفوخا ، فرجل بنطلونه تكفى خمسة اشخاص ، وقميصه يتهدل دائما على بطنه البارز الى الأمام اما الجاكت فهى دائما طويلة وواسعة .

اذا جلس عبدالله صابر فى مقهى ابتعد عن الكراسى الهشة واختار له دكة خشبية ليفرد عليها جسده بعد أن يزودها الجرسونات بالوسائد . فاذا استقر فى جلسته وطابت له القعدة ، بدأ الكلام . وحتى تطيب جلسته لابد له من كوب شاى صغير بالنعناع ، واذا تعذر النعناع ، لابد من الليمون ، ومع كوب الشاى ، عدة ادوار من كراسى المعسل المعتبر . ولا يبدأ صاحبنا الكلام الا بعد الانتهاء من شرب الشاى وتدخين المعسل ، فهذه هى الأصول ، فعيب على الرجل ان يتحدث الى آخرين وفى فمه شيشة ، ينفث منها الدخان فى وجوههم .

مزاج عبدالله صابر ينصلح بعد نصف ساعة ، حيث يدخن الشيشة على مهل كما انه يرشف الشاى باردا ، يطلبه ساخنا ، ويرشفه بهدوء باردا ، ومن حين الى آخر يحل عليه مزارع او مالك طالبا النصيحة ، فلا يبخل عليه عبدالله صابر بكلمة طيبة .

ولما ينتهى عبدالله صابر من الشاى والشيشة تكون الجلسة قد غصت بالصبيان والبنات الذين يجلسون على الأرض ويقفون حوله فى دوائر ،

الصغار فى الأمام والكبار فى الخلف ، فى نظام وهدوء ، فاذا علت اصوات ، حرك الخيرزانة الطويلة فى الهواء ، تناولها وهزها .

يسأل عبدالله صابر من يراه على مقربة منه ، قائلا :
ـ وقفنا فين ياوله فى المرة الماضية ؟

تأتيه الإجابة على الفور :
ـ نابليون فى جزيرة سانت هيلانة .

يقول عبدالله صابر :
ـ طيب .

يبدأ عبدالله صابر الحكاية ، نابليون فى الجزيرة ، بعد أن اعتقله الإنجليز ، مؤامرات دس السم له ، حوض الأسماك الوحيد الذى يرقبه . وكيف يرى نفسه ؟ سمكة خرجت من المياه ، لكنها لم تمت بعد ، كيف يفكر فى الهروب ؟ واعلان الحرب على الإنجليز مرة أخرى ، سبحان المعز المذل ياأولاد ، واذا كانت النفوس كبارا ، تعبت فى مرادها الأجسام .

حكاية وراء حكاية . وكلها حكايات مليئة بالصراعات والهزائم وكذلك الانتصارات ، والخيانة فيها لها دور كبير . صراع النبلاء والقساوسة ولجنة الأمن العام . الجيروند واليعاقبة واعدامات دانتون وروبسبير ومارا وسانت جوست على المقصلة .

ومن حين الى آخر عودة الى حكم بروسيا وصراعها مع النمسا وموقف الإنجليز المراوغ من الثورة ، وفى كل حقبة ، شعار : الحرية . المساواة . الإخاء .

الراوى هنا ـ عبدالله صابر ـ يتوقف عند الوصف الدقيق للجو ودقات الطبول وهتافات الناس وقول الخطباء ، ولا بأس من اشارات الى الف ليلة وليلة ، ومقتل شجرة الدر ، وصراع الخلفاء ، وبيت من شعر من هنا ومن هناك . واذا سئل عن هذا الخلط ، قال لمحدثه :
ـ متطلبات فن الحكى ياوله .

ساعة كاملة يقضيها فى الخروج من حكاية للدخول فى حكاية اخرى تلحق بذيلها فإذا انقضت الساعة توقف عن الحكى كما تتوقف شهرزاد عند صياح الديك . قال :

ـ انتهى الدرس .

دون نقاش يتفرق الصبيان والبنات فى حلقات بعيدا عن جلسته ، وهنا يطلب لنفسه كوبا آخر من الشاى ، وشيشة .

أما من تطاوله نفسه على البقاء ، فنصيبه لسعة خفيفة من الخيرزانة الطويلة ، وجذب الآخرين له بعيدا عن الأستاذ . فهذه هى الطقوس الواجبة الأداء ، فبعد انصراف الصغار من الصبيان والبنات ، يأتى طلبة المعهد الزراعى بعزبة عويس ليس لسماع حكايات ، ولكن فى جعبتهم تساؤلات ، يستمع اليها عبدالله صابر ، ولا يرد عليها الا بتساؤلات اخرى أشد صعوبة ، فهو يقول لهم دوما :

ـ جعبتى خالية ياأولاد من الإجابات . هى تساؤلات نطرحها بعضنا على بعض حتى نعثر على حكيم يفتح أعيننا على الحقيقة .

ويقدم له واحد من الطلبة مسودة مسرحية كتبها ، فيتناولها عبدالله صابر ، فرحا بها ، يفر صفحاتها ، يقرأ شيئا منها ، وفجأة يعلن غضبه على صاحبها ، يقول :

ـ اين الإهداء ياوله ؟ اكتب الإهداء والتاريخ . هذه أصول يعرفها كبار الكتّاب ياوله .

ينكمش الطالب فى جلده يصمت ، ويتناول القلم ، ويكتب شيئا .

يتناول عبدالله صابر المسرحية ، ويطيل النظر فى الإهداء ، وبعدها يقول فرحا :

ـ كاتب كبير باذن الله ياوله . الخطاب يبان من عنوانه ، والعنوان جميل "حكاية الخالة بهانة" .

ينشغل الأستاذ برشفة شاى ، وبعدها يشير اليه ان يقترب منه ، ويفسح له مكانا ليجلس إلى جانبه على الدكة ، قائلا :

- تعال . تعال .

يدفعه الطلاب بينما يتعثر المؤلف فى جلبابه الواسع ويتخذ له ركنا ، وينكمش فيه ، خوفا من أن تنزل فجأة على رأسه عشرات الأسئلة .

ينشغل عبدالله صابر بزوادته . يسأل :
- فين الزوادة والسبت ؟

تأتى الإجابة على الفور :
- وصلت الدار ياأستاذ .

يسأل عبدالله صابر :
- كله تمام ؟

تأتى الإجابة :
- تمام ياأستاذ .

هى احتياجات المعيشة اليومية من قطعة لحم ، وخضراوات ، وبصل ، وثوم وبطاطس ، وعيش ناشف مرحرح ، وجبن قريش ، وبيض ، يكلف طلبة المعهد الزراعى بشرائها كل اسبوع ، ووضعها فى الدار .

احتياجات بسيطة ، كيلو ونصف من اللحم يضعه فى ثلاجة صغيرة ، ويكفيه طوال الأسبوع ، واذا احتاج الى مزيد وسط الأسبوع اشترى فرخة صاحية ليسلقها ويشرب شوربتها .

طلبة وطالبات عزبة عويس كلهم ابناؤه ، درسهم وعلمهم ، طوال رحلة عمره ، ومن لم يلحقه منهم فى فصول التعليم ، استمع إليه وهو يروى لهم الحكايات على المقاهى .

رحلة حياة ، عجيبة وغريبة ، ويتقبلها عبدالله صابر ببسمة هادئة ، دار على القطر المصرى مديرية مديرية ، مغضوبا عليه ، وفى بعض الأحيان مطرودا ، وكان يتقبل نصيبه راضيا ، لم يرفع شكوى ، ولم يحتك بمسئول .

فى عام ٥٢ لما قامت الثورة فى بر مصر ، كان مدرسا فى روضة اطفال فى شارع الهرم ، بعد نقله وتخفيض درجته ، وكان مدرسا فى مدرسة

السعيدية الثانوية .

قال له مدير المنطقة التعليمية بالجيزة :
ـ انت سبب المظاهرات ضد الملك وتلك الفوضى الضارية فى البلد .

سأله عبدالله صابر :
ـ كيف ياسعادة المدير ؟

أجابه الرجل قائلا :
ـ تروى لهم حكايات مثيرة . ولا تكف عن ذكر نابليون .

قال عبدالله صابر :
ـ اسهل على الطلبة دراسة رواية "قصة مدينتين" لديكنز .

اجاب مدير المنطقة التعليمية فى خبث قائلا :
ـ ديكنز يسخر من الثورة الفرنسية يااستاذ ، تعصبه الإنجليزى ضد الثورة واضح ، هل تظن ان اساطين التربية فى وزارة المعارف لا يدركون أبعاد الأشياء والمسائل .

بعدها ، قال له :
ـ اذا كنت تود الحفاظ على لقمة العيش ، احك لهم شيئا عن امجاد جلالة الملك فاروق ، خليفة المسلمين ، واصله الطاهر .

ابتسم عبدالله صابر ، فتحركت الشامة على خده ، فاغتاظ جناب المدير ، صرخ :
ـ هذه ليست وزارة النحاس باشا يااستاذ . هذه وزارة صاحب المقام الرفيع نجيب الهلالى باشا التى تحارب الفساد ، وتضرب بيد من حديد .
عاودت عبدالله صابر ابتسامته ، قال :
ـ مالنا والسياسة ياجناب المدير :

هنا لم يتمالك جناب المدير اعصابه ، طلب منه مغادرة مكتبه ، وهو يهدده بعظائم الأمور .

بعد اسبوعين صدرت حركة تنقلات ، وكان نصيب عبدالله صابر ،

مدرسة فاروق الأول لروضة الأطفال بشارع الهرم . فقال لنفسه ، فرجت . هذه عقوبة إدارية ، لم تمس مرتبه ، وان كانت تمنعه من الترقية لسنوات طويلة .

بعد شهور قامت الثورة ، وألغت الوزارة قرار النقل ، واعادته الى وظيفته السابقة كمدرس ثانوى ، ولكن فى قنا ، فانتقل اليها .

فى سنة ١٩٥٣ بعد عام واحد من الثورة ، تم نقله بعيدا عن قنا ، الى مدرسة ابتدائية هذه المرة فى الكرنك ، فقال لنفسه :
ـ حسنا فعلت بك الثورة ياعبدالله صابر .

وكان النقل بأمر واحد من ضباط الجيش . فى عام ١٩٥٤ تم اعتقاله بدعوى تأييد محمد نجيب فى صراعه مع الرئيس جمال عبدالناصر ، ثم افرج عنه ، واستقر به المقام ثانية فى التعليم ، الى عام ١٩٥٨ .

يغيب فى بعض الأحيان عبدالله صابر عن محدثيه ، يسرح ، وفى لحظات يرى ما مضى وغاب من أيام ، ويقول لنفسه متعجبا ، كيف تحملت ؟

دفاتر أيام عبدالله صابر المعلنة تسقط الفترة من عام ١٩٥٨ الى عام ١٩٦٣ عن عمد ، لا ترد فى احاديثه ، حتى محنه الشخصية بدل تواريخها عن قصد ، فاصابته بالزائدة الدودية يقول انها وقعت له فى عام ١٩٦٥ ، وليس سنة ١٩٦٢ ، واصابة عينه اليسرى بالمياه البيضاء يزعم انها وقعت له فى عام ١٩٦٧ وليس سنة ١٩٦١ ، وقد اهمل فى علاجها بسبب الهزيمة .

ففى الفترة من عام ١٩٥٨ الى عام ١٩٦٣ كان معتقلا فى الواحات .

يعز على النفس اسقاط أحلى سنوات العمر ، وما أحلى ان يسد الواحد الفراغات فى حياته بالأكاذيب ، فقال لبعض معارفه ، إن سنوات عمره الساقطة من الحسبان هى سنوات زواجه .

ومن كثرة ما رأى وسمع ، صدق حكاية زواجه وطلاقه الوهميين .

رفاق عبدالله صابر فى العمل يتحدثون اليه باعتباره واحدا من كبار رجال التعليم فى مصر ، مهما تبدلت مناصبه ، سواء كان فى مدرسة رياض اطفال أم فى مدرسة ثانوية أم فى معهد فنى .

لكنه يقول لنفسه دوما ، ثلاثون عاما فى التعليم ، ولم اصنع رجالا ، وإكتفيت ببذر بذور ، كنت ادور علىّ المدارس ، كعمال التراحيل ، وفى المدرسة الواحدة كنت ابدل الفصول اكثر من مرة فى العام ، غير ان تلاميذه يسعون اليه ويقبلون عليه ، اينما ذهب ، واينما حل . غير ان طرفا من اللعنة التى اصابته لحقت بتلاميذه أيضا ، وليس من بينهم مسئول كبير أو وزير أو وكيل وزارة ، وانما هم ملح الأرض فى مواقعهم ، عرف معظمهم السجون ، وان عملوا بالصحف ففى الصفحات الخلفية ، وان التحقوا بالجيش فمن أوائل الشهداء .

يدخن عبدالله صابر الشيشة ، ويرشف الشاى ، ويفيق من خواطره ، يقول للجالس الى جواره على الدكة :
- هه . حكايات خالة بهانة . يوسف ادريس جديد ياوله .

وبعدها مباشرة يقول فى سذاجة .
- اعظم كاتب مسرحى عرفته البشرية ياأولاد هو الشيخ زبير . مسرحية عطاالله هى اجمل المسرحيات .

من اعتاد على جلساته من الطلبة يبتسم ضاحكا ، ومن كان غريبا عليها بحث فى جعبته عن مؤلف بهذا الاسم فلا يجد ، ويزداد انكماش صاحب "حكايات الخالة بهانة" ، ويصمت منتظرا الفرج .

يلتفت اليه ، يقول :
- اسمع ياابنى . اذهب الى المدرسة التجارية قرب شركة "ماتوسيان" فى الجيزة ، اسأل على امين المكتبة الأستاذ سمعان عبدالجيد ، قل له انك من طرفى واسأله عن ترجمات الشيخ الزبير ، خذها وادرسها جيدا ، وأنا سوف اقرأ مسرحية بهانة هذا الأسبوع .

يسأله مرة اخرى ، يقول :

- الأستاذ سمعان عبدالجيد ، مدرسة التجارة بنين . قرب شركة ماتوسيان .

يقول الطالب :

- حاضر .

يكمل الأستاذ عبدالله صابر ، حديثه :

- ما فلح من كتب للمسرح قبل قراءة وليام شكسبير ، وما نجح من كتب للمسرح قبل دراسة سوفوكليس وصحبه ، واحلى الترجمات ترجمة خليل مطران شاعر القطرين وترجمة طه حسين .

يضيف قائلا :

- شكسبير ياولاد اسميناه الشيخ زبير منعا للنسيان ، وصاحبنا سوفوكليس ؟

يرد حمادة ، قائلا :

- اسميناه اتوبيس .

يقول الأستاذ عبدالله صابر ضاحكا ، وقد اعجبته القافية :

- القافية حبكت . ولكن خيبك الله . سوفوكليس من مسرحياته اشتقت قواعد الكتابة المسرحية الراقية ياولاد .

وبعدها يضيف قائلا :

- ما لكم وهذه القضايا وانتم "بتوع" زراعة ، وكفاكم معالجة الدودة .

بعدها يلتفت الى حمادة ولد ابوجعفر الغفير السابق ، والجالس كعقلة الصباع على الأرض ، قائلا :

- انت مؤلف اغان . أغان هابطة من ماركة السح الدح امبو .

فيرد حمادة على الفور ، وكأنه فى انتظار تلك الفرصة ، منشدا :

ياليل ، ياخيالى ، يامخبى ، النجمة البعيدة

رمحــت ،

سبقتـك ،

بدلت سوادك بياض ،
الشمس حرقتنى ،
عجبى .

يهتز عبدالله صابر طربا ، يصفق :
ـ شاعر والله شاعر . تعال . هنا . اجلس .

يفسح له مكانا على الدكة ، ويكمل :
ـ الليل خيال . فارس على حصانه يرمح وهو يخبىء النجمة البعيدة ، صاحبنا عقلة الصباع ، رمح هو ايضا الى جواره ، فانتصر عليه وسبقه ، لكن الليل المراوغ ، أبدل السواد بياضا ، فحرقت الشمس صاحبنا ، عجبى . صورة وراء صورة . كلها شاعرية وجميلة .

بعد فترة أضاف الأستاذ عبدالله صابر ، قائلا فى قسوة :
ـ لكن الصورة كاذبة من أساسها ، فمن يخبىء النجوم الليل أم النهار ؟

يرد حمادة قائلا :
ـ الليل يظهر النجوم القريبة ، اما النجمة البعيدة ، البعيدة ، فهو يسترها .

صفق الأستاذ عبدالله صابر ، فرحا ، قال :
ـ معك حق .

أضاف بعدها ، وهو يحرك قدميه ، ويستعد للقيام ، قال :
ـ مسك الختام . ليلتكم سعيدة .

يتناول الأستاذ عبدالله صابر ، مفتاح الدار من احد الطلبة ، وباقى النقود ، ويسأله :
ـ وضعت اللحمة فى الثلاجة وقفلتها كويس .

يتلقى الإجابة :
ـ نعـم .

يتناول الأستاذ عبدالله صابر الخيرزانة الطويلة ، ويحاسب الجرسون

على الطلبات ، ويمضى فى طريقه .

* * *

ليل الشتاء طويل ، يهبط قرب السادسة ، ويقوم عبدالله صابر بجولته المسائية ، بعيدا عن مقهى الطلبة ، المواجه للمعهد الزراعى ـ اى قصر اللواء عويس سابقا ـ ويقطع الحدائق التى تفصل القصر عن العزبة ، سيرا على الأقدام .

العربات القادمة من الجيزة وشارع الهرم فى طريقها الى عزبة عويس تمر مسرعة الى جواره ، لكنه يفضل المشى فى هذه الساعة بمفرده ، واذا تصادف وقابله مزارع أو مالك ، تبادلا أطراف الحديث .

لا يعشق عبدالله صابر الوقوف طويلا عند الماضى ، كما لا يحب البكاء على الأطلال ، على الرغم من ان صناعته هى تقليب صفحات التاريخ ، فهو مشغول دائما بغرس اصابعه فى اللحظات الآنية ، واستحلابها ، وفحص رحيقها ، بعيدا عن الأوهام .

طبعه السمح ، وحبه للناس ، دفعاه الى معاشرتهم كواحد منهم ، مهما علت طبقاتهم أو انخفضت ، وحديثه الجزل ، وحبه للفكاهة ، يحبب فيه الآخرين ، ويدفعهم للقياه ، والسعى اليه .

لكنه من جانب آخر ، لا يسمح بتكليف نفسه بما لا تطيق ، ولا يذوب فى مشاكلهم وعذاباتهم ، فهناك دوما مسافة فاصلة بينه ، وبين الناس ، مثل تلك المسافة التى تفصل بين الجراح ومرضاه .

رحلة حياته ، الطويلة ، هى قصة "عزبة عويس" ، صعود وهبوط ، انتصارات وهزائم ، اوهام وحقائق ، وغاب عنها ، اكثر من ربع قرن من الزمان ، وعاد اليها ليجد نفسه فيها .

واحد وثلاثون عاما فاصلة ، ففى سنة ١٩٥٢ ، نقل الى مدرسة فاروق الأول الابتدائية فى شارع الهرم ، على بعد سبعة كيلو مترات من عزبة عويس ، وكان جل التلاميذ والتلميذات ، من هنا .

وتعرف على آباء التلاميذ ، وربطته صداقات بهم ، خاصة عباس أبوحميدة ، وكانت ابنته حميدة ، من بينهم ، الى جانب ولد شيخ الغفر ابوجعفر الذى كان يتلقى اوامره من اللواء عويس شخصيا ، فيصادر الجرائد التى تتسلل الى العزبة ويمزقها ، ويفرض رقابة على طلبة الجامعة . اما عمدة العزبة ، حمادة أبوجبل ، فكانت حكايته معه حكاية .

بسبب معرفة عبدالله صابر بالآباء والأبناء ، يظن الناس أنه لم يغب عن عزبة عويس ، يوما واحدا ، حقيقة الصغار صاروا الآن رجالا وامهات ، وأشرف عبدالله صابر على بلوغ الستين من عمره ، وفصلت السنين بينه وبينهم ، لمدة واحد وثلاثين عاما ، لكن وشائج المعرفة كالخيوط السحرية بينه وبين الناس .

قطع عبدالله صابر الطريق الزراعى ، واقترب من احياء العزبة القديمة ، بعد ان عبر ارض السوق ، فاقبل عليه ، قطامش شاكيا من سوء الحال ، ومتاعب البروستاتا المزمنة .

قطامش ، السكرتير الخاص للواء عويس ، يسير الى جواره ، فى جلباب رقيق الحال ، وفوقه بلوفر رخيص .

هه . كانت أيام .

قال قطامش :

ـ الموت أفضل لى من هذه الحياة . البروستاتا تقتلنى . نقطة البول تعذبنى .

ومضى قطامش يروى سيرته .

كنت موظفا فى الخاصة الملكية ، وانتدبنى اللواء عويس ياوران الملك لأعمل معه كسكرتير خاص له ، ولما قامت الثورة فى سنة ١٩٥٢ ، تم فصلى واحالتى إلى المعاش ، وعملت مع اللواء عويس الى حين وفاته ، رحمه الله ، كان يرعانا جميعا ، ويجزل لنا العطاء ، ثم جرى ما جرى ، صودرت املاكه ، ومات مقهورا ، ورحلت ابنته الأميرة جويدان ، وفجأة

وجدت نفسى مشردا ، معاش صغير لا يكفى عصفورة ، لا أود شيئا غير العلاج .

فى الأسبوع الماضى ، قدم الى العزبة حمدى بك الشقيق الأصغر للواء عويس ، أقبلت عليه فصدنى عنه ، كان مشغولا مع المهندسين ، يعاين القصر الذى خرب بعد تحويله الى معهد ، والحدائق التى بارت بعد تحويلها الى أراضى الاصلاح الزراعى ، والقياسون يقيسون العزبة من النواصى الأربع وكأنهم يحزمونها ، ويودون أخذها معهم .

سأل عبدالله صابر ، قال :

ـ يأخذون العزبة ؟

أجاب قطامش ، قال :

ـ الأحكام صدرت لصالح الأميرة جويدان بأخذ اراضيها من الإصلاح ، وغدا يغلق المعهد الزراعى ، ويعود القصر الى اصحابه .

اجابه عبدالله صابر ، فى دهشة مصطنعة ، قال :

ـ قل كلاما آخر يارجل !!

استمر قطامش فى حديثه ، وكأنه يروى مالم يسمع به أحد فى القطر ، قال فرحا :

ـ يعود كل شىء الى حاله ، وتعيننى الأميرة جويدان ناظرا للعزبة ، هى ست طيبة ، وفى غاية الرقة ، نسمة هواء ، لكنها للأسف تزوجت من كرامة ولد سرحان السقا ، فغضب عليها حمدى بك .

توقف قطامش فجأة عن الحديث ، التفت اليه عبدالله صابر ، وجده يضع يديه الاثنتين على محاشمه ، فوق الجلباب الواسع ، بعدها جرى ناحية شجرة ميتة ، اختفى وراءها عدة دقائق .

عاد بعدها وهو ينظر الى اسفل ، لم يفك "زنقته" ، ولم يحس بتلك الراحة التى تدفع بالواحد ليرفع رأسه بعد التبول .

تعاطف معه عبدالله صابر ، فى محنته ، قال :

ـ العلاج واجب ياخال .

استمر قطامش يروى حكايته ، قال :

ـ أود كتابة مكتوب وارسله الى الأميرة جويدان . اكتب لها فيه . تشردنا من بعد اللواء عويس ، وحمدى بك قلبه من حجر . تصور ، لم يرد السلام او يمد يده لى .

قال عبدالله صابر :

ـ اجل هذا الموضوع الآن ، واهتم بالعلاج ياخال .

اجاب قطامش :

ـ ذهبت الشهر الماضى للأستذ مفتاح عبدالمولى ، وكيل وزارة الثقافة ورئيس المجلس الأعلى للثقافة ، رفض مقابلتى ، ولما انتظرته على الباب الخارجى ، صرخ فى وجهى : ابتعد عنى . ابتعد عنى . أنت عندك سل . وأنا لا أعرفك . لا أعرفك .

قلت له فى أدب متوسلا :

ـ يامفتاح بك .

صرخ فى وجهى وهو يركب السيارة :

ـ امش . اياك ان تعود الى هنا .

قلت له هذه المرة :

ـ حاضر يامفتاح . الله يرحم ايام زمان . والطماطم والخيار .

سأل عبدالله صابر :

ـ هل كان مفتاح بك رئيس المجلس الأعلى للثقافة يزرع الطماطم والخيار .

ضحك قطامش ، فاشتد الألم عليه ، وتوقف عن المشى ، بعدها ، قال :

ـ مفتاح دخل الخاصة الملكية معى ، كاتب حسابات فى المطبخ ، وكان يثير مشاكل مع الموردين ، فاذا كانت اقة الطماطم بتعريفة ، ذهب

واشتراها مدعيا بأنها بأربعة مليمات ، حتى أعد له الموردون كمينا ، وكانت فضيحة .

سايره عبدالله صابر ، فى حديثه ، قال :

ـ ياه .

اكمل قطامش حديثه ، قال :

ـ بعد الثورة ، أخذه واحد من الضباط المقربين للرئيس جمال عبدالناصر ليعمل معه ، فى البيت ، وكان يعينه فى كل مؤسسة يذهب اليها ، فى البداية فى وظيفة صغيرة ، درجة ثامنة وبعدها سابعة ، حتى اصبح وكيلا لوزارة الثقافة فى عهده ، وهو لا يفهم فى الثقافة ولا يقرأ الجرائد .

بعدها ، سأل قطامش ، قال :

ـ الا يعنى ذلك ياستاذ ، ان كل حكامنا مفتاح أو على شاكلته ؟

ضحك عبدالله صابر ، قال :

ـ تموت وتتحدث فى السياسة ياقطامش .

قال قطامش محدثا نفسه :

ـ أين الدكتور محمد حسين هيكل ، الدكتور طه حسين ، عباس العقاد ؟ هؤلاء كان المرحوم عويس يطلق عليهم اساطين الفكر والثقافة ، ولا يقرأ الا لهم ، وكانت تجمعه جلسات مع الدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور حافظ عفيفى ، ياسلام ، وفى آخر ايام الزمان يأتى مفتاح . اللهم ارحمنا .

بعدها أكمل ، قال :

ـ تعرف يااستاذ عبدالله ، اكثر ما يغيظنى ، اننى قلت له ، يامفتاح بك . بعدها استدرك مخففا على نفسه ، قال :

ـ على كل حال البكوية اتلغت من زمان .

نزل الليل ، وبانت انوار البيوت الشحيحة ، وبدت الأعمدة الواقفة ولها خيالات طويلة ، عزبة عويس فى تلك الساعة تكون راقدة ، هامدة ، فيما

عدا المقاهى المتناثرة حول أرض السوق الواسعة ، أو على الأطراف ، وكذلك تلك الحوانيت الخالية الا من السجائر الأجنبية .

التقسيم الذى وضعه اللواء عويس ووالده للعزبة ، كان يقسمها الى اربعة أقسام ، القصر على الطريق الزراعى المؤدى الى شارع الهرم ، ثم حدائق المانجو والبرتقال ، وبعدها عدة افدنة خالية ، ثم العزبة الشرقية وبعدها السوق الواسع ومساحة خالية ، كان حلم آل عويس اقامة مصنع للمعلبات عليها ، ثم العزبة الغربية . وبعدها ارض اللواء عويس التى تمتد الى مشارف البدرشين والحوامدية جنوبا ، وهضبة الأهرام شرقا .

وبين تلك المساحات الضخمة التى يمتلكها آل عويس كانت هناك نتوءات صغيرة ، مبعثرة ، يمتلكها صغار المزارعين ، ونشأت بسببها صراعات بين آل عويس وبينهم فى السابق .

ولما صادرت الثورة املاك آل عويس ووزعت الأراضى على الفلاحين المعدمين ، اختلط المعدمون بصغار الملاك ، ونشأت وشائج جديدة ، قلبت أوضاع العزبة ـ خاصة بعد غياب اللواء عويس .

مرقت سيارة الى جوارهما ، وتوقفت بعيدا عنهما فى الضوء تحت عمود النور ، قال قطامش :

ـ حميدة ابنة خال عباس ابوحميدة .

تأمل عبدالله صابر ، ارقام السيارة ، وماركتها ، وصمت فترة ، وطلب من صاحبه ان يتوقف ، قال :

ـ انتظر ياقطامش .

سأله قطامش ضاحكا :

ـ انتقلت اليك ياأستاذ عبدالله عدوى "زنقة المية" ؟

اجابه عبدالله صابر ، وعيناه على السيارة :

ـ رجلـى .

بعدها سأل عبدالله صابر ، فى وقفته رفيقه قال :

ـ تفهم فى ماركات السيارات ياقطامش ؟

أجاب الرجل على الفور ، قال :

ـ صنعتى .

سأل عبدالله صابر فى لهجة ساخرة ، حتى يغطى على مخاوفه التى برزت فجأة ، قال :

ـ ماهى ماركة السيارة الواقفة ؟

اجابه قطامش :

ـ فيـات ٣١ .

سأل عبدالله صابر ، قال :

ـ متأكد ياقطامش . فيات ٣١ ؟

اجاب قطامش فى ثقة ، وهو يضع يديه على محاشمه :

ـ متأكد يااستاذ .

تأمل عبدالله صابر ارقام السيارة الواقفة تحت العمود ، وقال لنفسه ، هه ياحميدة . من شابه اباه فما ظلم ، لكن خال عباس ابو حميدة شغل نفسه بالسياسة وليس بالاجرام .

طلب عبدالله صابر من رفيقه ، ان يفك زنقته ، وغاب قطامش عدة دقائق فى الظلام ، وعاد مدليا رأسه ككلب هده الجوع ، فأدرك عبدالله صابر ان رفيقه لم يفك "زنقته" ، ودهمه الأسى والحزن ، وقد اظلمت الدنيا فى وجهه ، ورأى ان يرحم الرجل من الحديث ولا يزج به فى مشاغل اخرى .

قال قطامش فجأة :

ـ حميدة ابنة خال عباس ابوحميدة ، اخذتنى منذ ست سنوات الى استاذ فى القصر العينى ، عدة مرات ، كانت وقتها فى السنة الأولى فى كلية العلوم ، أخذتنى من يدى ، قالت : تعال ياخال .

صمت قطامش بعدها عن قصد ، بعدها قال :

ـ مسكينة . شفاها الله .

تقدما عدة خطوات على مهل ، خارج دائرة الضوء الذى يسقط على السيارة ، تذكر قطامش شيئا ، وضع يده على رأسه ، كأنه يبعد الألم عنه ، أو كأنه ينشط ذاكرته لتسعفه بدعك فروة رأسه ، وبعدها أنزل يده ، ووضعها على محاشمه ، قال :

ـ عجيبة . سيارة حميدة بنت خال عباس روسى . ماركة ...

قاطعه ، عبدالله صابر ، ضاحكا ، قال :

ـ شفيتم ياقطامش .

قال قطامش فى لهجة حازمة ، وكأنه لا يزال يعمل فى الخاصة الملكية :

ـ هذه ليست حميدة وهذه ليست سيارتها ، غير ان لوحة ارقام السيارة هى لوحة ارقام سيارة حميدة الروسية الصنع . فى الأمر جريمة ياأستاذ عبدالله .

نزلت كلمة جريمة على رأس الأستاذ عبدالله صابر كالصاعقة ، وكان فى يده خيرزانة طويلة ، فضحك ، اما فى يده الأخرى ، فكان ممسكا بمسودة تمثيلية "حكايات الخالة بهانة" ، فشدد قبضته عليها .

قال قطامش محدثا نفسه ، بصوت عال :

ـ منذ هوجة التقسيم ، والبلد ركبها عفريت . الناس جنت .

استمع اليه عبدالله صابر . عيناه واذناه معلقتان بالسيارة الواقفة فى دائرة الضوء الشحيح لعمود النور . قلبه يدق بشدة لسبب غامض وفى عقله تدور مخاوف كثيرة .

يسيران بعيدا عن دائرة الضوء ، لكنهما يقتربان منها فى خطوات بطيئة . ماذا يفعلان ؟ هذه ليست حميدة ابنة خال عباس ابوحميدة . انتقلت المخاوف بينهما . الليل والسكون ربيبهما الخوف . وقال قطامش شيئا ليكسر حدة السكون :

ـ حميدة ابنة الخال عباس اخذتنى من يدى فى السابق الى طبيب اما الآن فهى لا تمد يديها لى . والكل يقول لى ابعد عن طريقها ياقطامش .

ضرب قطامش كفا بكف ، قائلا :
- خسارة ياخال عباس .
فجأة سأل قطامش ، قال :
- هذا كله بفعل الصهاينة وسياسات الرئيس السادات ، الله يرحمه ، أليس كذلك يااستاذ عبدالله ؟

اجابه عبدالله صابر ، قال :
- الله له حكمة فى شئونه ياقطامش .

تحاشى عبدالله الخوض فى السياسة أو ذكر أنور السادات وهما يقتربان من السيارة ، وتمنى ان ينشغل رفيقه قطامش بآلام محاشمه ويكف عن الثرثرة دقيقة أو دقيقتين حتى يعبرا السيارة الواقفة .

قال قطامش :
- ابنة خال عباس ابوحميدة تنقبت . ولد ابوجعفر شيخ الغفر السابق صار كالثور الهائج الذى لا يشبع من جمع النقود ، وجمع الإتاوات ، حمادة ابوجبل العمدة السابق الذى لا يهش ولا ينش اصبح نائبا فى البرلمان ورجل اعمال "بيزنس" كبيرة كبيرة .

واكمل قطامش حديثه فى أسى ، قال :
- اذا عادت الأرض للأميرة جويدان وكلفت عمها حمدى بإدارتها ، لن يجد احدا يعاونه فى اصلاح ما فسد ، الناس راحوا ..

تذكر قطامش شيئا ، قال :
- ولد العمدة حمادة ابوجبل طالع لأخواله ، الخالق الناطق عباس ابوحميدة ، ربته امه ستهم على عوايد اهلها وليس عوايد عائلة ابوجبل .

سأل عبدالله صابر ، قال :
- الا توجد أخبار من خال عباس ابوحميدة ياقطامش .

اجاب قطامش وهو يضع يده على محاشمه ، قال ؟
- اخبرنى ولد العمدة ، ان خاله سوف يتوجه الى جنيف فى عمل ثم يعود الى مصر ، بعد سقوط اوامر الاعتقال ضده بموت السادات .

قال عبدالله صابر مضيفا :

- الخال عباس ابوحميدة زينة الرجال ، اصبح مطاردا ، يعيش فى الغربة . حقيقة ياأولاد . لا يبقى على المداود غير شر البقر .

ضحك قطامش - حتى كادت عروق بطنه تنفجر - فور سماعه كلمة البقر ، فتوقف ، ففى رأيه ان هؤلاء الناس هم البقر ، اما كبار القوم فقد ذهبوا او رحلوا عن دنيانا ، وهذه الأيام هى آخر الأيام . ربما امسك قطامش بكلمتين من حديث عبدالله صابر : الغربة ، والبقر . فأثارت الكلمة الأولى االشجن فى قلبه ، واضحكته الثانية الى حد الموت . اما ما قصده عبدالله صابر فقد غاب عنه بسبب انشغاله بحركة مفاجئة داخل السيارة الواقفة فتناول مسدسه واطلق رصاصة فى الهواء على الفور .

وقع ذلك كله فجأة ، فى اقل من ثانيتين ، وفرت السيارة على اثرها وضاعت على الطريق الجانبى المؤدى الى نزلة السمان .

ظل رنين الطلقة يتردد فى الخلاء وتصده بيوت العزبة البعيدة فيبدو وكأنه سلسلة من الطلقات المتلاحقة وقد انطلق نباح الكلاب .

بعد فترة ابتلع صمت الخلاء صوت الطلقة وأصداءها ورنينها . سأل عبدالله صابر رفيقه وهو يهز الخيرزانة فى يده ، قال :

- تمتلك سلاحا ياقطامش ؟

اجاب قطامش ، قال :

- مرخص . لا يفارقنى . أنا سكرتير اللواء عويس ياوران الملك فاروق .

اجابه عبدالله صابر ، قال :

- طيـب .

انقطع الحوار بينهما ، وغرق عبدالله صابر فى همومه .

* * *

فى اليوم التالى عثر على عبدالله صابر مكوما امام باب الدار وقد اخترقت جسده عدة طعنات بخنجر من الخلف .

المسرحية فى يده اليمنى ، والمفتاح فى يده اليسرى . وتوقف فى البداية المحققون عند سبب امساكه بالمفتاح فى يده اليسرى حتى كشفت نتائج تشريح الجثمان عن اصابة يده اليمنى بآلام شديدة وعجز عن تحريك الابهام والسبابة يعودان الى سنوات بعيدة . وغاب عن رفاقه معرفة سبب هذا العجز الذى يعود الى السنوات ١٩٥٨ ـ ١٩٦٣ .

(١)

شمس الماضى أشد فتكا بالروح من أحلام المستقبل الوردية التى لم يقدر لها التحقق بعد . هى تبزغ فجأة فتعرى الحقائق وتزيل عنها تلك الستائر الواهية التى طرزتها الأيام والليالى .

الماضى قد يغيب لسنوات أو عقود متتالية لكنه أبدا لا يضيع وتظل أنيابه مغروسة فى لحم الحاضر الحى .

ثلاثون عاما فصلت كرامة سرحان السقا عن حبيبة صباه اليافع وابنه ، وهاهى ذى تحل فجأة بمدينة جنيف فى صحبة زوجها الدكتور أحمد السيد باشا وابنها من كرامة الذى هربت به وهو فى بطنها جنينا من عزبة عويس ، فلم يره كرامة قط ولم يسمع صوته ولم يعرف تاريخ مولده .

حرمته زهية من ابنه طوال تلك السنين عن قصد ، وهاهى ذى تأتى الى جنيف بعد تلك السنوات الطوال لتجده فى انتظارها فى المطار .

فى تلك السنوات البعيدة ، وقبل قيام ثورة ٥٢ بعدة أشهر ، قالت له بصريح العبارة :

ـ فى بطنى نطفة من صلبك وأنا لن أسقطها .

وكان ذلك قبل أن تبين علامات الحمل عليها ، ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وبانت عليها علامات الحمل وبدأ النسوة يدققن فى جسدها ويرمين ويلسن بالكلام الجارح ، قالت له :

ـ اسمع ياكرامة . فى بطنى ولد وسوف أسميه محمد نجيب تيمنا باسم قائد الثورة الذى خلصنا من ظلم اللواء عويس والأميرة شويكار .

وبعدها أضافت قائلة :

ـ سوف أهرب بابنى الى القاهرة الواسعة . أحمله على كتفى وأدور به على الأبواب كالشحاتين .

ثار كرامة ابن المدارس المتعلم ووضع فى يدها بضعة جنيهات وطلب منها ان تسقط الجنين ، لكنها رفضت .

وفجأة اختفت زهية عاملة الترحيلة من عزبة عويس . دبرت احوالها وغادرت العزبة فى الظهيرة .

ودار كرامة سرحان السقا كالمجنون فى دروب العزبة باحثا عنها حتى وقع فى الخية التى نصبها له فى خبث وحنكة اليوزباشى شهدى الشшتاوى .

كان كرامة وقتها قد التحق بكلية الآداب ، تلميذا متفوقا ، فداوره ولعب به اليوزباشى شهدى الششتاوى ، وأخذ يسرب له أخبار زهية بالقطارة وعلى فترات متباعدة حتى حرق دمه وطوعه لخدمته : زهية موجودة فى المعادى . زهية فى قصر الدكتور أحمد السيد باشا . زهية مخطوفة وليست حرة .

جاءته أخبارها هشة ومتناثرة كذرات الغبار التى لا قوام لها فيتابع جريه وراء السراب متفانيا فى خدمة حضرة اليوزباشى شهدى الششتاوى جازاه الله وغفر له .

ولما عصف الرئيس جمال عبدالناصر بمجموعة يوزباشية هيئة التحرير : الطحاوى وطعيمة والششتاوى وقد استقرت له الأمور بعد أزمة مارس ٥٤ كان نصيب كرامة سرحان السقا الاعتقال لمدة ثلاثة أشهر . قبض عليه وهو فى قاع طائرة متجهة الى ألمانيا فى منحة دراسية لا يستحقها دبرها له اليوزباشى شهدى الششتاوى ثمن فعاله الخسيسة الحمقاء ضد اساتذته ورفاقه . ولكن هذا قصة أخرى .

وجرت الأيام والسنون ، واكتملت ثلاثون عاما فاصلة بين كرامة سرحان السقا وبين ابنه وأمه زهية . وهى أيضا ثلاثون عاما فاصلة بين ثورة يوليو ١٩٥٢ وبين اغتيال الرئيس السادات منذ عدة أشهر .

مياه كثيرة جرت فى نهر النيل فى تلك السنوات بدلت حياة الناس وبدلت حياة كرامة سرحان السقا أيضا . غادر عزبة عويس والتحق بوزارة

الخارجية وتزوج من الأميرة جويدان ابنة اللواء عويس ياوران الملك السابق فاروق ، وكون ثروة لا بأس بها فى عهد الرئيس السادات ، لكن شيئا ما كان دائما ينقصه ويحسه فى أعماقه ولا يعوضه المال أو الجاه ، وهو فقدانه لأبنه .

ماهى طلعة ابنى محمد نجيب ؟ هل يشبهنى أم أخذ الكثير عن أمه ؟ على كل حال زهية التى عرفتها فى صباها وفجر شبابها كانت مليحة الطلعة ، فارعة القوام ، ومهما هدتها الأحزان والكروب فابنى لابد قد اكتسب شيئا من حسنها فهذه هى قوانين الطبيعة الجبارة التى لا تعترف بالفقر أو القهر .

هذه هى التساؤلات التى دارت فى رأس كرامة سرحان السقا وشغلته طوال يومه ، ولكن التساؤلات الأكبر التى أخذت تطوف فى باله من حين الى آخر ، فتهز كيانه هزا ، فيهرب منها ، لماذا يلتقى بزهية فى جنيف ، وبعد ثلاثين عاما ؟

ولا يرى اجابة الا ان المقادير قد قررت معابثته أو معاقبته على فعلته أو جريمته البشعة ، وهاهى ذى ساعة العقاب قد حلت فى الغربة .

ربما اذا رأى كرامة سرحان السقا زهية فى ناد أو حفل عشاء فى القاهرة أو الإسكندرية لكان وقع صدمة اللقاء الأول أهون على روحه أما أن يلتقى بها فى جنيف ، فهنا المفارقة العجيبة ، أو الحبكة الشيطانية التى سوف تعصف به .

قال كرامة سرحان السقا لنفسه ، من الطبيعى ان التقى بزهية هانم فى القاهرة بعد زواجها من الدكتور أحمد السيد باشا أما ان التقى بها فى جنيف بعد ثلاثين عاما فهذا هو الجحيم بعينه .

وقال كرامة لنفسه متفلسفا :

ـ اذا كان اغتيال الرئيس السادات هو أكبر مفاجأة لى على المستوى العام فان قدوم زهية الى جنيف غدا هو أكبر مفاجأة لى على المستوى الخاص ، واذا كان شهر أكتوبر ١٩٨١ قد شهد اغتيال أول رئيس لمصر فإن شهر ابريل ١٩٨٢ يعد لى ماهو أشد تعذيبا من الاغتيال .

أمس كان كرامة على وشك مغادرة غرفة السفير عبدالرءوف الريدى عندما سمعه يكلف زميلا له بالتوجه الى المطار غدا لاستقبال الدكتور أحمد السيد باشا وعائلته .

قال السفير عبدالرءوف الريدى :

- الدكتور أحمد السيد باشا من كبار أساتذة القانون الدولى فى العالم وعمره تجاوز الثمانين عاما وصحته لا بأس بها .

وأضاف السفير الريدى قائلا :

- كان أستاذا لى فى كلية الحقوق .

وطلب السفير العناية به وتوفير كل سبل الراحة له وابلاغه تحياته الى حين ان يقيم له حفل عشاء فى بيته .

وأضاف السفير الريدى قائلا :

- الدكتور أحمد السيد باشا قد قدم بجواز سفر دبلوماسى فى مهمة ويبدو أنه فى حاجة الى فحوصات طبية عاجلة .

وسأل الزميل المكلف باستقبال الدكتور أحمد السيد باشا عن المرافقين ، فأجابه السفير عبدالرءوف الريدى وهو ينظر فى ورقة أمامه :

- زوجته زهية هانم الصفطى وابنها من رجل آخر ويدعى محمد نجيب .

دون الزميل الأسماء فى ورقة وضعها في جيبه بينما وقف كرامة وكأن سهم الله قد حل به . زهية الصفطى . محمد نجيب . اسمان ، لكنهما بالنسبة اليه يمثلان كتلة الثلج العائمة تحت الماء ، وصفحات حياته المنسية عن عمد .

التفت اليه سعادة السفير ، وسأله :

- هل تعرف الدكتور أحمد السيد باشا ياكرامة ؟

أجاب كرامة وهو يخفض رأسه بكلمة واحدة :

- نعم .

أكمل السفير الريدى حديثه ، قائلا :

- الدكتور أحمد السيد باشا يذكرنى دائما بالدكتور طه حسين . ربما

لأن كلا منهما كان نابغة فى مجاله وربما أيضا لعشق الدكتور أحمد للغة العربية الفصحى والحديث بها فى سلامة وعذوبة لا تقل عن الدكتور طه حسين .

لم يعلق كرامة وتوجه الى مكتبه وجلس .

ارتسمت على وجه كرامة سرحان السقا تقطيبة فظيعة طوال النهار بينما كانت تدهمه ضحكة مجنونة من وقت الى آخر عندما يتذكر قول سعادة السفير عبدالرءوف الريدى لزميله : "محمد نجيب ، ابنها من رجل آخر" . ويقول لنفسه : أنا هذا الآخر .

كلمة الآخر توجع كرامة دائما ، لأسباب ضاربة بعيدا فى نفسه ، ففى بعض الأحيان يتوه فى مسالك الحياة ، ولا يعرف هل هو المستشار بوزارة الخارجية زوج الأميرة جويدان أم كرامة ابن سرحان سقا عزبة عويس الذى كان يدور فى العزبة بالجلباب و"البلغة" أم شخص ثالث آخر لم تتشكل ملامحه بعد ؟

على العشاء كان كرامة صامتا ـ كعادته ـ لكنه كان منقبضا الى حد الموت هذه الليلة ، وللنساء قرون استشعار خفيه ، وسألته الأميرة جويدان فى ود :

ـ ماذا بك ياكرامة ؟

أجابها فى قرف ظاهر :

ـ كتفى تؤلمنى .

قالت الأميرة بنت الأمراء مهونة الأمر :

ـ برد الشتاء ياعزيزى .

وعادت الى صمتها فأراحته من الحديث ، وكانت ابنتهما ابسنت تجلس فى مواجهته ، ويبدو ان صمت والديها ضايقها ، فقالت :

ـ دادى . سوف أدلك لك كتفك بمرهم يزيل آثار البرد .

توقف كرامة سرحان عن الطعام ، وكان الصمت والحديث يضايقانه ، وتقلصت أمنياته كلها وتضاءلت فى رغبة واحدة : الانفجار .

لكنه من جانب آخر كان مدركا لوضعيته ، فمن لم يزاول متعة الانفجار فى شبابه لن يخرج عن المألوف فى كبره ، أو فى سنوات نضجه كما يقولون ، فهو لن يقوم مستقلا أول طائرة عائدا الى عزبة عويس ليرتدى الجلباب الأبيض ويجلس على حافة الترعة .

وكان ذلك أيضا يؤلمه .

الدبلوماسية وحسن الأدب يعنيان فى المقام الأول كتمان المشاعر ورسم تلك الابتسامة الفاترة على الشفتين ، وتعلم الحديث بصوت خفيض وبكلمات واضحة أما علو الصوت وتنغيم الكلمات وصبغها بالمشاعر فيتعارض مع حسن الأدب .

ووضع كرامة ابتسامة باهتة على شفتيه ، وتوجه بالحديث إلى ابنته ، قال :

ـ ابسنت . هذه الآلام مرجعها حادثة قديمة .

رمقته الأميرة جويدان بنظرة ثاقبة ، وقد توجست شرا من حديثه ، ونقلت ابسنت بصرها بين والديها ثم ركنت هى الأخرى الى الصمت وتابعت الأكل .

وتضايق كرامة من صمت ابنته ، وانتظر أن تسأله فى فضول عن تلك الحادثة القديمة التى تسبب له الآلام فى كتفه ، لكن انتظاره طال ، وبقدر ما شعر فى البداية بالراحة لكبحها فضولها واراحته من الكلام ، بقدر ما ضايقه صمتها وترفعها عن السؤال وكأنها ليست بابنة له من صلبه ودمه .

وهون كرامة الأمر على نفسه ، ملقيا اللوم على زوجته ، فقد تعلمت ابنته اخفاء مشاعرها ـ على الرغم من صغر سنها ـ من والدتها ، فهى دبلوماسية بطبيعتها ، وقد اخذت عنها ابنته ابسنت هذا السلوك المحبط .

انتقل كرامة الى البهو ساخطا ليدخن ، فاسرعت اليه ابنته ، وقد فرغت من طعامها ، وعرضت عليه ان تعد له كوبا من الشاى ، واقتربت منه كأنها تعتذر عن صمتها السابق . فقال لها كرامة مبتسما فى وجهها :

ـ ارجوك يابسنت . شاى ثقيل . صعيدى .

ضحكت ابسنت وهى تسرع الى المطبخ .

وهدأ كرامة قليلا ، غير أن هدوءه لم يدم طويلا للأسف ، فقد أقبلت عليه زوجته الأميرة جويدان ، وفى نبرة مليئة بالنقد ، قالت :

ـ ربما كثرة التدخين تؤلم كتفك .

كادت ملاحظتها ـ التى رآها غبية ـ تؤدى به الى الانفجار ، لكنه تمالك نفسه ، وقال :

ـ فنجان شاى وقرص اسبرين ويزول الألم .

لكنها وقفت فى منتصف البهو وسرحت ، وكأنها لا تصدقه .

وكان كرامة مشغولا بوصول ابنه الى جنيف غدا ، فلم يلق بالا اليها ، والسؤال الذى يقلقه ، كيف يواجه زهية وكيف يمد يده الى الدكتور أحمد السيد باشا ، وهذه اليد قد وقعت على شكوى دبجها اليوزباشى شهدى الشقشتاوى بأسلوب ردىء يتهمه فيها بخطف زهية وتم رفعها الى البكباشى جمال عبدالناصر .

زهية الصفطى ، هذه أول مرة يلتفت فيها كرامة ، الى اسمها ، ففى عزبة عويس فى الزمن الغابر كان لقبها زهية الغجرية أو زهية عاملة الترحيلة أو زهية الفاجرة أو غير ذلك من الألقاب الساقطة .

كيف يقابل كرامة ابنه وكيف يدبر لقاء معه ؟ وكيف توصلت زهية الى الزواج من استاذ القانون ؟ لا يعرف !!

وبعدها قال كرامة لنفسه : اذا كان كرامة ابن سقا عزبة عويس ، قد تزوج من اميرة وابنة اقطاعى سابق ، فلا بأس ان تتزوج زهية من باشا ، فالنساء لديهن اسلحة خفية .

كرامة درس وتفوق . ثابر على مكاره الجوع والفقر والحرمان . التحق بالخارجية دون واسطة أو محسوبية ، فهل درست زهية وتفوقت أيضا أم اعتمدت على أنوثتها وشبابها فى الإيقاع بالرجل الذى يكبرها باربعين عاما ؟

هذه هى ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ التى فتحت الأبواب أمام الصعاليك الجوعى للتربع على أعلى المناصب فى الدولة ، لكن ابناء الدهماء خانوا البلد والثورة ، بسبب طموحاتهم ورغبتهم فى التسلق ، وما هزيمة ٦٧ المدوية إلا نتيجة تقاعس ، وما رحلة الرئيس السادات الى القدس الا لاستسلامنا . هكذا كان كرامة يحدث نفسه ويأخذها بالشدة .

ولم تكن كتفه تؤلمه فى حقيقة الأمر قدر الآلام التى يحملها تحت جلده الذى يلف جسده .

وضعت ابسنت الشاى أمامه ، فى اللحظة التى كان يقول فيها لنفسه ، "الحياة كذبة كبرى ياكرامة ، وأحمق من يعتقد غير ذلك" .

فجأة طلبت ابسنت منه ان يحدثها عن تلك الحادثة القديمة ، فتشاغل عنها بفنجان الشاى برهة ، ليفتش عن حكاية ملفقة يرويها لها ، كسقوط من اعلى الدرج أو وقوعه بينما يتزلج على الجليد ، لكنه نفض عنه تلك الأكاذيب وخلع قميصه ، وطلب منها ان تتأمل العلامات والخطوط السوداء على ظهره التى تمتد حتى تحيط بكتفيه .

فى هذه اللحظات الحرجة كانت الأميرة تنظر اليه فى غضب ، ونظرتها فيها من الكراهية أكثر مما فيها من دهشة .

وكما توقعت الاميرة ، سألت ابنتهما ، قالت :
- ما هذه الخطوط السوداء يادادى ؟ انها محفورة . لابد أنها تؤلمك بشدة .

وضع كرامة القميص عليه ، وقال وهو يتذكر تلك السنوات :
- هذه الخطوط من آثار ضربى بالسوط مائة جلدة فى ...

وقبل أن يكمل كرامة جملته ، سألت ابسنت فى براءة :
- من هذا المجرم الذى ضربك بالسوط يادادى ؟

لم ينطق كرامة بكلمة واحدة ، لكنه مد يده وأشار الى الصورة الكبيرة المعلقة فى البهو .

بانت الدهشة على وجه الصغيرة ، سألت :
ـ جدى الجنرال عويس ؟

قال كرامة :
ـ نعـم .

أسرعت الأميرة جويدان بالتدخل فى الحديث لإصلاح ما أفسده كرامة بثرثرته الفارغة مع البنت ، قالت :
ـ تسبب والدك فى وقوعى من فوق الحصان وكسرت قدمى . عاقبه والدى على فعلته .

لم تلتفت ابسنت الى قول أمها ولم تقتنع بكلامها ، ونظرت الى الصورة الكبيرة المعلقة ، وقالت فى أسى :
ـ لماذا كل هذه القسوة ياجدى ؟!

قالت زوجتى فى ثورة :
ـ هذه حادثة قديمة ، قديمة جدا ، لماذا ترويها لأبسنت ، هل جننت ؟

قلت دون وعى منى :
ـ الماضى لا يموت ياسمو الأميرة .

نظرت الى نظرة أميرة الى عبد لديها ، قالت :
ـ حقيقة .

أدركت فى تلك اللحظة وحدها ، أن كل ما يربطنى بجويدان قد قطع ، وانطلقت الى غرفتى منسحبا فى صمت ، تاركا ابنتى وأمها وحدهما .

كل الكائنات الحية تشهد فى كل لحظة عمليات هدم وبناء . تولد مرحلة وتموت مرحلة ، الرضيع يصبح صبيا وشابا ورجلا وشيخا . هذه حقيقة يعرفها كرامة سرحان جيدا من دراسته للفلسفة ، ويرى أنه استثناء من هذه القاعدة ، فهو لم يمت فى داخله شىء ولم يولد فى داخله شىء ، لكنه عبر السياج قفزا ، قائلا لنفسه :

"أنا كرامة سرحان السقا مثل المجتمعات المتخلفة ، لا شىء فيها

يموت ولا شيء يولد ، بل يبقى كل شيء على حاله ، فيما عدا طفرات بين الحين والحين ، كأن يتولى الصعاليك ـ أولئك الذين نطلق عليهم تأدبا ، أبناء الشعب الكادح ـ أرقى المناصب فيخونون الرسالة" .

صالة كبار الزوار في مطار جنيف كعهده بها ، هادئة الا من ضجة الدبلوماسيين ووقف بينهم صامتا ، فى انتظار وصول ابنه وزهية هانم زوجة الدكتور أحمد السيد باشا .

طلب كرامة من الوزير المفوض شكرى فؤاد أمس أن يسمح له بالحضور لاستقبال محمود بك القرشي وكيل وزارة الخارجية الذى تصل طائرته بعد طائرة الدكتور أحمد السيد باشا بعشرين دقيقة .

نظر الوزير المفوض شكرى فؤاد الى كرامة فى ود ، وقال :
ـ لا مانع ياسعادة المستشار .

ودعاه الى الجلوس لشرب فنجان قهوة معه .

تحدثا فى البداية حول بعض المسائل الروتينية المعروفة ، وادرك كرامة ان الوزير المفوض فى انتظار وصول القهوة ، ليفاتحه فى أمر مُهم .

الوزير المفوض شكرى فؤاد رجل دمث الخلق واسع الحيلة وتيقن كرامة ان رسالته له سوف تكون بطريقة غير مباشرة ، ورشف عدة رشفات من القهوة منتظرا ، وقال الوزير المفوض بطريقة عفوية :
ـ أعتقد أنه لا يخفى عليك ياسعادة المستشار ان الشتاء قد حل مبكرا هذا العام .

ابتسم كرامة سرحان ، غالب الضحك ، وقد وصلته الرسالة ، فالوزير المفوض لا يدعوه الى القهوة فى مكتبه ليبلغه بحالة الجو فى سويسرا ، انما لينبئه بأن حركة الترقيات قد حلت قبل موعدها ، وقد وصلته الرسالة ، غير ان الوزير المفوض كانت لديه رسالة أخرى ، ينتظر اللحظة المناسبة ليفصح عنها ، قال :

ـ سعادة السفير سوف يكون فى استقبال محمود بك القرشى ، وارجو

بعد انتهاء مراسم الترحيب ان تأتى مباشرة الى البعثة ، لك عندى دراسة عاجلة .

قال كرامة على الفور :
ـ حاضر .

وصلته الرسالة ، الوزير المفوض يمنعه من التوجه الى الفندق فى صحبة محمود بك القرشى وكيل وزارة الخارجية ، وان حركة الترقيات سوف تعصف بأولئك الذين سخروا أنفسهم لخدمة حاشية الرئيس السادات .

وهاهو ذا كرامة سرحان يقف بين زملائه صامتا ليست به رغبة فى حديث وليست به رغبة فى استقبال محمود بك القرشى ، فما قدم مبكرا الا لأستقبال ابنه .

عندما قال كرامة أمس لزوجته الأميرة جويدان :
ـ الماضى لا يموت ياسمو الأميرة .

أجابته على الفور :
ـ حقيقة .

وقصدت بذلك أن الأميرة تظل أميرة ، أما الصعلوك فيظل صعلوكا ، وفاتها ان حكمة البسطاء هى ان الدنيا "قلابة" ، "لا تدع الراكب راكب ولا الماشى ماشى" .

لكن هذه حكمة بسطاء الناس ، ما لنا ومالها هنا فى جنيف .

فتحت مضيفة الباب المؤدى الى فناء المطار وقد صحبت معها زميلة ، وراقبهما كرامة وهما يستقلان السيارة فى اتجاه الطائرة ، ودار فى الغرفة متابعا السيارة من وراء الزجاج حتى غابت عنه .

طائرة شركة مصر للطيران تقف دائما بعيدا ، هناك فى الجهة الأخرى من المطار ، ومن يقف فى غرفة كبار الزوار لا يلمحها . كان فى مقدوره التوجه الى الشرفة العليا لمراقبة الهابطين من الطائرة ، لكن الوقت قد

فات ، وكلها دقائق ، وتقف السيارة أمام الباب لتهبط منها زهية وفى صحبتها ابنه محمد نجيب وزوجها الدكتور أحمد السيد باشا .

ما شكل زهية ؟ ماذا ترتدى ؟ كيف تتحدث ؟

هل يتقدم منها ويمد يده لها بالسلام ؟

قال كرامة لنفسه : ابسنت تأكدت اليوم أن لها أخا ، فمهما قيل إنه من رجل آخر ، فأنا هذا الآخر .

يحتمى كرامة سرحان وراء سحابات الدخان التى ينفثها من فمه متلاحقة ، اقترب منه زميل وسأله :
- هل تعرف الدكتور أحمد السيد باشا ؟

أجابه كرامة فى اقتضاب قائلا :
- هو من أشهر أساتذة كلية الحقوق .

وتراجع كرامة عن الباب ليقف فى عمق الغرفة ، مهموما بثقل الثوانى عليه وليس الدقائق .

توقفت السيارة أمام الباب ، فتوقف قلب كرامة ، ونزلت سيدة أنيقة وخلفها شاب ، وفى الناحية الأخرى من السيارة لمح كرامة رأس الدكتور أحمد السيد باشا وهو يدور حول السيارة لينضم الى الركب ، ولما اقتربوا من الباب ، رآه كرامة يسير منتصبا مستندا الى عصاه وابنه محمد نجيب يسير الى جواره ، بينما انهمكت زهية فى حديث هامس مع المضيفة السويسرية .

هتف كرامة فى قلبه ، "عمار يامصر" . عاملة الترحيلة فى عزبة عويس تضع الفراء على جسدها وتتحدث الى مضيفة سويسرية وتفتح لها قاعة كبار الزوار التى تستقبل رؤساء الدول فى جنيف ، وأكمل هتافه الصامت : لم تمت ياجمال عبدالناصر . لم تمت ياناصر . واغرورقت عيناه بدموع .

وتجمع المستقبلون فى حركة دءوبة على هيئة نصف دائرة ، وضجة الاستقبال لا تسمح بالذكريات سواء كانت سعيدة أم مؤلمة ، ومد كرامة

سرحان يده الى زهية هانم ، فنظرت اليه ، وافتر ثغرها عن ابتسامة حلوة ، وقالت :

ـ شكرا سعادة المستشار .

والتفتت الى زوجها الدكتور أحمد السيد باشا ، تقدمه اليه قائلة :

ـ سعادة المستشار كرامة سرحان من بلدياتى ياباشا .

قال الدكتور أحمد السيد باشا :

ـ شكرا يابنى .

كان للدكتور أحمد السيد باشا تلاميذ من بين المستقبلين ، فانشغل بالحديث اليهم ، والتفتت زهية الى كرامة قائلة :

ـ لى طلب عندك ياسعادة المستشار .

قال كرامة فى لهفة :

ـ تحت أمرك ياهانم .

كانت لهجتها وطريقة حديثها ، طريقة زهية عاملة التراحيل ، وسألته عن عنوان خال عباس أبوحميدة ، وأوضحت قائلة :

ـ خال عباس يحضر اجتماعا فى منظمة العمل الدولية هذه الأيام .

لم تقدمه زهية الى ابنه ، لم تقل له ، هذا محمد نجيب ، رمز الثورة التى حلمنا بها لتخلصنا من عذابات اللواء عويس وزوجته الأميرة شويكار رفقى .

شغلته بالبحث عن عنوان الخال عباس أبوحميدة حتى ابتعد عنهما محمد نجيب .

كل ما سعى كرامه إلى نسيانه يحاصره فى لحظة واحدة ، زهية ومحمد نجيب وخال عباس أبوحميدة كلهم هنا فى جنيف ، بينما هو يقف مذبوحا فى قاعة كبار الزوار . شريط من الذكريات أمامه ، قلعته التى بناها لتوفر له الأمن تنهار فجأة فى لحظات هشة ، بعد أن ظن أنه أقام الأسوار حولها التى توفر له راحة البال .

سرح كرامة مشدودا الى ابنه ، الخالق الناطق ، أبوه سرحان السقا ، وان كانت ملامحه قد اكتسبت ملاحة زهية . بين أوراق كرامة الخاصة التى يحملها معه من مدينة الى أخرى ، ولا يطلع أحدا عليها ، صورة صغيرة لأبيه سرحان السقا . صورة صغيرة لم ترها ابنته ابسنت ، ولم تواته الجرأة أيضا على تكبيرها ووضعها فى الصالون أو حتى الى جوار فراشه .

ابسنت لا تعرف سوى صور عائلة أمها .

اليوم ، سوف يطلع ابسنت على صورة والده ، يقول لها : هذا جدك لأبيك . كان لا يحمل سيفا أو سوطا ، لكن قربة على كتفه يوزع منها الماء على البيوت فى عزبة عويس التى كنا نعيش فيها كالعبيد .

اذا لم تصدقنى ابنتى اطلعتها على الخطوط السوداء المحفورة فى ظهرى مرة ثانية ، وقلت لها هذا دليلى ، أحمله على جسدى ياابسنت .

لن افقد ابنتى كما فقدت ابنى ، سوف اطلعها على مكنون نفسى ، وكما اطلع ابنتى على الحقيقة ، يتعين على زهية ان تطلع محمد نجيب على الحقيقة ، ان تقول له : يامحمد ، هذا والدك ، وتشير الىّ .

مضت دقائق ، والملعونة لم تقدمه الىّ أو تعرفه بى ، بل ابتعدت به عنى - عن عمد - حتى صرنا نقف على هيئة مثلث ، وكلما اقتربت منها مقربا المسافة ، تراجعت عن ابنها الى الخلف لتزيد المسافة بينه وبينى .

معها حق . هذه ليست ساعة فضائح قديمة ، واذا كنا فى الشرق نرى الابن أو الابنة للفراش فان الواقع يقول إن الطفل لمن يربيه ، وهذا ابن الدكتور أحمد السيد باشا .

هذه هى الحقيقة .

الجميع يتأهبون لمغادرة قاعة كبار الزوار ، ورفيقى على مقربة من الدكتور أحمد ، احترت هل أخرج خلفهم أم ابقى فى موضوعى ، نادتنى زهية فتوجهت ناحيتها ، قالت :

- تحياتى الى سمو الأميرة جويدان .

قلت :

ـ شكرا ياهانم .

سألتنى ، قالت :

ـ هل تقبل اليوم دعوتنا على العشاء ؟

ترددت قليلا ، وبعدها قلت :

ـ أحضر قبل العشاء .

قالت فى ثقة ، وكأنها ليست خائفة منى :

ـ كما ترى . نحن نتناول الشاى فى الساعة الخامسة والنصف .

قلت :

ـ هذا يناسبنى يازهية هانم .

ابتسمت ، وبعدها سألتنى فى رجاء :

ـ ياليتك تحضر خال عباس معك ، هو فى منظمة العمل الدولية فى اجتماع .

قلت :

ـ حاضر .

تقدمت زهية نحو السيارة لتلحق بزوجها وابنها ، وبقيت فى موضعى أرقب هذا الموكب الذى هبط علىّ من السماء فقلب حياتى رأسا على عقب ، زهية الصفطى . محمد نجيب . خال عباس ابوحميدة . الأميرة جويدان . لم يعد ينقصنا هنا فى جنيف سوى حمادة ابوجبل وعكاشة وأم حبيبة ، وفجأة تذكرت ان عكاشة قد استشهد فى منطقة القنال بعد مذبحة الاسماعيلية ، فأحسست بضيق . رجفة فى عضلات القلب تبعها على الفور ضيق فى التنفس ، فنحيت عنى السيجار .

طائرة محمود بك القرشى ليست على وصول وأمامها على الأقل عشرون دقيقة ، وخطفت رجلى على الفور الى مدخل المطار ، واشتريت زجاجة كولونيا صغيرة ووضعتها فى جيب سترتى اليمين حتى يسهل علىّ تناولها اذا دهمتنى حالة ضيق التنفس ثانية .

عدت الى قاعة كبار الزوار وأنا لا أصدق انني التقيت بزهية أو بابنى بعد هذا العمر الطويل ، كلمة ابنى تصيب قلبى برجفة ، وقررت ألا أذكر هذه الكلمة بينى وبين نفسى ، مكتفيا بالقول : التقيت بمحمد نجيب بعد هذا العمر الطويل .

حضرت متطوعا لاستقبال محمود بك ، وفى مقدورى العودة الى البعثة لكننى وجدت من حسن الأدب البقاء ، فقد كنت دائما اسرع الى استقباله فى السنوات الماضية . ولا أريد للرجل أن يعتقد أننى تخليت عن واجباتى بعد غياب الرئيس السادات .

وشى أصفر . هذا ما قاله لى الزملاء . أخرجت منديلا وعطرته ومسحت وجهى ، وتناولت حبة منشطة ، ادعيت انها حبة لتنظيم الضغط . وارتميت على مقعد فى عمق القاعة .

قلت لنفسى :

ـ الأكمة اليوم تخفى ما وراءها .

الحقيقة الوحيدة الساطعة فى هذا العالم الذى يحيط بى والذى انغمست فيه ثلاثين عاما ، هى ظهور عباس ابوحميدة وبزوغه فجأة فى هذا العالم الذى بنيته لنفسى بالوهم وعجنته بالزيف وثبته بالخداع .

كنت أود ياخال عباس ان ألقاك وأنا خالى البال . ارحب بك فى بيتى . لكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . وربما يكون خال عباس ابوحميدة هو مرفأى وسلواى هذه الأيام .

ظهر يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ صفعنى على خدى ، صفعة لا انساها وصاح بى :

ـ البلد تحترق . هيا معى نطفىء الحرائق ياولد .

كنا فى شارع الهرم ، وقد بدأت الحرائق تلحق بالكازينوهات وعربات الترام والسيارات ، حملت له المياه . أنقذنا اناسا حاصرتهم النيران ، وكان الحقد قد اعمى قلبى ، فاعتقدت ان اشعال الحرائق هو طريق الثورة والانتقام من اللواء عويس الذى جلدنى بسوطه مائة جلدة على ظهرى ،

ومعه عرفت ان طريق الثورة اكثر تعقيدا من اشعال الحرائق وقتل الأبرياء .

عرفت لكنني عن عمد اخترت لنفسي طرقا أسهل واقل وعورة عن السياسة وطريق الثورة . سلكت طريق التفوق في الدراسة وان كنت بسبب انتهازيتي جعلت خطوطي تتلامس مع خطوط المسئولين .

وصل سعادة السفير عبد الرءوف الريدي وفي صحبته الوزير المفوض شكري فؤاد ، فقمت منتصبا وتوجهت ناحيتهما .

سألني سعادة السفير :

ـ مالك ياكرامة ؟

اخذني على جنب ، قال لي :

ـ لا تخف . الوضع ليس سيئا كما تتصور .

قلت :

ـ شكرا سعادة السفير .

لا أعرف عما يتحدث السفير ، لكن اشارة الوزير المفوض في الصباح لي ، جعلتني اعتقد انني المقصود ، ربما هي حركة ترقيات مفاجئة ، أو هي تحقيقات في أمور العمل .

مات الرئيس عاش الرئيس . هذا هو شعار الدول المتقدمة ليستمر سير دولاب العمل والحياة دون هزات ، اما ما خالف ذلك فهو تنطع . نعم . لقد تعاونت وعملت الى جانب حاشية الرئيس السادات ومحاسبيه من خلف رؤسائي في وزارة الخارجية . كانت هذه هي أوامر الرئيس لي .

أمس عندما واجهتني جويدان بتأكيدها على ان الماضي لا يموت ، أحسست بانهيار سقف قلعتي على رأسي ، هذه القلعة التي بنيتها خلال ثلاثين عاما من الكدح ، اما الآن في هذه اللحظة ، فانني اشعر بانهيار الأعمدة الخرسانية والجدران أيضا ، وقد اصبحت كلها ركاما ، وكأن قلعتي قد بنيت على أرض رخوة بالطوب النيىء ودون اساسات .

اتجهت على الفور الى الزميل الذي له علاقة بالأمن ، وسألته مباشرة

عن فندق عباس ابوحميدة دون لف أو دوران ، فنظر اليّ مبتسما ، قال :
- هذا شيوعى خطير .

ضحكت ، قلت :
- هذا قريبى .

اجابنى فى خبث ، قال :
- هو من بلدكم فقط ، من عزبة عويس ، لكنه ليس قريبا لك .

نظرت اليه نظرة نارية ، وصمت .

غير من لهجته ، قال فى ود :
- فى فندق الرون على البحيرة مباشرة غرفة ٤٦ ، ومعه اثنان من الشيوعيين قادمان من باريس .

اكمل قائلا :
- غريب أمر هؤلاء الشيوعيين ، لا ينزلون الا فى احسن الفنادق .

قلت له :
- هذا فندق من الدرجة الثانية أو الثالثة .

قال :
- أنا لا اقصد عباس ابوحميدة ، لكننى اقصد الوفد العمالى القادم معه من براغ .

ادركت ان عباس ابوحميدة قد تمكن من السفر الى براغ للعمل فى اتحاد العمال التقدمى هناك قبل حملة الاعتقالات الشهيرة والمسعورة التى قام بها الرئيس السادات فى سبتمبر الماضى وعجلت بمصرعه .

قال لى زميلى :
- على كل حال ، اذا جاءتك فرصة اخبرهم ان مصر مفتوحة لأبنائها وقد سقطت كل اوامر الاعتقال الخاصة بهم وقد افرج عن كل المعتقلين تقريبا .

نظرت اليه متأففا ، قلت :
ـ هذه مسئوليتك انت .

قال غاضبا :
ـ لا تصدقنى .

قلت له فى قرف :
ـ طبعا انت صادق .

ابتعدت عنه ، وقد اصبح حبلا يحيط برقبتى ، لقد حدثنى وكأننى صفحة مفتوحة أمام ناظريه : عباس ابو حميدة من بلدكم فقط ، من عزبة عويس ، ليس قريبا لك .

اللعنة على بلد تتجسس على ابنائها على هذا النحو المشين .

يبدو ان حكمة ابدية يحفظها هذا الشعب الجاهل فى قلبه تيسر له الحياة فى السراء والضراء . كان والذى يحمل القربة المملوءة بالمياه ، ويردد فى تجواله على مسمع من الجميع :
ـ خدمة الغز آخرها علقة .

هؤلاء هم الغز .

هب الجميع وقوفا في نصف دائرة ، وهل محمود بك القرشى فى صحبة السفير وتقدم منا محمود بك مصافحا فى لهجة ابوية .

ضغط على يدى فى حنان وتجاوزنى ، لكننى لمحت فى عينيه نظرة من يود الانفراد بى . هذا رجل من حكماء الوزراء وعرف بالنزاهة والتقوى والعلم الغزير .

اطمأن قلب كرامة قليلا .

(٢)

توجه كرامة من المطار الى مقر البعثة مباشرة ، كل ما جرى اليوم له يدور فى رأسه ويقلبه ، وربما شطح بعيدا وطمع فى عودة زهية اليه فيجتمع الشمل ، وسرعان ما يفوق الى نفسه ، قائلا لنفسه : يكفينى ابنى .

زهية . هذه المرأة معجزة . فتنتها زادت وملاحتها بانت . عيناها فيهما جرأة وصراحة وروحها مليئة بالعزم ، وقلبها شديد الطيبة . وقال كرامة : هذه الفتاة معدنها طيب .

يقرأ كرامة مجموعة المذكرات الخاصة بمدونة نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة الى الدول النامية بعينيه ، يمر على الكلمات ، يعى معناها على الفور ، فالأمور واضحة ، والصراع على أشده ، وذهنه متيقظ ، وربما هذه هى المذكرة الوحيدة التى قرأها فى حياته بكيانه كله . وقال كرامة لنفسه متعجبا : كل ما يدور حول هذه المذكرة هو محور حياتى الخاصة .

المذكرات عليها توجيهات صائبة وعميقة ومدونة بخط اليد للوزير المفوض شكرى فؤاد ، وقد أغرته بالرجوع الى ملفات قديمة ، رجع اليها وكأنه يفتش فى أضابير التاريخ : تاريخ نفسه ، وتاريخ عزبة عويس .

هذه المدونة تدور المباحثات حولها منذ سنوات فى مؤتمر التجارة والتنمية دون تقدم ملحوظ بسبب تعنت الدول العظمى ، الى درجة أن المباحثات فى هذه الدورة تركزت على مناقشة الفاصلة والنقطة وحروف الجر والعطف فى سياق الكلام .

ولم يطلبه وكيل الوزارة ، وبقى فى مكتبة يحاور الأوراق ويداورها ، فالدول المتقدمة لن تقدم شيئا ، بل تضع قيودا شديدة على تصنيع الدول المتخلفة ، وتكبلها بالتزامات جائرة ، وعندما انتهى من تقريره النهائى فيما يخص المدونة ، كان قد استقر عزمه على ضرورة الطلاق ، فحياته مع

جويدان اصبحت لا تطاق ، وأضحت ابنته حائرة بين امها وبينه .

البيت اصبح بالنسبة الى كرامة كالكابوس المرعب ، وقد مل تلك الطقوس الفارغة . النوم له مواعيد . الطعام بمواعيد . الحديث بمواعيد . فجويدان لا تتحدث اليه الا على مائدة الطعام فى العشاء أو عند تناول القهوة فى العشية ، وبقية ساعات النهار ويوما السبت والأحد تظل صامتة وترميه بنظرات مجنونة وقال كرامة : ياليتها تصرخ أو تثور أو تغضب ، لكنها منسحبة من الحياة ، ويقال إن أمها كانت تصاب بنوبات جنون متقطع ودخلت مصحات عقلية عدة مرات ، لكن جويدان ليست مجنونة ، إنها لم تعد تحبنى ، والصحيح أنها لم تحبنى فى يوم من الأيام .

حلت الساعة الثانية عشرة ونصف ظهرا ، طوى كرامة الملفات ، ومر على غرفة الملحق العمالى ، وجده جالسا ، فايقن ان اجتماعات منظمة العمل الدولية قد انتهت ، ولابد ان خال عباس ابوحميدة قد عاد الى فندقه ، وفى الطرقة الصغيرة ، التقى بزميله الذى حدثه فى الصباح عن عباس ابوحميدة ، حياه مبتسما وتجاوزه الى مكتبه ، فأراحه من الحديث ، وان كانت تلك البسمة التى ارتسمت على شفتيه ، قد أثارت غيظ كرامة ، نظر الزميل اليه وكأنه يقول له : اننى أعرف لماذا اقتربت من مكتب الملحق العمالى ولم تدخل وتسأل مباشرة عن عباس ابوحميدة ؟

قال كرامة مهونا الأمر على نفسه : الزميل يؤدى عمله . ونسيت الابتسامة التى رسمها الزميل على شفتيه ، غير أننى تنبهت بعدها الى المأزق الذى سوف أضع فيه الدكتور أحمد السيد باشا وزهية وابنى اذا صحبت معى اليهم عباس ابوحميدة . ضربت رأسى بيدى ، وندت عنى صرخة مكتومة : أخ ، ابنى محمد نجيب .

حقيقة زهية حدثتنى قائلة : الخال عباس ، وخاطبتنى كما كانت تخاطبنى فى عزبة عويس منذ ثلاثين عاما وكأنها عاملة تراحيل تبحث عن كبير لها فى الغربة لتطمئن اليه ، ولكن لماذا تسعى لمقابلة عباس أبوحميدة ، وزوجها الدكتور أحمد السيد باشا خارج لتوه من المعتقل الذى وضعه فيه الرئيس السادات فى سبتمبر الماضى ؟ الا تدرك مخاطر ذلك ،

بعد أن نجح عباس أبوحميدة فى الهروب من مصر قبل حملة الاعتقالات التعيسة التى عجلت باغتيال السادات ؟

آخ . ابنى أصبحت تحيط به المخاطر وهاهى ذي المرأة التى ربته وحافظت عليه وضحت بشبابها من أجله تسلمه الى المهالك دون ان تدرى .

التاريخ يعيد نفسه وهاأنذا أجد نفسى مرة أخرى فى مفترق طرق .

فى صغرى كنت انتهازيا وهربت من كل المعارك ، لكن ابنى ما ذنبه ؟

لن أسمح لزهية ان تفقدنى ابنى مرة ثانية ، ويكفينى ما فعلته بى طوال تلك السنين وهى تخفى ابنى عنى ، لكننى بأى حق أتدخل فى شئونها ، فهذا ابنها من رجل آخر ، وأنا لست هذا الآخر الا اذا كشفت اوراقى كلها ، وتعريت . قلت لنفسى ساخرا وفى انتهازية واضحة : برودة الجو فى سويسرا لا تسمح بخلع الملابس مرة واحدة . واقنعت نفسى وأنا أغادر باب البعثة متجها الى فندق الخال عباس ابوحميدة أن أخلع ملابسى قطعة قطعة - كفتاة الاستربتيز المحترفة - وليس مرة واحدة .

اقتربت من سيارتى ، أدرت الموتور ، فى حالات توترى اتحاشى قيادة السيارة بنفسى وترددت ، لكننى وجدت نفسى اندفع بها ، وانطلق فى الطريق المزدحم - شارع لوزان - حيث تصبح القيادة آلية فى مسارات محددة ، ووفقا لسرعة اندفاع السيارات الأخرى ، وهذه مهارات آلية تكتسب بالمران .

كرامة سرحان السقا أراه هناك على الرياح وأشجار المانجو الباسقة تحيط بقصر اللواء عويس وزهية تهرول بين الحقول فى جلبابها الطويل الواسع الممزق على ركبتيها وذراعيها وعلى رأسها البلاص وهى تتمايل ويأتينى صوتها مغردا باللحن الحزين وهى تفرش الكون بصوتها شاكية من الظلم الأبدى :

يـابهيـة خبـرينـى عالى قتل ياسين
وعد ومكتوب على ومسطر على الجبين
وأنا كل ما أقول التوبة
ترمينـى المقاديـر .

كان المذياع مغلقا وكذلك جهاز الكاسيت ، والغناء الشجى يلفنى ويغرق شارع لوزان وفتحت نافذة السيارة فأتتنى ضجة الطريق عالية وأغلقتها والغناء يغرقنى والكلمات تنساب على لسانى متدفقة وصوت زهية الشجى يلفنى : وأنا كل ما أقول التوبة ترمينى المقادير .

عجبى من نفسى ومن تذكرى لهذه الكلمات بعد كل هذه السنين وحاولت تذكر شىء من شعر اليوت الذى أمضيت سنوات دراستى فى حفظه وتحليله فخانتنى مطالع القصائد الا قصيدة الأرض الخراب . وهى القصيدة التى كنت أدور فى أزقة عزبة عويس وأنا أرددها لنفسى متعاليا على خلق الله حتى فاجأنى مرة خال عباس بأنه يعرفها وقال لى : لا تتحمس كثيرا لهذا الشاعر فالأرض عامرة بخلق الله .

وكان ذلك درسا لى .

غرفة رقم ٤٦ ، وقبل ان أصل الى موظف الاستعلامات ، وأنطق برقم الغرفة ، وجدت خال عباس أبوحميدة يقف وسط مجموعة من رفاقه ، يعطينى ظهره ، لكننى عرفته من طريقة وقفته حيث يميل برأسه الى اليمين وكأنه يريحها على كتفه بين الحين والحين .

كان يرتدى بدلة واسعة ويمسك بيده حقيبة صغيرة ، ولا يقف ساكنا ولكنه يغير وقفته وهو يتحدث الى الآخرين ، متأملا البهو الواسع ، ومداخل الفندق .

ووقفت منتظرا ان يواجهنى ، وحتى ينتهى من الحديث ، وماهى الا ثوان معدودات ، حتى غير وقفته ١٨٠ درجة ، واصبح فى مواجهتى تماما .

لمحنى فى اللحظة التى كنت أتأمل وجهه وقد مال قليلا الى السمنة ، ابتسم . هز رأسه . قدم الىّ ، فتح ذراعيه مرحبا . أخذنى بالحضن . ربت علىّ . قال :

ـ أهلا سعادة المستشار . فرحتى كبيرة .

مد يده وربت علىّ يقربنى اليه . وقال :

ـ فرحتى كبيرة . فرحتى كبيرة .

أخذ يدى تحت باطه . قال :

- قرب منى ياولدى . قرب . اعذرنى ياسعادة المستشار . هذا سلام فلاحين . سار بى الى مائدة خالية فى ركن البهو ، قال :

- كيف حالك ؟

قلت :

- الحمد لله ياخال عباس .

نظر الىّ . كنت ساهما . سألنى . قال :

- كيف حال سمو الأميرة جويدان والأميرة الصغيرة ؟

قلت :

- بخير .

وبعدها سألته ، قلت :

- كيف حال خالة نفوسة بنت الشامى ؟

فارقته ابتسامته ، قال :

- مريضة وقلبها مكسور .

توقفت عن سؤاله عن المزيد ، قلت :

- هيا بنا . نتغدى . ما رأيك فى مطعم صينى أو يابانى ؟

تردد قليلا ، وبعدها ، قال :

- تعمل لى طيبا ، اذا عرفتنى على مطعم شامى أو مصرى . اشتقت الى الفول والطعمية . والباذنجان المقلى .

قلت على الفور :

- بسيطة . هيا .

رمى رأسه على كتفه ، قال :

- فى براغ لا يقصرون معنا . لكنك تعرف "النفس دائما بطالة" .

قلت :

- لا تشغل بالك بمشكلة الطعام . سوف تصلك علب الطعمية والفول

والعدس أبو جبة فى براغ .

نظر الىّ فى دهشة حقيقية ، وقد ارتسمت على وجهه سعادة الدنيا . قال :

ـ هذا كله متوافر هنا ؟

قلت :

ـ هيا بنا . السيارة على بعد خطوات من الفندق .

قمنا معا .

لا أصدق أننى فى صحبة خال عباس أبوحميدة ، نفسه فى قرص طعمية وطبق فول بالزيت ، وأنا أيضا نفسى فى هذه الأشياء والفرق بين هذه اللحظة وسنواتى السابقة أننى أقبل على الطعام فى مواعيد ثابتة وليس بعد أن يعضنى الجوع ويهرى بدنى واترنح من الإعياء .

خال عباس أبوحميدة وصلت الى جنيف فى هذه الساعات التى أنا أحوج فيها الى المساعدة أكثر من اى وقت مضى . أنت مرفأى ، وكما صفعتنى على وجهى ظهر يوم السبت الحزين فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ فأنقذتنى من السجن بينما والدى سجن ومات فى السجن ولم يجد من ينقذه . اذا أردت توبيخى ولومى وصفعى على وجهى افعل ولا تتردد فأنا أعرف ما يغضبك منى وعلى استعداد لإصلاح ما أفسدته بطمعى واستماعى الى زوجتى وعمها حمدى بك اننى أعرف ما يدور بذهنك من ناحيتى ياخال فأنا فلاح وكما سرت حافيا على الترعة جائعا تعلمت أيضا الحديث دون كلمات ومعرفة العيب والواجب ناحية الأهل .

هـه .

قلت لصاحب المطعم وقد أتى مرحبا بى وبضيفى :

ـ مائدة شرقية ، على مزاجك .

قال وهو ينحنى :

ـ شكـرا .

تلفت خال عباس حوله وبعد فترة ، قال :
- هذا مطعم سويسرى . ما له والفول والطعمية ؟!

قلت ضاحكا :
- الخواجات لا يتركون لأولاد العرب شيئا . هذا سويسرى عاش فى لبنان ٢٠ عاما ولما ساءت أحوال بيروت انتقل الى جنيف ، هذا أفضل مطعم شرقى ربما فى أوربا .

كان صاحب المطعم يعرفنى ، ولما أقول له على مزاجك ، يعنى الاهتمام بنوعية الطعام وزيادة الكميات عن المعتاد .

قلت :
- زهية بنت الصفطى هنا . وسألتنى عنك .

قال :
- زهية هانم .

أكملت قولى مصححا نفسى بنعتها بزهية بنت الصفطى ، قلت :
- زهية هانم وزوجها الدكتور أحمد السيد باشا وابنها محمد نجيب .

تحاشيت القول ابنها محمد نجيب من رجل آخر لسبب بسيط هو أننى هذا الآخر الذى يجلس فى حضرة خال عباس أبوحميدة كبير عزبة عويس وزينة رجالها .

قال :
- زهية هانم سيدة مجتهدة ، علمت نفسها ودرست حتى حصلت على بكالوريوس فى العلوم السياسية والاقتصادية من جامعة القاهرة . درست مع ابنها سنة بسنة من الحضانة الى الجامعة .

قلت :
- لابد ان الفضل فى ذلك الى زوجها الدكتور أحمد السيد باشا ؟

قال :
- الفضل للدكتور أحمد ولابنته المرحومة الدكتورة أوديت التى تبنت

زهية وابنها .

الدكتورة أوديت ، سمعت هذا الاسم يتردد على ألسنة النسوة فى عزبة عويس وقد احيط بهالة من الألغاز فى سنة ١٩٥٢ ، وقيل ان الدكتورة أوديت اختبأت فى زى فلاحة لعدة أشهر فى العزبة .

ما أشد حماقتى وجهلى وكيف سولت لى نفسى كتابة شكوى ضدها هى ووالدها الدكتور أحمد السيد باشا واتهامهما بخطف زهية .

لابد ان الخال عباس يعرف قصة هذه الشكوى لكنه لا يواجهنى بها من فرط كرم أخلاقه .

جاء الجرسونات فى زيهم المعهود المميز ، وأحدهم يدفع أمامه عربة صغيرة عليها الصوانى والاطباق .

زوجان من الحمام المحشو بالفريك وثمانية اسياخ من الكباب وأطباق الطعمية والفول والباذنجان المخلل والطرشى وعلى رأسها الطحينة الى جانب قرعة كبيرة من عرقى البلح .

تأمل خال عباس أبوحميدة المائدة وقد امتلأت بالأطباق ، قال :
ـ هذا حلم ولا علم ياولدى ؟!!

قلـت :
ـ تفضـل .

قـال :
ـ والله نفوسة بنت الشامى زوجتى لو طلبت منها اعداد هذه الأطباق لعجزت . حمام محشو من عند الدهان أو ابوشقرة الكبابجى . طيب . والفول والطعمية من عند الدمياطى . توكلنا . باسم الله .

يأكل فى تؤدة كعادة الفلاح الأصيل ، وهذه هى أول مرة أشارك الخال عباس أبوحميدة لقمة وان كانت داره فى عزبة عويس دائما مفتوحة للغرباء ، ويمسك بالشوكة والسكين كأحد أبناء ارستقراطية عريقة .

ليست بى شهية ونفسى تعاف رائحة الأكل لكن جلوس خال عباس

أبوحميدة على المائدة أمامى آثار فىّ لوعة الجوع والحرمان من الطعام ، وهى ذكريات أليمة تقفز فجأة فتصبغ الكون بمسحة من الحزن والشجن العميق ، تعجبت من نفسى وأنا أنقض على الطعام ويبدو أن انغماسى فى الماضى قد جعلنى أنسى نفسى وأنا أمزق وأمضغ وأبلع وأتلمظ .

كنت أشجع ضيفى على تناول الطعام ، لكنه كان يقضم قضمات صغيرة ويحرص على اغلاق فمه وهو يلوك الطعام فى تؤدة ، وكأنه يعانى من آلام فى أسنانه تمنعه من المضغ .

سألنى فجأة ، قال :

ـ هل دونت مذكرات ياحضرة المستشار ؟ أنت حياتك ثرية وفيها خبرة .

تلفت حولى فى دهشة ، كان خال عباس ابوحميدة جادا ، قلت :

ـ العمل فى الخارجية لا يسمح لى بالكتابة .

كنت أود أن أقول له إنى سعيت كثيرا للعيش فى الحاضر وقد أسدلت ستائر كثيفة على أيام زمان ، لكننى ترددت فى مصارحته بما دار فى خاطرى للتو واللحظة .

عزمت عليه بفردة حمام أخرى ، قال :

ـ حياة الإنسان صفحات مهمة وأنت كنت متفوقا دائما . هذه عبرة للأجيال الجديدة .

كادت ضحكة تفلت منى ، داريتها بابتسامة صفراء ، وصمت ، لكنه أكمل حديثه لى ، قائلا :

ـ ياليتنى كنت أمتلك موهبة الكتابة لكتبت ملحمة "عزبة عويس" طوال الخمسين سنة الأخيرة ، وقصة أناسها ونضالهم وهم يتحايلون على لقمة العيش عندما كان يحجز عنهم الأميرلاى عويس باشا الأعرج وابنه اللواء عويس باشا المياه ويبيعها لهم بالرية .

وبعدها توقف برهة ، وكأنه يحسب وقع كلماته علىّ ، ثم أكمل قائلا :

ـ اعذرنى ياسعادة المستشار ، انتم نسائب الآن ، ولكن ذلك تاريخ يجب ان يكتب .

قلت مكملا :

- إننى لا أنسى تعليقى الى شجرة الجميز وضربه لى بالسوط .

لا تزال آثار الضرب على كتفى ، كان يضربنى بقسوة ووحشية حتى تأكدت أننى مقضى علىّ لا محالة ، وفجأة ، لمحت الخال عباس أبوحميدة قادما نحونا يهرول ، فألقى السلام على الباشا ليشغله ، ومد يده وتناول منه السوط الذى مزق ظهرى وصدرى ، قال له :

- سلمت يداك ياباشا لمحاربة الأعداء .

لن أنسى تلك اللحظات التى تمنيت فيها الموت ، وتوسلت الى عزرائيل أن يقبض روحى ويريحنى من تلك العذابات ، لكن الموت - ذلك الذى نصادفه كثيرا فى حياتنا - خاصمنى . تركنى لحالى ، والباشا يضرب ، واحد ، اثنان ، ويعد حتى اقترب من المائة .

كان الفلاح الذى ربطنى الى شجرة الجميز لم يشدنى اليها ، حتى يخفف من وقع الضربات ، وكنت أدور حول الشجرة تارة اتلقى الضربات على صدرى وتارة اتلقاها على ظهرى ، وعلى لسانى تتردد كلمات طلب العفو .

مت مرتين . مرة عندما صرخت وتأوهت من شدة الألم ومرة أخرى عندما انطلقت أطلب السماح والعفو فى كلمات ذليلة .

وجه الخال عباس أبوحميدة الأسمر قد امتلأ قليلا وخفت سمرته ، وتلك البسمة الحلوة تزينه ، وعيناه النافذتان تشعان بالفطنة ، وقد منحه الله حسن البصيرة .

قال لى بعدها :

- هذا صراع تاريخى ياولدى .

كنت وقتها فى التوجيهية ولم ادرك ابعاد قوله لى ، لكننى فهمت انه يواسينى فى محنتى وان الصراع بين رجال الإقطاع وبين الفقراء وما جرى لى ليس حادثا فرديا .

كلماته رطبت قلبى فى تلك الأيام التعيسة .

هل يطلب منى خال عباس أبوحميدة أن أدون هذه الأحداث وأنشرها أم هو يؤنبنى لزواجى من الأميرة جويدان ابنة اللواء عويس باشا ؟

هؤلاء الفلاحون يتكلمون بالإشارات والرموز . هذه عادة متأصلة فيهم ، فما هى مقاصد خال عباس ؟

لا تكن قاسيا معى يارجل فى هذه الساعة .

تحاشينا الحديث فى السياسة ولم ترد سيرة إغتيال الرئيس السادات على لسانه أو لسانى ، لكننى كنت أرى أن حديثه كله ليس بعيدا عن السياسة فى مفهومها الواسع العريض .

رعتنى زهية فى تلك الأيام واحتضنتنى كطفل لها طوال فترة رقودى وتفجر الدماء من جسدى عندما وسدونى حشية فى بيت الحاج عمران زوج عمتى حتى تطيب جروحى ولا تتسمم . كانت صبية يافعة وتكسب قوت يومها بالخدمة فى الحقول .

ابنتى ابسنت عندما أريتها آثار الضرب عشية أمس ، قالت جملة واحدة قطعت قلبى ، قالتها فى براءة وعفوية :

ـ لماذا كل هذه القسوة ياجدى ؟

تلك العفوية مست قلبى وأحسست أننى كنت قاسيا معها الى درجة الوحشية فقد صوبت رصاصة الى قلبها الغض ووضعت إسفينا بينها وبين أمها .

تناولت قرص طعمية ، قضمته ، قلت لنفسى : اللقمة الهنية لا تطيب ابدا فى أفواه المعذبين .

قررت أن أتخلص من هذه الأحزان وان التفت الى ضيفى ، قلت :

ـ أليس من الواجب السؤال عن زهية هانم وزوجها ؟

وبعدها أضفت قائلا :

ـ دعتنا معا على العشاء لكننى اعتذرت ووعدت باصطحابك معى على الشاى بين الخامسة والسادسة .

قـال :
ـ هذا واجب علينا ياسعادة المستشار .

قلت فرحا :
ـ اتفقنـا .

سألنى عن محل اقامتها ، أجبته ، قلت :
ـ فندق انتركونتننتال .

هذا حسن . هذا الفندق قريب من منظمة العمل الدولية . بعد الجلسة سوف اتوجه الى الفندق وانتظر فى البهو .

عرضت عليه ان احضر اليه فى المنظمة لأصحبه الى الفندق ، لكنه رفض ، قال :
ـ لا تشغل نفسك بى ياسعادة المستشار . شكرا .

لم ألح عليه ، وربما يود الحديث الى زهية على انفراد ، وتركته على حريته ، فالفندق على بعد دقائق من المنظمة .

كنا قد انتهينا من القهوة ، ونظر الى ساعته ، قال :
ـ لقد أخذت من وقتك الكثير اليوم ياسعادة المستشار .

ادركت انه يود القيام ، سألته عن موعد الجلسة القادمة ، قال :
ـ بعد نصف ساعة .

قلـت مطمئنا :
ـ أمامنا وقت . المسافة من هنا الى المنظمة قصيرة جدا . دقائق بالسيارة .

قـال :
ـ بارك الله فيك ياسعادة المستشار .

كان الخال عباس أبوحميدة يدخن كثيرا ، وكنت أعتقد انه ليس مدخنا ، سألته عن السبب ، قال :
ـ الوحدة ياولدى .

وبعدها ، قال :

- أنا اعتبر نفسى لست مدخنا ، لكننى فى فترات الهروب الطويلة كنت عادة ما ألجأ الى التدخين ، ومن الغريب اننى فى براغ أحس بوحدة شديدة على الرغم من حفاوة الرفاق .

وبعدها أضاف قائلا :

- الغربة بطالة ، ونحن بشر .

رنت فى أذنى كلماته كالنفير الناعق فى مقطوعة موسيقية مليئة بالشجن : الغربة بطالة .

امضيت عمرى كله متغربا . طحنتنى الغربة فى عزبة عويس بين أهلى وناسى . وفى الغربة الحقيقية تجرعت كأس الوحدة الحقيقية حتى الثمالة وفى بيتى أعيش منفردا لا يؤنس وحدتى الا ابنتى ابسنت وخوفى عليها من أمها التى سوف تطبعها بطباعها .

الخال عباس ابوحميدة يدخن بسبب الغربة . ترك العقلانى المادية الجدلية ولجأ الى وهم السيجارة لمعالجة وضعية الغربة ، ما احلى كلماتك ياخال عباس : نحن بشر .

قلت من قلبى :

- كلماتك حلوة ياخال عباس والحديث بيننا له شجون .

سحب نفسا عميقا من سيجارته ونفثه وقال وهو ينظر الى البعيد غير المرئى ، وكأنه يحدث نفسه :

- ابنتى كسرت قلبى وكسرت قلب امها .

قلت لـه :

- تزوجـت ..

قاطعنى ، قال :

- تحجبـت ..

قلـت ضاحكا :

- هذه ليست مصيبة .

اجابنى حزينا :

- الحجاب الخارجى لا يشغلنى . امها محجبة . ما يشغلنى هو انشغالها بالسياسة بين تنظيمات مسلحة . ياسعادة المستشار هذه قصة اخرى .

قمنـا .

كان الطريق مليئا بالسيارات المندفعة امامنا وجلس الى جوارى صامتا .

ابنة الخال عباس ابوحميدة الوحيدة سارت على طريق معاكس له ، تمردا ؟ ام ازمة روحية حلت بالبلد دفعت الناس الى التطرف يمينا ويسارا ؟ ام هو اليأس والقنوط ؟

قلـت لنفســى :

- نحن بشـر .

على مقربة من منظمة العمل الدولية ، غادر عباس أبوحميدة السيارة بعد التواعد على اللقاء فى فندق انتركونتننتال .

(٣)

اكفهرت السماء فجأة وزمجرت وفتحت ينابيعها فتساقط المطر ثقيلا كالحجارة فى لحظات قليلة .

كانت السيارة تندفع بكرامة والمساحتان تعملان فى همة وكأنهما تمسحان دموعه الداخلية التى لا تسيل ، وخطوط البرق تتراقص أمامه فى دوائر ، والانفجارات المدوية فى السماء تصله وهو حبيس السيارة المندفعة فى طريقه الى فندق الانتركونتننتال وفقا لموعده مع زهية هانم .

هى عاصفة رعدية لن تستغرق سوى دقائق فهذه امطار الغضب التى لا تستمر طويلا ولكنها دقائق كفيلة بالقضاء على مساحات واسعة من المزروعات كما انها تصيب السيارات بإصابات بالغة . وبعدها تصفو السماء ويعتدل الجو .

كنت على مقربة من ميدان السلام أمام الأمم المتحدة عندما لمحت رهطا من السيارات التى اصطدم بعضها ببعض . تشاءمت وتابعت طريقى حذرا . كان البوليس واقفا وعربات الأسعاف جاهزة فلم اتوقف واندفعت بعيدا وقد قدرت أن بعض العربات المحطمة تخص بعثات افريقية وعربية وذلك من رؤيتى لوجوه السائقين وبعض العلامات الدبلوماسية التى لمحتها سريعا فى اندفاعى .

قلت لنفسى : الاصابات لحقت بالسيارات وليس بالركاب والأمر لا يتطلب وقوفى للسؤال . كما اننى اود اللحاق بموعدى على مقربة امتار .

ابنـى ؟

كيف حالك ؟ هل يبادلك الدكتور احمد باشا السيد الأبوة ويغرقك بمشاعر الحنان التى اغرقنى بها ابى سرحان السقا . كان ابى من معدمى

عزبة عويس ويخصنى بحبه وعاملنى ايضا بقسوة متناهية ليجعل منى رجلا . حقيقة الفقراء لا يعرفون الرحمة أو الحنان الخالصين ومشاعرهم مزيج من الحنان والعنف فى فوضى لا مثيل لها .

لكننى احببتك ياأبى بقدر كراهيتى لك . وكسر قلبى لما جاءنى نبأ وفاتك فى السجن بعد اصابتك بالعمى . تكفل خال عباس بالمأتم وبكتك زهية اكثر من امى اما زوج عمتى الحاج عمران فنعاك على طريقته الخاصة وقال للمعزين :

ـ فاسق انتقل الى رحاب الله . ونحن نطلب له الرحمة والغفران من رب العباد . واذا كان سرحان السقا سبقنا فى الذهاب فدورنا آت .

وكف عن سهرة الخميس وقال لرجاله :

ـ موت سرحان السقا كسر قلبى .

كان ابى رغم فقره الشديد رجلا صاحب مزاج يتمتع بلف سيجارة ويغازل الصبية المليحة ويوقع بالمرأة الجميلة التى هجرها زوجها ويدخل البيوت من ابوابها الواسعة وقربة الماء الثقيلة على كتفه وفى المساء يتجرع ارخص انواع الخمور مع قطعة لحم صغيرة تدسها له امرأة من المعبجات بفحولته قائلة :

رم عضمك ياسرحان .

كنا نعرف انه يتذوق اللحم خلسة طوال ايام الأسبوع من ورائنا ، اما نحن فكنا نتذوق اللحم والتقلية كل خميس . تذهب امى الى السوق وتبيع شيئا من البيض والجبنة القريش وعدة قوالب زبد وتشترى قطعة اللحم .

تلك كانت ايامى ، اما ابنى محمد نجيب فقد تربى فى بيت الدكتور أحمد السيد باشا فى المعادى وربما لم يسمع بعزبة عويس فى حياته .

لن ينقذنى من هذا الجنون سوى خال عباس ابوحميدة . هذا رجل عركته الأيام وعجنته وصفته فجعلته كالذهب الخالص دون شوائب .

درت بالسيارة ولمحت ذلك الصهيونى الملعون الذى سوف يتحرش بى فى لزاجة وضعة تقرفنى . قلت لنفسى :

- الرئيس مبارك لن يزور إسرائيل الا فى اللحظة المناسبة وقد انتهت ايام اللقاء السرية لبيع البترول .

وقررت الابتعاد عنه .

اندفعت بالسيارة إلى آخر طابق بالجراح ونزلت السلالم على قدمى وكأننى اهبط لمواجهة مصيرى فى هاوية لا قاع لها .

ماذا اقول لأبنى ؟

فى البهو رأيتهما امامى . زهية فى ثوب قشيب فاخر وابنى فى حلة داكنة . بمفردهما جالسان واقتربت منهما لأضع مصيرى بين ايديهما . اقدم لهما رقبتى لا لأتحدث اليهما فقد مضى وقت الحديث .

هبت زهية واقفة وقبلتنى قبلة خفيفة وهى تقول :
- أهلا سعادة المستشار .

قربت وجهها منى ولامست وجنتها خدى لكن شفتيها لم تلمسانى كما اننى لم ألمسها بشفتى .

محمد نجيب مد لى يده قائلا :
- اهلا سعادة المستشار .

وبعدها اضاف :
- الدكتور أحمد ينتظرك وسوف اخبره .

لم يقل ابى او دادى . استراح قلبى . تنفست بقوة وأنا أتأمل عينى زهية الواسعتين وقد اصبح وجهها يميل الى البياض وقد فارقته تلك السمرة القاسية من العمل فى الحقول .

حذاء فاخر يزين قدميها وقد جلست معتدلة وعقد على جيدها وقطعة من البلاتين على صدرها البارز .

سيدة مجتمع . اميرة ارستقراطية فى جلستها الهادئة . ألقيت عليها نظرة من قدمها الى قمة رأسها وتوقفت عند عينيها لعلى اقرأ فيهما شيئا .

هذا الهدوء لابد أنه يخفى وراءه آلاما فظيعة وينابيع من الغضب .

هاهى لحظة الحساب قد حلت وأنا أول من يعرف قدر جرمى فى حقها ، سألتنى :

ـ كيف حال سمو الأميرة جويدان ؟

قلـت :

ـ ليست سعيدة فى جنيف وتحس بوحدة شديدة .

سألتنـى :

ـ عندك اطفال ؟

قلـت :

ـ ابنة واحدة ابسنت .

قالـت :

ـ ربنا يخليها لك .

قال ابنى وهو يقوم انه سوف يصعد لصحبة الدكتور أحمد . وقام مستئذنا منا فى أدب جم .

دخلت فى الموضوع مباشرة . قلت :

ـ هاهى تحققت امنيتك . محمد نجيب اصبح رجلا .

تجاوزت عن كلماتى ، قالت :

ـ الدكتور أحمد يصر على ضرورة استكماله لدراسة القانون فى فرنسا ويود منه دراسة القانون الدولى الى جانب العلوم السياسية والقانونية بينما هو يتعجل العمل فى وزارة الخارجية .

قلت لها دون روية :

ـ الدكتور أحمد على حق .

سألتنى :

ـ وأنت ما رأيك ؟

صمت وأنا أبلع ريقى .

كان سؤالها مفاجئا . تسألنى رأيى فى مستقبل محمد نجيب ؟ وضعتنى في بؤرة الأحداث مباشرة بطريقة حذرة . قلت لها :

ـ رأيى من رأى الدكتور أحمد . العمل فى وزارة الخارجية شاق والتخصص فى القانون الدولى مكمل لدراسة العلوم السياسية والاقتصادية .

حل خال عباس أبوحميدة ، قمنا لاستقباله . وقفت زهية وحضنته فى شوق وهى تأخذه بين ذراعيها . اعتذر الرجل عن التأخير بسبب المطر وقال ضاحكا :

ـ هدومى بلت بينما الشمسية فى يدى .

وقال مصححا :

ـ آسف .. المظلة .

قالت زهية مكملة :

ـ أنا لا أجيد استخدام المظلة مع كثرة رحلاتى الى اوربا .

رمقتها بنظرات خفية .

تتحدث عن رحلاتها الى أوربا كأميرة ارستقراطية . غبت عنهما لحظة ورأيتها وقدماها غارقتان فى الطين وصوتها ينطلق بالغناء وله رنين فى الحقول لا يزال طنينه فى اذنى حتى هذه اللحظة بل اننى سمعته لتوى :

ياباجور الساعة اتناشر   يامقبل عاالصعيد

رأيت العزبة واناسها ودوابها وحالة الفقر التى تعيشها وتلك الحالة الروحية التى تسيطر على اجوائها فصدرت عنى أنة مكتومة وارتعش وجهى ويدى فسألتنى زهية :

ـ هل أنت على مايرام ؟

هذه عادة تصاحبني اذا سرحت وانشغلت بشىء حميم ويبدو اننى ورثتها عن ابى . يهتز نصف وجهى ويدى . قلت :

ـ نعم . نعم .

قالت زهية :

ـ لم تتغير ياسعادة المستشار .

فاتنى قصدها ، قلت حزينا وتقطيبة على وجهى أحسها ولا اراها :

ـ كلنا تغيرنا يازهية هانم .

غيرت جلستها وضمت ساقيها ومالت ناحيتى . قالت :

ـ ربمـا .

وارتسمت على شفتيها ابتسامة حلوة زادت من طلاوتها غمزة عينها وهى تمد يدها لتسوى خصلة من الشعر سقطت على جبينها . شعر اسود غزير .

قلت لها مستدركا :

ـ لقد زادتك الأيام ، يازهية هانم ، جمالا على جمال .

ضحكت من قلبها . التفتت الى خال عباس برأسها . قالت :

ـ كرامة كان دائما يعاكسنى فى صباى وأنا كنت أحبه . أول حب لى .

قلت لها متبسطا :

ـ الله يجازى شيطانك يازهية .

أسقطنا التحفظ بيننا . قالت كرامة وقلت لها زهية .

نظرت فى عينى ضاحكة .

قلت لنفسى :

ـ قطعنا نصف الطريق فى لحظة .

قال خال عباس :

ـ تلك كانت ايام ..

صمت خال عباس عن الكلام ولم يكمل جملته ، نقلت عينى عن زهية والتفت اليه . كان ينظر متطلعا الى البهو ويستعد للقيام . نظرت . الدكتور أحمد قادم . يسير فى تؤدة . محمد نجيب الى جواره . وقفنا جميعا .

يسير فى بطء لكنه معتدل القامة مرفوع الرأس ولا ينكب على عصاه محنى الظهر .

يتقدمان منا . وحانت منى نظرة الى البهو ـ وكنت منذ قدومي وجلوسي الى زهية لا أرى حولي سوى بيوت عزبة عويس وطينها وحقولها . وفى اذنى غناء زهية وطلاوة صوتها .

افسحنا مكانا للدكتور أحمد الى جوار زهية وجلس محمد نجيب على مقربة من خال عباس وظلت زهبة فى جلستها على مقربة منى .

صوت الدكتور أحمد قوى وكلماته واضحة ومحددة ومن يسمعه متحدثا تصيبه الدهشة فكيف لهذا الجسد الهش الضعيف ان يخرج صوتا قويا مثل هذا الصوت .

لم يكن الدكتور أحمد السيد باشا فى شبابه مترهل الجسد ولكنه كان رشيقا مع قامة فارعة واصبح الآن جلدا على عظم والبدلة الواسعة عليه تخفى نحافته الشديدة لكنه يقطع خطواته فى ثبات ويجلس مفرودا وصوته يغمر المكان .

رحب بى قائلا :
ـ أهلا سعادة المستشار .

وكان محمد نجيب يمسك مجلدا فى يده فى حرص فتناوله الدكتور أحمد وفر صفحاته ، وقدمه الى خال عباس ، قال :
ـ هذه مذكرات ابنتى الدكتورة اوديت . ضمنتها المرحومة آراءها فى الحركة الشيوعية فى مصر منذ انشغالها بالعمل السرى وسردت فيها قصص الوحدة والخلافات بين القيادات المثقفة والعمالية ـ وكانت المرحومة مهمومة بالوحدة وفى كثير من الأحيان نفذت سياسات تكتيكية مخالفة لقناعاتها حرصا على الوحدة .

لقد حققت هذه المذكرات التى كانت تكتبها يوميا ووضعت لها عدة هوامش توضح الأحداث وفصلت الهوامش عن المتن .

وأكمل الدكتور أحمد قائلا :
ـ لا اعتقد ان هناك ما يمنع حاليا من نشر هذه المذكرات فقد مضى عليها اكثر من ربع قرن ولن تسىء الى احد وأنا على استعداد لنشرها على

حسابى فى لندن أو باريس . هذه امانة .

كان خال عباس ابوحميدة يستمع ويهز رأسه ولا يعلق .

لا ادرى ماذا كان يدور فى ذهنه ؟ فقد طوح رأسه الى اليمين واستغرق فى تفكير عميق وهو يستمع الى الدكتور أحمد .

كنت أظن ان خال عباس سوف يقول شيئا يعبر عن تلهفه لنشر هذه المذكرات لكنه فضل الصمت . ماذا جرى ياخال عباس ؟ هذه مذكرات ثمينة . قطعة من تاريخ مصر وصاحبتها ماتت مقتولة كما يقال فى غمرة الصراع على السلطة بين جمال عبدالناصر واللواء محمد نجيب .

من صمت خال عباس ابوحميدة أدركت ان الأمر ليس سهلا على نفسه وان الرجل له حسابات معقدة تمنعه من الاندفاع أو القبول دون شروط .

هب الدكتور أحمد السيد باشا واقفا ، قال :

- هيا بنا . مائدة محجوزة لنا فى المطعم .

قمنـا جميعـا .

تقدمنا ناحية المطعم . يعرف طريقه وكأنه قد حل بهذا الفندق عشرات المرات . سرنا خلفه . هو فى المقدمة والى جواره زهية من ناحية وابنى محمد نجيب من ناحية وفى الخلف على بعد خطوتين عباس أبوحميدة وأنا .

كانت المائدة محجوزة وجلسنا كما اراد . زهية الى جوارى ومحمد نجيب - ابنى - بينى وبينه والى جواره من الناحية الأخرى خال عباس ابوحميدة .

ودخل الدكتور أحمد باشا فى موضوع مذكرات الدكتورة اوديت مباشرة دون لف أو دوران ، وسأل عباس ابوحميدة عن سبب تحفظه على النشر . قال :

- أود أن اعرف تحفظاتك على النشر ؟

خال عباس ابوحميدة حتى تلك اللحظة كان مستمعا ولكن الباشا الأريب

ادرك أن للرجل تحفظات .

قال خال عباس :

ـ تاريخ النشر جزء من كتابة المذكرات . وربع قرن من الزمان ليس بالزمان الطويل .

افصح خال عباس صراحة انه يرفض النشر فى هذه الآونة . بينما المذكرات فى يده .

ضحك الباشا ، قال :

ـ الا توافقنى يارفيق عباس على ان الحقيقة لها الأولوية والأفضلية وان الايديولوجية دائما ناقصة .

قال خال عباس على الفور ضاحكا هو الآخر :

ـ الحقيقة نسبية ياباشا .

اجاب الباشا قائلا :

ـ معك حق يارفيق .

كنت أتابع حديثهما فى لهفة وقد عجزت عن سبر أغوار خال عباس ومعرفة سبب رفضه للنشر وكنت اظنه سوف يطير فرحا بالنشر . هذه من اسرار الحركة اليسارية فى مصر .

اعد الجرسونات المائدة . اباريق الشاى والقهوة والحلويات وكذلك بعض الكحوليات الخفيفة الفاخرة . كما أن اطباق الفاكهة كانت تزين المائدة الى جانب الساندويتشات الصغيرة .

سألتنى زهية ، قالت :

ـ قهوة أم شاى ياسعادة المستشار ؟

قلت :

ـ قهوة من فضلك .

بيدين مدربتين ، صبت لى القهوة . ثم صبت الشاى لخال عباس

ابوحميدة دون سؤاله وكأنها تعرف عاداته . اما الباشا فقد تناول عصير الليمون وبعدها صبت لمحمد نجيب ولها القهوة .

يداها قويتان . تزينهما الخواتم والغوايش . لكنهما توحيان بانهما لفلاحة وليست اميرة . يدان عرفتا مسك الفأس والجاروف وليس الملاعق الذهبية . وكانت قبضة يدها اليمنى عروقها بارزة ونافرة على نحو ظاهر وكذلك بقعة سوداء لامعة كالوحمة على كفها لم المحها عليها من قبل .

قلت لنفسى لم أر هذه الوحمة بسبب الطين الذين كان يلوث كل شيء فى عزبة عويس كما ان جلدها فى السابق كان يميل الى السمرة اما الآن فقد اصبحت بشرتها تميل الى البياض .

أعدت لى القهوة كما تعدها زوجتى الأميرة جويدان ففقدت القهوة مذاقها ونكهتها فى فمى .

كنت اطمع فى أول لقاء لى مع زهية ان تقدم لى القهوة من كنكة صغيرة وهى جالسة متربعة على الأرض بين قدمى .

لكننا تغيرنا .

هى ليست زهية عاملة التراحيل فى عزبة عويس وأنا لست كرامة بن سرحان السقا . وجنيف ليست عزبة عويس .

مع رشفات القهوة سرحت بعيدا ، أخذنى الماضى عنهم ولفحتنى شمسه الحارقة . وغرقت فى همومى الصغيرة التى تعذبنى . ابنى جالس الى جوارى واحس بانفاسه وارى نفسى سارحا فى الحقول كالمجنون بالجلباب الواسع من حوض الى حوض متقززا من كل ما يصادفنى ناقما على التراب والطين ومياه الرياح العطنة ووجوه الناس الكالحة حائما حول قصر اللواء عويس مبتهجا بأريج شجر المانجو متلمسا فيه انفاس الأميرة جويدان ضاربا فى الأرض فى وحدة وهمساتهم تصلنى ساخرة ولد سرحان السقا "مخاوى" جنية لحست عقله وتسوقنى قدماى من ناحية الى اخرى وصوت الكون له ازيز يدفعنى للسير والجلوس على شجرة ميتة فى مواجهة شرفة الأميرة جويدان .

كانت زهية تسخر منى وتقول لى اميرتك حوضها لا يتسع لفأر وصدرها لا يرضع بعوضة وهاهى ذى الأميرة اصبحت زوجتى وزهية اصبحت زوجة الدكتور احمد باشا السيد وتصب لى القهوة بيديها .

جاءنى صوت زهية فى اللحظة التى كنت اتسلق فيها شجرة الجميز الميتة لأجلس بين اغصانها فى وقت الظهيرة ، قالت :
- ما رأى سعادة المستشار ؟

كانت عيناى متعلقتين بابريق القهوة ، فتطلعت اليها متسائلا وعلى فمى دهشة ، ويبدو انها ادركت شرودى ، فأكملت قائلة :
- تنشر المذكرات بالفرنسية أولا وبعد ذلك بالعربية .

وشغلت نفسها وشغلتنى بصب القهوة لى فاعطتنى فرصة لترتيب افكارى .

كانت الأنظار تتعلق بى ، واردت مجاملة الدكتور أحمد باشا ، فقلت :
- اعتقد انه من الأفضل نشر المذكرات باللغتين الفرنسية والعربية فى وقت واحد .

ابتسم الدكتور أحمد باشا السيد اما خال عباس ابوحميدة فقد طوح رقبته ورأسه وغرق فى التأمل ولم يظهر لوما لأننى خذلته .

كان ابنى محمد نجيب يتابعنا صامتا .

اشتقت لسماع صوته ، توجهت له بالسؤال ، قلت :
- ما رأى الجيل الجديد ؟

قال ابنى :
- مع احترامى الشديد لرأى خال عباس فان الباشا على حق ففى هذه المذكرات اجابات شافية على كثير من التساؤلات وتكشف بدقة دور هنرى كوريل وتلقى ضوءا على اسباب الانقسامات المتلاحقة التى عانت منها الحركة اليسارية فى مصر كما ان هذه المذكرات تلوم اليسار بسبب موقفه فى ازمة مارس ١٩٥٤ وهذا تاريخ من المستحسن قراءته هذه الأيام .

طالت هامتى حتى مس رأسى سقف المطعم من الفرحة . هذا ابنى وكدت اقفز من جلستى لأقبله . وحانت منى نظرة الى زهية فوجدتها تبتسم لى وكأنها تقول لى الملعونة .

ـ انظر . كيف انشأته وربيته .

صوته هادىء . افكاره مرتبة . تحدث فى دبلوماسية . وتوقفت عند قوله "خال عباس" وتساءلت بينى وبين نفسى : هل يقلد أمه ؟ أم يتردد عليهم خال عباس وقد اقنعته زهية بانه فى مرتبة خاله . كما انه يخاطب الدكتور أحمد السيد بالباشا ولا يقول له : ابى أو دادى أو اونكل !!

هـذا سـر .

لأدع قضية المذكرات تشغلهم ولأتفرغ لشأنى ، فهذا ولدى وقد وجدته واذا كنت قد تخليت عنه فى الماضى هو وامه فالحاضر يجبرنى على احتضانه وأخذه الى صفى .

تفتق ذهنى عن خطة جهنمية وعزمت على تنفيذها على الفور . قررت دعوة ابنتى ابسنت لتلتقى بأخيها محمد نجيب وان اترك لرابطة الدم تحطيم حواجز الصمت والرياء .

ابسنت تصغره باكثر من خمسة عشر عاما لكنها "عفريتة" اذا دعاها للرقص انهكت قواه وسبرت اغواره فى دقائق .

كانت جلستنا قد طالت ورأيت الارهاق على وجه الباشا وان كان صوته قويا ونبراته عميقة وكلماته متلاحقة خالية من التردد أو التلعثم ومن يسمعه ولا يراه ربما يظن انه رجل فى الأربعين من عمره .

هذا الرجل حنجرة شابة وحبال صوتية متينة مركبة على مجموعة من العظام التى يكسوها قليل من اللحم والى جانب الحنجرة ذاكرة قوية ولماحية وانشغال بالقضايا العامة .

اعادت زهية اليه شبابه أو على الأقل حافظت له عليه .

كنت أود ان اسأله عن فترة اعتقاله فى حملة سبتمبر الشهيرة التى

أودت بحياة السادات وكيف تحملها وهو فى هذه السن لكننى لم اتعجل السؤال الى جانب انه لم تكن هناك مناسبة لإثارته .

عرفت ابنته المرحومة الدكتورة اوديت المعتقلات فى شبابها وقد لحق الرجل بها فى اكتساب هذه الخبرة فى شيخوخته المتأخرة وكأنه قد عز عليه مفارقة هذه الدنيا الفانية قبل ان يحصل خبرة المعتقل .

يبدو ان خال عباس قد أعمل فكره فقال :

ـ اذا كانت هذه رغبة الباشا فسوف أعمل على نشر المذكرات فى بيروت وفى باريس ولن يستغرق الأمر اكثر من ثلاثة أشهر .

قال الباشا متهللا :

ـ بارك الله فيك يارفيق .

امسك خال عباس ابوحميدة بالمذكرات ووضعها على المائدة ، قال :

ـ هذه الأوراق فيها رائحة الحبايب وهى فى عينى .

كان من الواضح لى ان خال عباس ابوحميدة لم يتنازل عن رأيه من الناحية السياسية لكنه غلب الناحية الإنسانية على الدوافع السياسية بسبب ظروف الرجل الصحية وكبر سنه ورأى ان يحقق له امنيته ربما تقديرا لدوره وربما تقديرا لدور ابنته الدكتور اوديت .

قلبك كبير ياخال عباس .

لاشك لدى ان هذه المذكرات سوف تثير زوبعة بين اليساريين وتأتى اليهم كطعنة من الخلف من واحدة من المناضلات اللاتى رحلن وعباس ابو حميدة يشفق على الحركة من تبادل الاتهامات .

التاريخ لا يرحم .

ابنى يؤيد نشر هذه المذكرات بحثا عن الحقيقة لكنه لا يعرف أن دماء قد سفكت وعائلات قد شردت وخال عباس يحرص على سمعة الموتى منهم قبل الأحياء .

كنت أتأمل زهية بعينين مفتوحتين ، لكن حواسى كلها مع ابنى الجالس

الى جوارى لا أرى وجهه وهو يحادثنى الا اذا التفت اليه لكننى احس بثقل جسمه واكاد اسمع دقات قلبه وهى تتجاوب مع ألحان خافتة ويتابعها بدقة او دقتين بأصابعه على المائدة أو بحركة حذائه اسفل المائدة تفضح فرحته بالحياة وبفتوته وشبابه .

الحقيقة لها الأولوية على الأيديولوجية . قلتها يادكتور أحمد السيد باشا وانت استاذ قانون شهير . قلتها "بعظمة" لسانك .

اليس من حقى أنا ايضا ان اقول على الملأ بالفم "المليان" ان رابطة الدم لها الأولوية على العلاقات الطبقية والاجتماعية وان الإسلام قد حرم التبنى لحكمة ألهية .

رأيت من الحكمة القيام ، فأنا غريب بينهم ، وربما لديهم ما يشغلهم ، وهبت زهية واقفة تودعنى وتحملنى سلاماتها الى زوجتى الأميرة جويدان والى ابنتى ابسنت .

وصممت على دعوتنا على العشاء وتجرأت وطلبت من محمد نجيب ان يزورنى فى مكتبى لصحبته الى مبنى الأمم المتحدة للتعرف على طبيعة العمل .

ايدنى الدكتور أحمد باشا السيد ، قائلا :

ـ نعم . هذه فكرة طيبة .

قلت فى أدب :

ـ اذا اذن الباشا .

قال الرجل فى ثقة :

ـ هذا ابنك . خذه معك غدا .

التفت الى زهية وجدتها تجاهد لتتماسك وقد سمعت ما سمعته . سحنتها تغيرت وصوتها ضاع وانشغلت بتوديع خال عباس وقد احتضننى وهو يربت على ظهرى قائلا :

ـ بارك الله فيك ياسعادة المستشار .

اما محمد نجيب فقد ودعنى فى ثبات على وعد بالقدوم الى البعثة فى الساعة العاشرة صباحا . وفتحت زهية حقيبتها وقدمت لى لفافة قائلة :

ـ هذه هدية صغيرة للعروسة . وهذه هدية للأميرة جويدان .

تناولتهما منها شاكرا وأنا انظر فى عينيها . كانت كالفرخة المذبوحة تفرفر . يدها ترتعش . رأيت فى داخلها الفلاحة المسكينة المكسورة الجناح .

وقررت الذهاب على عجل قبل ان تنهار قواى ، واعترف .

وخيل الى اننى اسمع صوتها ينادينى ، لكننى لم التفت الى الوراء وتابعت سيرى فى الطين بعيدا عن شجرة الجميز اليابسة ورمحت حتى الرياح ودرت عائدا ووجدتنى امام دار أم حبيبة زوجة الشهيد عكاشة ونهق حمار نهيقا افزعنى وغيب عنى صوت زهية وهى تتوسل الى بالبقاء وضربت فى طريقى بعيدا حتى وجدتنى داخل سيارتى ، فانطلقت عائدا الى بيتى .

(٤)

دق جرس التليفون فمزق صمت الليل وقمت متكاسلا . جاءنى صوت ابنى فى كلمات متلاحقة فى ثبات لكن رنة الفزع فيها ، قال :

ـ آسف على الإزعاج فى هذا الوقت . لكن الأمر عاجل ياسعادة المستشار . أمى فى المستشفى فى حالة خطرة للغاية والباشا كلفنى بالاتصال بحضرتك .

كتبت اسم المستشفى على عجل ، وسألته عما جرى ؟

اصيبت بنزيف حاد ، وطبيب الفندق حولها الى هنا ، وفصيلة دمها غير متوافرة .

طمأنته . قلت له :

ـ سوف احضر حالا .

تحققت مخاوفى . رأيتها كالفرخة المذبوحة فى العشية وسمعت صوتها وهى تنادينى لكننى تغاضيت عنها وتابعت طريقى .

ارتديت ملابسى ، واسرعت الى التليفون ، واخطرت خال عباس ابوحميدة فى كلمات قليلة ، وقد ساورنى يقين ان فصيلة دمها لن تتوافر الا فى ابناء عزبة عويس .

شمرت ذراعى والقيت نظرة على عروقى ثم وضعت الجاكت وهرولت خارجا وفى طريقى الى المستشفى مررت على فندق خال عباس فوجدته ينتظرنى فى البهو والى جواره ثلاثة من العمال كلهم على استعداد للتبرع بدمائهم .

كانوا جماعة ، قلت :

ـ هيا بنـا .

نبهنى خال عباس ابوحميدة الى ان الصليب الأحمر الدولى به بنك للدم وقد أحسست بالحرج لأن خال عباس ايقظ الوفد العمالى فى هذه الساعة وقلت له :

ـ البعثة مليئة بالشباب ولن يتأخر واحد منهم عن التبرع .

قلت لنفسى : سعادة السفير عبدالرءوف الريدى سوف يكون أول المتبرعين وندمت لأننى لم اصحب زوجتى معى فى هذه الساعة .

غدا اطلب من الأميرة جلبهار ان تطلب من المترجمين المصريين فى الأمم المتحدة التبرع بدمهم .

مشكلة الدم لم تكن تقلقنى ، فنحن فى جنيف ويمكن استيراد الفصيلة المطلوبة من لندن وباريس بالطائرات ، وما يقلقنى : هو ماذا جرى لها ؟

رأيتها أمس كالفرسة فى قوتها وخيلائها فماذا اصابها ؟

كنت أود ان انفرد بخال ابوحميدة لسؤاله لكن الرفاق منعونى من الحديث . وبعد قليل وبينما السيارة تندفع بنا ، قال خال عباس ابوحميدة :

ـ هذه ليست أول مرة يصيبها النزيف . مسكينة .

وعاد الى صمته ولم يفصح .

انتابتنى كل الهواجس والمخاوف عليها . هل هو السرطان اللعين ام انها صدمة عصبية فجرت الشرايين والأوردة فى جسدها ؟

كنت أعتقد ان حالة زوجها الدكتور أحمد باشا هى الخطيرة لكن اتضح لى الآن انها مريضة بمرض مزمن وفى حاجة الى علاج مستمر وربما سبب ترددها على جنيف لهذا الغرض .

نادتنى أمس . سمعت صوتها لكن الطنين فى رأسى منعنى من الالتفات الى الوراء . جاءنى صوتها ضعيفا كصوت النداهة فأسرعت الخطى بعيدا عنها . قدرى ان أهرب منها فى اللحظة التى تحتاجنى فيها عن غير قصد . قوة خفية تفصل بينى وبينها ولا تجعل سبلنا تتقابل وفى كل مرة هربت منها تعذبت بعدها سنوات طوالا .

السماح والمغفرة ياربى فانا لست شريرا الى هذا الحد .

حجزونا فى غرفة استقبال على مقربة من الباب الخارجى . الدكتور أحمد باشا يجلس ساهما ووجهه قسماته ميتة . اقتربت منه فحاول القيام فرجوته الجلوس ، قال :

ـ آسف ياسعادة المستشار .

سألته مباشرة عما حدث ، قال :

ـ قامت لتلحق بك أمس ، وسمعتها تناديك وهى تصرخ فطلبت من محمد نجيب ان يتطلع الأمر ، فوجدها تتجه الى الاستعلامات وتطلب ان يزورها طبيب الفندق فى غرفتها . وصحبها محمد نجيب الى غرفتها وعاد الينا . ادركت ان الأزمة قد عاودتها . اجرى لها الطبيب الإسعافات الأولية وطلب تحويلها الى المستشفى على الفور ونقلتها عربة اسعاف . وهنا ساءت حالتها حتى اوشكت على الوفاة ولا تزال حالتها خطيرة وحرجة للغاية .

ادركت ان الأمر يتجاوز مسألة نقص فى فصيلة دمائها وان خال عباس قد اخفى عنى شيئا فقد كان على علم بما وقع لها .

قلت شيئا للدكتور أحمد باشا السيد من قبيل تمنياتى لها بسرعة الشفاء واسرعت الى خال عباس استوضحه ما خفى عنى . قلت له :

ـ ماهى الحكاية بالضبط ياخال عباس ؟

قال الرجل بسماحته المعهودة :

ـ ربنا يجعل العواقب سليمة .

خال عباس يعرف ولا يفصح ، الفلاح يفضل الصمت على الكلام وبدت لى الحادثة باكملها كقصة انتحار من قصص السينما المصرية الخائبة ، وكنت انوى اخطار سعادة السفير عبدالرءوف الريدى فأجلت قرارى .

ماذا جرى لزهية لحظة خروجى ؟ ومتى غادر خال عباس ابوحميدة الفندق ؟ ساورتنى شكوك كثيرة .

توجهت الى ابنى محمد نجيب ، وجدته مضطربا والهلع فى عينيه ، سألته :

- ماذا جرى ؟

قال :

- هبوط بالقلب مع نزيف حاد . وهذه ليست أول مرة .

سألته :

- وهل كانت تتناول ادوية معينة ؟

قال :

- كنا جميعا نعتقد انها شفيت تماما بعد ثلاثة اعوام من العلاج .

سألته :

- هل كانت تنوى اجراء فحوصات طبية فى جنيف ؟

أجابنى ، قائلا :

- هذا سبب حضورنا الى جنيف وبعد غد عندها موعد مع طبيب متخصص .

حادثنى ابنى دون مراوغة واسترحت الى حديثه .

بعد ساعة نزل الينا طبيب واخطرنا بايجاز بحالتها الصحية وسمح لشخص واحد بزيارتها مدة خمس دقائق ، فاقترح الباشا ان يصعد اليها محمد نجيب .

قال الباشا :

- لا يقوى قلب الأم غير رؤية الابن .

وجاءنا على الفور موظف حسابات فانشغل الباشا بكتابة عدة شيكات له تحت الحساب .

الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلا وجلست الى جانب خال عباس ابو حميدة ورفاقه وتحدثنا قليلا حتى نزل الينا محمد نجيب . توجه الى الباشا وبقينا فى جلستنا .

رأيت علامات الأرتياح على وجه الباشا فى جلسته ، اطمأن قلبى قليلا ، قال :

ـ الحمد لله يارجالة . وان كان الأمر يتطلب جراحة غدا أو بعد غد .

اسرع اليه خال عباس وأنا خلفه ، قال لنا الباشا :

ـ يجب ازالة الرحم .

ـ خفق قلبى .

قلت لنفسى : أبناء الفقراء يسقطون قبل الأوان . تهدهم الرحلة الى المجد وتفرى اكبادهم وتخصى رجالهم وتمزق جدران ارحام النسوة دون حمل او ولادة .

الباشا اذا جلس جلس معتدلا واذا وقف وقف منتصبا وزهية التى فى عمر ابنته رحمها ينزف دما وقد هدتها الرحلة من السفح الى القمة .

قال لى خال عباس :

ـ مسكينة . تعبت فى حياتها . هدتها الغربة .

ـ نظرت اليه مستفسرا ، اكمل :

ـ عاشت غريبة وبعيدة عن طين عزبة عويس . الطين له رائحة وملمس والخضرة فيها رحيق الحياة ومن يحرم من هذه النعمة يصبح كالشجرة اليابسة .

كان يحدثنى كفلاح ، قلت له :

ـ معك حق ياخال .

استرحت الى حديثه ، قال :

ـ أنا فلاح وافهم سر الوجود . العزبة حياة متجددة .

وابتسم . غمز لى بعينه . رأيت اسنانه تلمع . قال :

ـ هذا هو التطور الخالق ياسعادة المستشار .

ضحكت وقد تذكرته عندما وبخنى بسبب قولى له : الأرض خراب .

أحسست انه يحدثنى عن نفسى وانه يرمى الى شىء بحديثه عن غربة النفس فانا ايضا تركت العزبة وقطعت صلتى بها بعد وفاة والدتى وتزوجت ابنة الاقطاعى السابق وياوران الملك فاروق وغربت وشرقت وغرقت فى مياه آسنة .

تنبهت وخال عباس يقول لى همسا :

ـ الرئيس السادات رحمه الله وغفر له عرف السر وحرص على العيش وسط الحقول فى عزبة ميت ابوالكوم وفى القناطر الخيرية لكنه صنع ريفا مزيفا . ديكورا . كانت تطلعاته ونزعة الخيلاء فى اعماقه أقوى من فطرته . رحمه الله ، خرب الريف فى عهده وجاع . بارت الأرض و ....

بعدها قال خال عباس متألما :

ـ هذه اوجاعى ياسعادة المستشار . اعذرنى .

استمعت اليه صامتا .

طلب الباشا منا التوجه الى النوم ، قال :

ـ بارك الله فيكم جميعا .

عرضت ان ابقى معه أو اصحبه الى الفندق ، قال :

ـ سوف انتظر ساعة اخرى ، ربما يسمح لى بالصعود اليها .

سألت خال عباس :

ـ ما الرأى ؟

اجابنى خال عباس ، قال :

ـ الباشا على حق . وجودنا الآن لا فائدة منه .

واشار لرفاقه بالقيام فقاموا . عرضت عليه ان اصحبهم بالسيارة الى الفندق ، لكنهم رفضوا .

قلت :

ـ حتى ميدان المحطة .

قال عباس أبوجميدة :

ـ الجو منعش . والهواء ليس باردا والتمشية على الأقدام محبوبة .

تمسكت بدعوتى لهم ، مخى عاجز عن التفكير ، ووجدت فى الحديث اليهم ما يشغلنى عما يدور حولى ، فزهية راقدة فى سريرها وزوجها ينتظرها هو وابنها ووجودى فى المستشفى قد يسىء اليها ويثير شكوكا

لدى زوجها وهذه ليست ساعة فضائح قديمة مضى عليها اكثر من ربع قرن .

بى رغبة قوية فى سؤال خال عباس ابوحميدة عما حدث لحظة خروجى ولماذا هرولت زهية خلفى ونادتنى ؟

داخل العربة تحدثنا عن الجو بينما عاد عباس ابوحميدة الى صمته ورفض الإفصاح عما جرى فى الفندق فى اللحظات التالية لمغادرتى لهم ، وقال لى ردا على اسئلتى :

- ياسعادة المستشار ربنا يجعل العواقب سليمة ؟

ماذا يقصد ؟

هذا الصمت يضايقنى ، والرجل فيما يبدو لى يعرف شيئا ، وأنا ليس فى وسعى كشف أوراقى أمامه بعد أن أخفيت السر لمدة ربع قرن أو يزيد .

قلت له فجأة :

- محمد نجيب يذكرنى بشبابى وحيرتى فى اختيار وظيفة .

نظر الىّ بجانب وجهه ، وبعد فترة ، قال :

- محمد نجيب يدير مكتب الباشا وقد حصل على عدة دبلومات فى القانون ويود التفرغ للمكتب بعيدا عن قيود العمل فى وزارة الخارجية .

وعاد الرجل الى صمته .

وصلنا الى الفندق ولم أحصل على غايتى منه فدعوته الى فنجان شاى فى بهو الفندق وجلسنا بمفردنا وقد صعد رفاقه الى غرفهم .

هى لحظة فاصلة بين حياتين ، وقد فاتتنى تلك اللحظة عندما نادت علىّ زهية وهرولت خلفى فتركتها وصممت اذنى عنها وتابعت طريقى لا أعرف فى ردهات الفندق ام فى ازقة وغيطان عزبة عويس . تفجرت ايامى فجأة امامى فنقلتنى من الحاضر الى الماضى وحجبت عن مسامعى صوتها ودبيب قدميها .

تركت ابنى لها فخسرت الماضى وهاأنذا اخسر مستقبلى ايضا بسبب

حماقتى وربما نذالتى .

ولفحنى الهواء الحار والطنين ولفنى صوتها الرنان وهى تغنى قائلة :
يابهية خبرينى .. عالى قتل ياسين
وعد ومكتوب علي .. ومسطر عالجبين
وأنا كل مقول التوبة
ترمينى المقادير .

لعبت المقادير لعبتها وسهلت لى الزواج من الأميرة جويدان وهاهى ذى تلعب لعبتها مرة أخرى وتفرق بينى وبين ابنى بعد ان جاءت زهية الى جنيف بنفسها وسهلت لى اللقاء بابنى ، ماهو مصيرى اذا قضت زهية فجأة ولم تبح لأحد بالسر فساعتها لن يصدقنى أحد .

صراعى مع المقادير ، وقد امضيت حياتى كلها عائشا فى الوهم ، وعلىّ ان امسك بأطراف الحقيقة لأبنى لحياتى عالما آخر أشد صلابة ورسوخا غير ان قدرى ان اعيش فى محاربة طواحين الهواء وكلما اقتربت من بغيتى رمتنى المقادير بعيدا وطوحت بى فى اليم .

قال الدكتور أحمد السيد باشا :
ـ خذه هذا ابنك .

وفى هذه اللحظة تجرى زهية خلفى وتصرخ وتناديني لكننى أصم اذنى عنها وأولى مدبراً كالحصان الهائج فى طريقى .

سرى فى جعبة هذا الرجل الجالس أمامى ولا يفصح ، وكيف لى أن أشد الكلمات من فمه شدا ؟

طلبت لنفسى كأسا من الويسكى ، وتناول خال عباس ابوحميدة مياها معدنية ، قال :
ـ هذه المياه لا أجدها فى براغ . هناك اصناف اخرى متوافرة بكثرة لكنها لا تروقنى ، فهذه المياه تفتت حصو الكلى ولها فعل عصير القصب فى تفتيت الحصو وإدار البول .

سألته اذا كان فى حاجة الى فحوصات طبية ، قال :
ـ من هذه الناحية الرفاق فى براغ يقومون بالواجب ، شكرا .

كانت مذكرات الدكتورة أوديت على المائدة ، وتبينت ان خال عباس أبوحميدة قد أخذها فى يده عند ذهابنا الى المستشفى لسبب غامض وقلت لنفسى ، خاف ان يتركها فى الفندق .

هذه جنيف ياخال وليست عزبة عويس أو براغ حيث تمتد ايدى المخبرين للأوراق الخاصة ، وقلت لنفسى ربما يخاف من رفاقه ، كما انه ربما ليس وحيدا فى الغرفة .

لعنة الله على الخوف .

شربت كأسى ونظراتى زائغة وأحس بصداع شديد ، قلت :
ـ رأيتك ياخال مترددا فى مسألة نشر هذه المذكرات .

اجابنى ، قال :
ـ ياولدى هذه مسألة معقدة وأنا فلاح أبا عن جد ولست مؤرخا .

قلت له ضاحكا :
ـ ياخال أنت الخير والبركة .

من إجابته تأكدت ان الرجل يبادلنى الحب كواحد من عزبة عويس لكنه لا يبادلنى الثقة ولا يدلى لى برأيه بل يحجب عنى أيضا ما يعرفه ويهمنى .

هؤلاء الشيوعيون لديهم لوثة هى السرية والشك فى الآخر على الرغم من ان جوهر مذهبهم هو تجميع الناس . يفتح لى قلبه ويأخذنى بالأحضان لكنه لا يقربنى منه ويطلعنى على مشاغله الحقيقية .

هذا عيب لمسته فى بعض الشيوعيين الذين التقيت بهم فى سنوات الدراسة وفى الحياة وتلامست خطوطى بهم عن قرب .

ها . ويدعون انهم سوف يخرجون الجماهير العريضة عن صمتها ويدخلون بها التاريخ .

طلبت كأسا ثالثة من الويسكى ، قلت :

ـ ماهى حكاية ابنتك ؟

أخذ نفسا عميقا وكأنه يعد نفسه للبوح بأخطر اسرار حياته ، قال :
ـ ياسعادة المستشار . ابنتى كسرت قلبى . عذابى فى الدنيا والآخرة . سامحها الله . التحقت بأشد الجماعات الإسلامية تطرفا لإسقاط نظام الحكم بالقوة المسلحة . تدربت على السلاح وأضحت أشد تطرفا من رفاقها من الشباب . وسخرت ما تعلمته منى ومن أمها فى التنظير ونشر أفكار سلفية ذات بريق كاذب لتبرير عمليات العنف . القتل والاعتداء على الآخرين اصبح لديها كشرب الماء .

أضاف خال عباس وقد انطفأت لمعة عينية ، قال :
ـ حكايات مؤسفة اذا رويتها لك تملأ مجلدات .

سألته متعجبا ، قلت :
ـ وكيف جرى ذلك كله ؟

قال الرجل حزينا :
ـ جرى فى غيبتى . فى سنوات الاعتقال التى طالت عن الحد وفى سنوات هروبى المتلاحقة . رأتنى فى طفولتها وهم يعتقلوننى ودائما بعد منتصف الليل وكذلك رأتنى فى صباها وشبابها المبكر فامتلأ قلبها بالحقد وبحثت عن ملاذ يوفر لها الأمان النفسى وفى الجامعة فى سنوات السادات الأولى اقتربت من تلك الجماعات .

قلت له مواسيا :
ـ هذا ثمن باهظ ياخال لسنوات من الكفاح .

قال الرجل :
ـ قلب هذه البنية كان متعلقا بى . فهى ابنتى الوحيدة ولم انجب بعدها . ولما رأتهم يأخذوننى منها قررت الانتقام من الجميع . منهم ومنى أيضا .

هذا رجل آخر يبحث عن ابنته . هى حية وميتة بالنسبة اليه وقلت لنفسى : مصيبتك ياكرامة أخف ، فابنك محمد نجيب مسارات حياته معروفة لديك .

نظرت الى وجهه الباسم ، سمرته محببة ، وعيناه فيهما بريق نفاذ وان كانت تلك اللمعة الزاهية قد انطفأت وقد مال جسده الى السمنة قليلا : ياخال عباس . أنت لم تشرخك سنوات الاعتقال المريرة المتلاحقة ولكن كسرت قلبك ابنتك الوحيدة .

أشفقت عليه ، قلت :

ـ هذه نوبة وسرعان ما تعود الى رشدها .

كنت أود أن اقول له أن الشباب قد فقد القدوة فى عصر السادات لكننى أحجمت . بلعت الكلمات عن قصد ، فقد خجلت ان انتقد الرئيس السادات بعد موته ، بعد ان كنت معجبا به طوال حياته . كما ان منصبى يمنعنى من الثرثرة فى هذه الأمور ، فالحيطان لها آذان .

هه . هذه أيامنا ياخال عباس وقد ضاع العمر فى أحزان متلاحقة وأحلام لم تتحقق وكأننا عشنا كذبة كبرى رويناها بدمائنا وجرينا وراءها وصدقناها حتى بانت الحقيقة فجأة فانسحبنا داخل ذواتنا نجرجر أذيال الخيبة .

الرجل يجلس أمامى صامتا ليس عن الكلام ولكن عن الحركة وكأن الأيام قد هدته . قلت لنفسى ربما هى حكمة الزمان فى أواخر العمر التى تجعله هادئا فى جلسته محتفظا بأحزانه داخل جوانحه .

قال فجأة وعلى غير انتظار :

ـ ارهقتنى الغربة ياولدى . أنا فلاح من المبتدى الى المنتهى . والعمل فى براغ دوامة لا تنتهى وكأننى عجل وربطوه فى ساقية .

وبعدها ضحك قائلا :

ـ الرفاق هناك مشغولون بقضايا عفى عليها الزمن ولهم ولع بترديد الشعارات الجوفاء وكأننا نعيش فى الربع الأول من هذا القرن .

وبعدها أكمل قائلا :

ـ نحن فى مصر أول ضحية للحرب الباردة : هذه حرب طاحنة بين الشرق والغرب ولا ناقة لنا فيها ولا جمل .

يساورنى إحساس بأن الرئيس جمال عبدالناصر رحمه الله قد راهن على الحصان الخاسر وان الغرب لم يكن عادلا فى معاملة مصر طوال حكمه ، وهاهو ذا شيوعى من قمة رأسه الى أخمص قدميه يرى رأيى .

كنت أود ان افضفض وأثرثر معه لكن طبيعتى الدبلوماسية وخوفى المتأصل منعانى من الكلام وفضلت الاستماع ، قال بعدها :
ـ الكتلة الشرقية بأكملها فى طريقها الى التفكك . الدودة الآن فى جذر الشجرة .

هل يطاوعنى الرجل ويأخذنى على هواى ويخصنى بما يرضينى أم أننى صفحة مفتوحة أمام ناظريه يغرف منها ويسقينى .

قلت لنفسى : أنت ياكرامة فعالك تفضحك . تركت العزبة وعملت بالخارجية دون واسطة فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر عندما فتحت الخارجية ابوابها لأبناء الشعب المعدمين ، وبعدها اتصلت بالأميرة جويدان وجاهدت حتى أوقعت بها وآلت اليك ثروتها . وفى عهد السادات سبحت به وحمدت متخليا عما كان . هذه حقائق لا تغيب عن رجل عجنته السياسة .

الساعة تقارب منتصف الليل وما جئت لمعرفته من خال عباس أبو حميدة حجبه عن قصد ، فما جئت معه فى هذه الساعة لمناقشة أبعاد السياسة الدولية ومستقبل الكتلة الاشتراكية وموقف مصر من الصراع الدائر ، اذن فالذهاب قد وجب .

قلت :
ـ سوف أعود الى المستشفى فربما الباشا فى حاجة ولزيادة الاطمئنان على حالة زهية .

أجابنى على الفور قائلا :
ـ بارك الله فيك . والله هذا واجب .

شجعنى على الذهاب ، فقمت . وودعنى قائلا :
ـ الله يجعل العواقب سليمة .

نظرت اليه مستفسرا عن مقصده ، فربت على كتفى مطمئنا ، على باب الفندق قال لى :

ـ زهية هانم تعبت فى حياتها والبدن ياولدى تهده السنون .

قلت له وأنا اتوجه الى عربتى ، معك حق .

(٥)

فى طريقى الى المستشفى تبينت فجأة أننى لم أواجه الموت مواجهة حقيقية فى حياتى ، فقد قضى أبى فى السجن ، وماتت أمى وأنا بعيد عنها وحمدت الله على نعمته ورحمته بى .

حقيقة اذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأبدان ـ كيف خطر على بالى هذا البيت من الشعر ؟ لا أعرف . ربما هو الليل والهدوء وقد سبحت أضواء الطريق فى غلالات ضبابية فضية اكسبتها مسحة ملائكية غامضة .

منذ التحاقى بالخارجية انشغلت بالأمور السياسية والاقتصادية وهجرت الشعر ونسيت أيامه ولياليه وكانت شعلته هى سلوى حياتى .

زوجتى لا تنتهى من رواية أدبية الا لتبدأ فى قراءة أخرى بالاضافة الى سقط المتاع من الكتب التاريخية والمذكرات وقد بدأت تتقمص الشخصيات الخيالية وتستشهد بأقوالهم وكأن الجن قد تلبسها .

هزل جسدها ورق صوتها وأصبحت على لسانها أقوال مثل قضى الأمر . الاحباط يؤدى الى الاستسلام وعدم الاكتراث لكنها زادت عنادا وشراسة وفتحت شهيتها للتمسك بتلك الطقوس الزائفة لتعذيبى وتعذيب نفسها .

أحببتها وتعلقت بها فى شبابى ومازلت أحبها فى رجولتى واعتبرها الملاك الذى دخل حياتى فاسعدنى والنجمة التى أضاءت طريقى .

الحب له سبعة وجوه وقد عرفت منه وجهين طوال حياتى التى تجاوزت نصف قرن ـ وهذا ليس كثيرا علىّ ولا أحس بندم أو تأنيب ضمير . نعم . تعلقت بزهية وذبت تلهفا عليها عندما كانت عاملة تراحيل لا تملك شيئا فى حياتها الا جسدها العفى وقلبها الكبير وقد منحتنى الاثنين معا . اما

زوجتى الأميرة فلم تمنحنى فى شبابى سوى طلعة بهية كنت أراها من وقفتى فوق الشجرة وعندما حادثتها هناك على مقربة من الأهرامات وسمعت صوتها لأول مرة تغيرت سبل حياتى . سحرتنى . وأصبحت هائما بها على الرغم من اننى ضربت بالسوط على ظهرى بسبب سقوطها من فوق الحصان وكسر قدمها .

هاهى ذى زهية ترقد فى المستشفى وربما تجرى لها جراحة لإزالة الرحم قبل الأوان .

مسكينة .

يخلق من الشبه اربعين وللحب سبعة وجوه ومن حق الرجل الحصول على مائتين وثمانين امرأة لحل تلك المعادلة البسيطة وبذلك تكتمل رجولته وخبراته ويابخت من تزوج واحدة من أولئك النسوة . هذا رجل دعت له أمه فى ساعة كانت فيها أبواب السماء مفتوحة فاستجيب لدعوتها .

كنا نسميه ملك الفسوق والعهر فى المدينة الجامعية وكان يتهمنا بالكذب والنفاق ، قائلا :

ـ ياأمة من الكذابين .

لم يكن متفوقا فى دراسته مثلى لكنه كان دوما من الناجحين . وكان يسمى الأشياء بأسمائها العارية دون مواربة . كان يقول لى مازحا :

ـ أنت بالكذب عجنت ياكرامة . حياتك كلها كذبة كبيرة . تود التفوق ، لماذا ؟ لتبدل حياتك بحياة أخرى وتتسلق السلم الاجتماعى لكنك سوف تخسر نفسك فور وصولك الى القمة ، مالها معيشة الفلاحين ؟ حلوة .

وكان يفخر بأنه لن يعمل بعد تخرجه سوى بالتدريس ـ وياحبذا فى مدرسة بنات ـ وتعليم البنين والبنات الصدق قبل حشو رءوسهم بالمعلومات الخائبة .

نسيته فى زحمة الحياة ، وفجأة تذكرته فأضاء لى طريق لوزان .

ركنت سيارتى على مقربة من المستشفى ، وتسللت الى غرفة الاستقبال

فوجدت الباشا قد وضع بطانية على قدميه وكأنه لم يبدل جلسته منذ غادرنا .

رحب بى قائلا :
ـ لماذ حضرت ياسعادة المستشار ؟

قلت :
ـ للاطمئنـان .

درت بعينى فى الغرفة ، رأيت محمد نجيب فى الغرفة الزجاجية يتحدث الى فتيات الاستقبال ، ابتسمت .

قال الباشا :
ـ سمح لنا بالصعود الى المدام لمدة عشر دقائق . زيارة استثنائية ، فانت تعرف النظام هنا ، لكننى صعبت على الطبيب المناوب ، وييدو انها طلبت رؤيتنا فور يقظتها .

سألته متعجلا :
ـ وكيف حالتها ؟

اجابنى ، قائلا :
ـ حالتها الصحية فى تقدم ، هذا ما اوضحه لى الأطباء ، ولكن نفسيتها ليست على ما يرام .

وقعت كلماته غريبة على مسامعى فى البداية وبعدها أحسست بالمخاطر التى تحيط بى !

هانحن أولاء تركنا عالم الطب والفيزياء الملموس لنطوف فى عالم النفس الرحب الغامض ، ومن وجه سهاما مسمومة الى قلبها فأصابه فى مقتل غير كرامة ابن سرحان السقا ، ذلك الآخر ، الذى هو أنا .

قلت للباشا :
ـ ربما الهانم تشعر بخوف .

ضحك الباشا ، قال :

ـ قلب زوجتى لا يعرف الخوف ، وقد تبينت ذلك وتأكدت منه اثناء فترة اعتقالى التى استمرت عدة اشهر فى اواخر ايام الرئيس السادات ، فقد تعرضت لضغوط كثيرة من قبل اجهزة الأمن ، لكنها وقفت فى صلابة ، بل كانت تزورنى بصفة مستمرة .

وبعدها توقف الباشا عن الحديث ، قال :

ـ هذه قصة اخرى ياسعادة المستشار ، وليس من حقى ازعاجك بها ، ولكنها كانت اياما سوداء . واعذرنى ياسعادة المستشار فمن فى عمرى هوايته الثرثرة ، وليس أمامه بديل عن العمل سوى الكلام .

وفجأة أضاف قائلا :

ـ على كل حال ، الهانم من بلدكم وأنت قد عايشتها فى طفولتها وربما ادرى بها منى .

تسربلت بالصمت .

أرى نفسى قد استدرجت الى بؤرة الأحداث ولم أعد على هامشها دون قصد منى ، وعلىّ ان انسحب .

درت فى الغرفة مهموما ، وعيناى لا تفارقان الباشا أو محمد نجيب .

الباشا فى جلسته يقظ وأحسست به يصارحنى بأشياء ليرمى القفاز فى وجهى ويسألنى عن زهية فى صباها وشبابها المبكر جدا .

ما عرفته من زهية وسمعته عنها لا يقال ولا يروى وابنى الواقف هناك يداعب فتيات الاستقبال دليل معرفتى بها ، تلك المعرفة الحقيقية وليس المعرفة السطحية أو الخارجية .

عقدت العزم على الذهاب والانسحاب ، فزهية الآن نائمة فى فراشها ومهما وقع لها لن يسمح لنا بالصعود اليها .

نظرت فى ساعتى ، وبعدها قلت :

ـ ما رأى الباشا فى العودة الى الفندق والقدوم فى الصباح ؟

هز الباشا رأسه موافقا ، قال :
ـ معك حق ياسعادة المستشار .

قام من جلسته بمفرده ، وكنت اظنه فى حاجة الى مساعدة ، واقبل علينا محمد نجيب ، قائلا :
ـ هيا بنا ياباشا .

تناول الباشا عصاه بينما تشاغل عنا محمد نجيب بتحية الفتيات والغمز بعينه لواحدة منهن شقراء لها طلعة جميلة وشفتان ممتلئتان وذات قد فارع . وأحسست بقلبى يقع ، لحظة غائمة لفتنى ، تذكرنى بنفسى ، وعندما توقفت عن الحديث الى نفسى ، وقلت كان ذلك فى شبابى وسنوات حرمانى ، وابنى من حقه القيام بما فاتنى ، فقد جمع المجد من اطرافه ، ولد بعد ثورة ١٩٥٢ ، وتربى فى كنف باشا ، فلم يعرف الحرمان .

قسمات وجهى فضحتنى وكشفت عما يدور فى رأسى ، فتقدم منى ابنى قائلا :
ـ هذه فتاة سويدية ياسعادة المستشار . عاشت فى مصر فترة من الزمان لدراسة العربية والتاريخ الحديث للمنطقة . وكانت تحدثنى بالعربية .

التفت الى الغرفة الزجاجية بطريقة عفوية ، والقيت عليها نظرة ، فحيتنى بهزة خفيفة من رأسها ، وعند خروجنا ، وجدتها فى انتظارنا ، تحدثت الينا بعربية سليمة متمنية للمريضة الشفاء العاجل . بعدها انشغلت بابنى قالت :
ـ محمد . سوف اتصل بك فى الساعة السابعة والنصف صباحا .

قال ابنى لها :
ـ من فضلك ياMarينا . لا تنسى .

ضحكت الفتاة وهى تسوى شعرها ، قالت :
ـ يامحمد انا لا انسى . لقد سجلت اسمك الى جوار اسماء المرضى الذين يتعين على ايقاظهم قبل انتهاء نوبتى .

قال ابنى ضاحكا وهو يضع يده على قلبه :
ـ أنا مريض بالقلب يامارينا . لا تنسى .

احاطته بيديها وقبلته ، وقالت :
ـ اذهب لتنام يامحمد .

قلت لنفسى : ابن الحرام .

خرجنا .

قال الباشا مبتسما :
ـ يامحمد اذا اردت العمل بالخارجية في يوم ما عليك الابتعاد عن الأجنبيات .

قال محمد نجيب ضاحكا :
ـ لقد ذهبت بعيدا جدا ياباشا .

كانت عربتى على مبعدة خطوات ، والسماء قد امتلأت بغلالة كثيفة من الضباب الفضى المعتم ، والشارع تغرقه اضاءة قلقة رمادية تفسد مشاعر الحب .

هذه لحظة ترتعش فيها الموجودات ، وتصيبنى بكآبة داخلية ، وانتظرت حتى استوى الباشا فى جلسته ، فى الخلف ، اما ابنى محمد نجيب فقد رأى من حسن الأدب الجلوس الى جوارى .

انطلقت بالسيارة فى طريقى الى الفندق ، قال الباشا :
ـ شكرا ياسعادة المستشار .

تحاشيت الطرق المؤدية الى البحيرة عن عمد فى طريقى الى الفندق بسبب تلك الكومة من الضباب الرازحة على المدينة كالكابوس والمنبعثة من البحيرة كأنفاس شريرة .

كنت فى اليومين الماضيين مشغولا بكيفية مواجهة الواقع ، وكشف اوراقى والمطالبة بابنى محمد نجيب غير ان دهاء زهية قد اوقعنى فى شبكة

متصلة من المشاكل حيث كل مشكلة تجر الأخرى وتسلم الى مشكلة جديدة .

في البداية جمعتني بعباس ابوحميدة والباشا وابني وشغلتنا بقضية نشر مذكرات الدكتورة أوديت . ثم مرضت ورمت القفاز فى وجهى لتجبرنى على البقاء فى اروقة المستشفى حتى منتصف الليل .

نظرت الى ساعتى دون قصد او رغبة فى معرفة الوقت ، قال ابنى الجالس الى جوارى فى العربة :
ـ أتعبناك معنا ياسعادة المستشار .

وبعدها اكمل قائلا :
ـ على كل حال والدتى من بلدكم وقد حدثتنى كثيرا عن حضرتك .

آه . هاهى ذى سطور الكتاب المغلق تتساقط . والحكيم من يجمع الكلمات ويعيد لضمها .

قلـت :
ـ زهية هانم امرأة عظيمة .

يبدو لى ان لهجتى المتحفظة لم تعجبه ، فقال :
ـ ألم تكن امى صديقتك ، هى تقول إن أول حب لها كان مع تلميذ فى العزبة اسمه كرامة ؟

قلت :
ـ شقاوة عيال .

قال ابنى :
ـ يبدو ان امى فى صباها كانت متعلقة بك الى حد الجنون .

تحولت سيارتى فجأة الى محكمة لى ، حانت منى نظرة الى الباشا فى المرآة ، فوجدت ابتسامة على شفتيه ، قال :
ـ ياسعادة المستشار هذا جيل جديد . الأبناء يحاكمون الآباء . خذنى محاميا لك فى هذه القضية .

عشت حياتي حذرا ، لا أضع نفسى في خية أو مصيدة لكننى منذ قدوم زهية الى جنيف أحس بان مئات الخيوط تلتف حول عنقى ، خيوط ناعمة تشدنى الى هاوية لا قرار لها .

كلماتهم منمقة واخالهم جميعا يعرفون السر .

وصلنا الفندق ، نزلنا جميعا ، قلت :

- ليلتكم سعيدة .

انصرفت . لم احدد موعدا للقاء ، وقد تحاشيت اظهار قلقى على زهية وبخلت عليها بالسلام والتمنيات الطيبة ، لم اقل شيئا .

هربت ، دخلت داخل جلدى ، قدت سيارتى "طيارة" عائدا قبل انفجار شريان فى رأسى .

رجال الضبطية والمحققون يهتمون بالتوافه من الأمور وخبرتهم تتركز فى رؤية البصمات والأتربة وجمع ادلة من بقايا الثياب والمأكولات والأكواب الفارغة اما الدبلوماسى فخبرته تتركز فى معرفة القضايا والعوامل الرئيسية فى أية مسألة وعزل العوامل الرئيسية عن العوامل الثانوية .

المذكرة التى كتبها ممثل السفارة البريطانية فى سنوات الأربعينيات يسخر فيها من سياسى مصرى قائلا إنه اذا عرضت عليه قضية تتضمن ثلاثة عوامل رئيسية وعاملين ثانويين ، توقف عند العوامل الثانوية ، وفاتته العوامل الرئيسية ولم تلفت نظره .

أساتذة الدبلوماسية فى المعهد كانوا يلفتون نظرنا الى هذه المذكرة كدرس فى الفهم الصحيح ، وأنا الآن مثل ذلك الرجل ، لا ادرى بداية من نهاية . زهية وابنها محمد نجيب يلعبان بى . عباس ابو حميدة لا يفصح . ربما الوحيد الذى يتعاطف معى هو الباشا . لم يدع ابوته لمحمد نجيب طوال تلك السنوات بينما الشاب يغرى بالتبنى خاصة فى نهاية العمر .

رباه بصفته ابنا لزوجته من رجل آخر ، والمصيبة هى اننى ذلك الآخر

لكننى لم اكن زوجا شرعيا لزهية فى يوم ما .

أين الأساسى من الثانوى فى هذه المسألة ؟ قلت لنفسى فى لهجة خطابية مبتذلة : هذه هى القضية .

وقلت مقلدا عباس ابوحميدة :

ـ ربنا يجعل العواقب سليمة .

(٦)

يوم الأميرة جويدان ثقيل ، دقائقه طويلة ، وثوانيه متوقفة عن الجرى ، واذا كان الزمن السائر الى أمام يقاس بالثوانى والدقائق فحاضر الأميرة ساعاته مضطربة غير مضبوطة واللحظة الراهنة لها ثقل غير مرئى عليها .

الوقت هو المقصلة التى تضع الأميرة رقبتها تحت نصلها مع الشهيق والزفير ، وقد تحايلت الأميرة على نهارها وقسمته لتقصف عمر ذلك السكون الممطوط ، قائلة :

ـ فى الساعة السابعة والنصف ، الافطار ، فى الساعة الثانية عشرة والنصف الغداء ، فى الساعة السابعة مساء العشاء .

وبعدها تستعد الأميرة لاستقبال ساعات الليل الطويلة والاندماج فى كوابيسها ، وهى تردد لنفسها : حياتى ورائى ، فى الزمن الذى ضاع منى وانفلت الى رحم الماضى .

العزلة هى نصيبها ، والعزلة إحساس داخلى ، فالقصر به خدم وحشم ووصيفات ، لكنها تنأى بنفسها عن الكلام ، واذا جاء لها الكلام ، نأت بنفسها عن السمع .

لم يعد لها سوى ابنتها ابسنت وهى مشغولة دوما عنها بمدرستها نهارا وبواجبات يومها عند عودتها ، وكذلك قريبتها الأميرة جلبهار ، وهى مشغولة بعملها فى الأمم المتحدة كمترجمة فورية . أما كرامة زوجها فقد رمت طوبته منذ سنوات .

الأحاديث السريعة العابرة مع ابسنت أو قريبتها جلبهار تمدها بطاقة روحية لمقاومة تكاسل زمنها عن الدوران . التليفون هو الشريان الذى يجعل

قلبها ينبض . عيناها عليه ، تنتظر دقاته ، ترقبه بأذنيها ، تنتظر رنينه ، واذا صمت ، حنت اليه ، وداعبت ارقامه بأصابع مضطربة ، حتى اصبحت لها مكالمة يومية ، مع جلبهار ، فى فترة راحتها من العمل .

أمس طلبت الأميرة جلبهار ، واشتكت لها من كرامة ، قالت لها :
ـ كرامة تغير كثيرا ، تخلى عن دبلوماسيته ورجع الى أصله .

فأجابتها الأميرة جلبهار على الفور ، ساخرة منها :
ـ هذا أفضل ياسمو الأميرة .

طلبت منها فى غضب ان تكف عن عبثها وتقدر مشاعرها ، بكت ، قالت :
ـ لم يعد أمامى سوى الطلاق . من حسن الحظ العصمة فى يدى .

الأميرة جويدان تدرك انها تثقل على قريبتها بمشاكلها اليومية ، وفى كل صباح تعقد العزم على الكف عن مضايقتها ، لكنها تظل فى انتظار مكالمة فاذا طال انتظارها ، اسرعت الى التليفون وأدارت القرص .

اليوم ، رن التليفون ، وكانت قريبتها على الخط ، فاعفتها من القلق النفسى ، حيث عادة ما تطلبها وتندم بعد ذلك على تسرعها واعمالها الطائشة . قالت جلبهار :
ـ جويدان . ما رأيك نلتقى على الغداء اليوم ؟

رحبت الأميرة على الفور بهذه الدعوة ، وأكملت جلبهار ، قائلة :
ـ فى الساعة الواحدة والنصف ، سوف احجز مائدة فى صالة فندق كوت دى آزور ، فى الناحية الأخرى من المدينة ، ما رأيك ؟

قالت الأميرة جويدان :
ـ موافقـة .

واختتمت جلبهار المكالمة ، قائلة :
ـ الى اللقاء .

الأميرة جلبهار دائما فى عجلة ، نهارها تقضيه فى العمل ، وبعض

لياليها فى واجبات اجتماعية وسهرات ، شغلت نفسها ، وصنعت لنفسها اسما فى عالم الترجمة ، تعمل من أجل العمل ، ففى مقدورها العيش مثل بقية الأميرات اللاتى خرجن من التاريخ ، وانغمسن فى حياة اللهو والمتعة ، لكنها عملت بنصيحة والدى لها قبل وفاته ، قال لها :

ـ ياسمو الأميرة ، العمل قبل الزواج .

اجابته ، قائلة :

ـ سوف اعمل مترجمة فورية ، واذا فشلت سوف اعمل كمصممة أزياء .

وبعدها ضحكت ضحكة خليعة ، قائلة :

ـ واذا فشلت كمصممة أزياء ، عملت كموديل ، فأنا جميلة ، وربما كممثلة سينما .

كان والدى قد وقع فى غرامها وشاعت قصة غرامه بها بين الأميرات والعائلة المالكة ، ولما قامت حركة الجيش ، كان والدى مخمورا فى قصرها ، وتوجها معا الى قيادة الجيش ، فقبض عليهما ، واكتملت الفضيحة .

ولما أصيب والدى بالشلل كنت أدعوها الى القصر من وراء أمى ، وكانت رؤيته لها تسعده ، وفى آخر زيارة لنا ، نصحها والدى بالعمل ، وقضى سعيدا ، قبل مغادرتها العزبة .

عرف والدى أن ساعته قد قربت ، فألح عليها بالذهاب ، لم يرض لها ان تشهده فى لحظاته الأخيرة من حياته ، وهى من جانبها أحست بقرب فراقه ، فبكت عند خروجها ، وعجزت عن قيادة سيارتها .

كنت بمفردى فى القصر ، فارسلت الى الطبيب ، وأرسلت من لحق بها على الطريق ، وعادت لى ، وهى تقول :

ـ كنت أعرف أن هذا آخر لقاء لنا .

وتحولت كراهيتى لها مع الأيام الى ود شديد ، ففى البداية ، فور عودتها من باريس عام ١٩٤٩ ، وتعلق والدى بها ، كنت أعاملها باحتقار شديد ،

وأرى فيها فتاة طائشة لعوبا ، هوايتها خطف الرجال ، وبعد وفاة والدى أشفقت عليها ، ووقفت هى بجانبى قدر طاقتها ، ولما حللت بجنيف لم يعد لى سواها .

أيام غنية ذهبت الى رحم الماضى ، ولم يتبق لنا سوى لحظات هذا الحاضر الثقيلة ، فى انتظار ذهاب حاضرنا ليلحق بماضينا .

جلست الأميرة جويدان فى البهو ، تحصى الساعات ، حتى يحين وقت ذهابها للقاء قريبتها ، ليست بها رغبة فى شىء ، سوى الجلوس الى قريبتها وتذكر الماضى .

رفضت فى الشهر الماضى وظيفة تتناسب مع دراستها ، وأخذت فى غيظ تقدر خسائرها المالية من جراء الصفقات الفاشلة التى قامت بها فى السنوات الأخيرة ، واعترفت بينها وبين نفسها ، أن كرامة لم ينتقدها أو يعاتبها ، على تلك الخسائر ، لكنه ترك لها حرية واسعة ، فى تعلم أصول التجارة ، وان كان من وقت الى آخر ينصحها بضرورة طلب مشورة عمها حمدى بك ، فهو من كبار رجال الأعمال .

ضحك عليها لصوص الانفتاح فى مصر . الخسائر المادية محتملة أما احساسها بالفشل وخروجها من المولد على هذا النحو فيقتلها قتلا . الروح فيها ماتت ، أو تحجرت ، وتحس بروحها فوق البطن .

كل شىء حولها فى ثبات وسكون ، فارقتها الرغبة ، واستسلمت لثقل الفراغ ، ولأن ثقل الفراغ من ثقل الكون ، أضحت عاجزة عن التمنى .

أمامها ساعتان قبل الخروج ، وأخذت تقدر الأعباء التى تنتظرها ، فوضع بنسة فى شعرها ، يرهقها ، وعليها أن تغير ملابسها ، وتضع زينتها ، وتختار زيا يناسبها ، و"تلم" شعرها فى كعكة ، وترتدى جوربا ، وحذاء ، وتضع على كتفيها البالطو ، ونظارة على عينيها لتخفى دموعها ، ومضت تقدر الأهوال التى تنتظرها بسبب تلك الأعمال الصغيرة ، المتتالية والمترابطة ، وتمنت ان تضع "الروب" عليها وتخرج .

صاحت ، طلبت من الوصيفة ، البحث عن مفتاح السيارة ، ولما اطمأنت الى وجوده ، نظرت اليها فى توسل ان تعاونها فى تبديل ملابسها وان تسعفها بالأشياء الصغيرة ، كأن تفك لها أزرار الفستان ، وتشد لها كم البلوزة ، وتضع الروج لها على شفتيها ، وتفتح لها زجاجة العطر ، وتعد لها حقيبة اليد المناسبة ـ تفتحها وتفرغها أمامها ـ ثم تضع فيها حاجياتها الصغيرة ، عدة مناديل ، اصبع الروج ، علبة البودرة ، اوراق السيارة ، حافظة نقود بها عملات متنوعة معدنية واوراق مالية متعددة القيمة ، وكروت السحب الآلى من البنوك ، دفتر الشيكات ، سألت الأميرة جويدان الوصيفة :

ـ ماذا ينقصنى ؟

اجابت الوصيفة :

ـ لا شىء ياسمو الأميرة .

نظرت اليها غاضبة ، وهى تجهد ذاكرتها لتتذكر شيئا ما ينقصها ويقلقها غيابه عن متناول يدها ، وبعدها ، قالت :

ـ الدواء .

قالت الوصيفة :

ـ لا داعى له .

نظرت اليها الأميرة غاضبة ، وقد اربكت هذه النظرة الوصيفة ، لكنها لم ترشدها عن الدواء المطلوب ، ففوق "الكومودينو" عشرات الأدوية ، ودخلت الوصيفة غرفة نوم الأميرة وخرجت منها وعادت اليها وفتحت الأدراج وقفلتها ولم تحضر الدواء المطلوب .

هدأت الأميرة جويدان قليلا ، وقد شغلت بزينتها ، لكنها فجأة تذكرت حقيبتها والدواء ، فسألت الوصيفة عنه .

قالت الوصيفة :

ـ أيهما ياسمو الأميرة ؟

أجابتها الأميرة ، قائلة :

- خارجة داخلة و ...

صمتت جويدان ولم تكمل جملتها ، فقد تبينت أنها تحدثت الى الوصيفة كما يتحدث إليها كرامة عندما يلومها على ترددها ، وتناولت الدواء ووضعته فى حقيبتها وقد ازداد ثقل الحجر الذى يشد روحها الى أسفل .

هل تثقل على قريبتها بمشاغلها ،.وأصابتها نوبة قنوط قبل خروجها حتى تمنت البقاء فى القصر بمفردها ؟

(٧)

عندما تتراكم السحب الباردة وتدفعها الرياح بقوة ، لا مفر من وقوع الواقعة : صدام . زمجرة . رعد . برق . وأخيرا هطول المطر .

ربما يسقط المطر فوق هذا الحى أو ذاك ، لكن الرعد والبرق يأتيان عن بعد ، يفرشان الكون ، وتلمح العين خطوط البرق المتلألئة ثم تلحق بها الأذن فى التقاط دقات طبول السماء ، ذلك الطنين الكونى الأجوف : الرعد .

كان كرامة ـ منذ مصرع الرئيس السادات ـ يعرف ان تلك اللحظة قادمة لا محالة ، ولا يهم اذا وقعت الواقعة فى جنيف أو فى القاهرة فالمكان ليس مهما بالنسبة اليه قدر الزمان .

هاهى ذى قد وقعت فى اللحظة الآنية غير المواتية .

فى كلمات طيبة للغاية ، دعاه محمود بك القرشى وكيل الوزارة للمرور عليه فى الفندق ، قال له :
ـ على كل حال أنت تتردد على الفندق كل ليلة تقريبا بسبب وجود أستاذنا الدكتور أحمد السيد باشا .

أجاب كرامة على الفور :
ـ فى أى وقت تطلبنى ياافندم . أحضر .

أجاب محمود بك القرشى فى لهجة أبوية ، قال :
ـ أنا لن أغادر الفندق بعد الظهر ، مر علىّ فى الخامسة ، وبعدها نتوجه الى الدكتور السيد باشا .

قال كرامة :

ـ حاضـر .

في الساعة الخامسة بعد الظهر ، كان كرامة سرحان في بهو الفندق يتصل بمحمود بك القرشي ، قال له :
ـ انتظرني في الكافيتريا . اختر مائدة هادئة . سوف انزل بعد عشر دقائق .

حدثه في لهجة حاسمة كوكيل للوزارة ، هذه المرة ، وفهم كرامة الرسالة . ألقى نظرة فاحصة على البهو ، والمطعم ، والبار ، ثم توجه الى الكافيتريا . اختار آخر مائدة ، وجلس معطيا ظهره للداخلين ، وترك الكرسي المقابل لمحمود بك القرشي ، فهو وجه غير معروف في جنيف ، وقال كرامة لنفسه : سوف يلمحني محمود القرشي ، من ظهري الضخم العريض ، ويتقدم نحو المائدة .

في البداية سأل محمود بك القرشي كرامة عن أحواله ، وانتقل بعدها الى السؤال عن زوجته الأميرة جويدان ، قال :
ـ هل ترتبط المدام بعمل ما أو دراسة اكاديمية في جنيف ؟

نفى كرامة ذلك ولكنه أشار الى انها تعاني من متاعب صحية وتحت اشراف طبي .

سأل محمود بك القرشي عن ابنته ونوعية دراستها ، أجاب كرامة ، قال :
ـ تتابع دراستها باللغتين الفرنسية والانجليزية وتستعد لدخول الجامعة وتنوي التخصص في اللغات السلافية والصربية الى جانب التركية .

قال محمود بك القرشي كلمة طيبة في هذا التخصص ، وأضاف :
ـ شبه جزيرة البلقان برميل بارود في وسط أوربا وهذا تخصص نادر في مصر .

هذه الأسئلة تكشف عن نية في نقل كرامة من جنيف الى موقع آخر قبل حركة التنقلات السنوية في آخر الصيف ، ولم يكن ذلك غائبا عن فطنته .

ولم يسأل كرامة شيئا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، كأن الأمر لا يتعلق به .

انتهيا من القهوة ، قال محمود بك القرشى :
- سعادة السفير الريدى امتدحك كثيرا واثنى على جهدك فى العمل ، وأنا ارجو أن تكون قد اكتسبت خبرة منه ، فهو من رجال الخارجية المرموقين وأصحاب المبادىء .

وصلتنى الرسالة ، فحديثه عن السفير الريدى على هذا النحو يعنى أن مسألة نقلى من جنيف قد تقررت ، والتنفيذ خلال أيام ، قلت :
- أنا تحت الأمر ياأفندم .

استمعت اليه وكأنه يحدثنى عن رجل غريب ، أعرفه ، ولا يهمنى أمره ، فأنا كرامة سرحان السقا ممزق بين ابنى وأمه زهية هانم من ناحية وبين زوجتى الأميرة جويدان وابنتى ابسنت من ناحية أخرى .

المرأتان اللتان تربطنى صلة بهما مريضتان ، إحداهما راقدة فى البيت كخيال المآتة ، والأخرى راقدة فى المستشفى . ابنى محمد نجيب ينادينى قائلا : ياسعادة المستشار . والرجل الذى تزوج زهية وربى ابنى يعاملنى فى رفق يخجلنى من نفسى ، ويسد أمامى كل طريق .

قطع محمود بك القرشى الصمت ، قال :
- ياسعادة المستشار أمامك موقعان . نيودلهى ، وهناك سفيرنا الدكتور نبيل العربى وهو كفاءة متميزة ، وأنت لاشك تعرف ظروف نقله بسبب تحامل الرئيس السادات عليه فى نوبة غضب ، أما الموقع الآخر فهو بنين ، والحركة سوف تصدر خلال أسبوع .

قال كرامة لنفسه :
- الهند أو بنين ، كل المواضع متساوية ، ولا مكان أفضل من مكان فى هذا العالم ، فهل أسعدتنى جنيف ؟

ولم يكن كرامة فى يوم من الأيام مقامرا بسبب خوف متأصل فى نفسه ، بل مترددا ويحسب مواقع خطواته ، فأجاب بطريقة تلقائية :

- شكرا ياأفندم . سوف أفكر وأخطر سيادتكم .

من جلسة محمود بك القرشي ادرك كرامة ان الرجل فى جعبته المزيد الذى لم يكشف عنه بعد ، فاشعل سيجارا ، وطلب قهوة لهما ، وترك مشاغله الخاصة ، ومسألة نقله على هذا النحو الفريد فى حركة تنقلات استثنائية ، والتفت الى محدثه ، منتظرا أوامره ، وفى لحظة خاطفة ، خلت فيها الموائد القريبة منهما ، قال محمود بك القرشي همسا :

- وصلت برقية عاجلة تخص الدكتور السيد باشا ، وقد اخبرنى السفير أنك ترافقه .

قال كرامة على الفور :

- سوف ادبر لقاء معه خلال ساعة أو بعض الساعة .

اكمل محمود بك القرشي محذرا :

- اسمع ياكرامة . هذه البرقية سرية للغاية ، ولا تحادثه بشأنها فى التليفون . العيون الإسرائيلية تحيط بى منذ قدومى الى جنيف .

قال كرامة :

- مفهوم ياأفندم .

محمود بك القرشي يطلعنى على مسألة نقلى ويكلفنى بالأعباء ولا يترك لى فرصة للتفكير أو الاختيار . لم يقل لى تحدث مع زوجتك . دبر حالك .

هذا جيل كلماته كحد السيف .

صوت فى داخلى يرفض النقل ويزين لى الاستقالة ، فى نيتى ان اربط مصيرى بمصير ابنى محمد نجيب ، اذا بقى فى القاهرة بقيت الى جواره ، واذا سافر الى الخارج سافرت معه .

مسكينة زوجتى ، كيف تتلقى نبأ مغادرتنا جنيف ، الى نيودلهى أو بنين !!

أعود اليها الليلة لأقول لها ، نيودلهى أم بنين ؟

لا أدرى لماذا داعبنى فى هذه اللحظة الجادة ، المثل الشعبى القائل :

ـ "ياما جاب الغراب لأمه" .

اذا لطمت الأميرة خديها ، وسودت شعرها بالنيلة ، وقالت :

ـ طلقنى .

عذرتها . تفهمت دوافعها . فقد تلطمت معى .

الهند تناسبنى ، بل ربما هى أقرب البلدان الى قلبى ، فهناك يكتمل هروبى ، واذا كانت الأحداث قد شدتنى الى بؤرتها ، وكانت التعليمات تصدر لى فى السابق من الرئيس السادات أو معاونيه مباشرة ، فقد جرى ذلك كله بالمصادفة ، ورغماً عن طبيعتى .

كل غريب راحل ياكرامة .

وأحس كرامة ان حديث محمود بك القرشى اليه قد فرغ ، فاستعد للقيام .

رتب كرامة لقاء محمود بك القرشى بالدكتور أحمد السيد باشا بعدها ، وفقا لتعليمات البك وكيل الوزارة ، وتركهما ، وانصرف الى حاله .

(٨)

يبدو ان لقاءات وكيل الوزارة محمود بك القرشي بالدكتور أحمد السيد باشا قد تكررت من ورائي بسبب تلك البرقية العاجلة التي لم يكشف عن مضمونها امامي أو يشر اليها مرة أخرى .

وكان سعادة السفير عبدالرءوف الريدى قد كلفني بمهمة الاتصال بالدكتور جورج ابى صعب في نيويورك واخطاره بالعودة فورا الى القاهرة عن طريق سفيرنا لدى الأمم المتحدة السيد عمرو موسى .

وقد نجحت في الاتصال بالدكتور جورج ابى صعب لحظة دخوله الفندق واخبرته بالرسالة ، قال :

- أنا قادم من المطار الآن ، لم افتح حقائبي أو استرح .

قلت سعادة ، السفير عمرو موسى سوف يوفر وسيلة السفر الى القاهرة سواء عن طريق جنيف أو اية عاصمة أوربية .

سألني عن سبب هذه العجلة ، قلت :

- لا أعرف ، لكن الاستدعاء بناء على طلب وزير الدولة الدكتور بطرس غالي .

قال :

- غريبة .

تمنيت له رحلة طيبة في العودة الى القاهرة ، قال :

- أنا في حاجة الى ساعتين ، ابدل ملابسي ، وآخذ حماما ، وسوف انتظر في غرفتي حتى يتصل بي سعادة السفير عمرو موسى .

الدكتور جورج ابى صعب رجل سمح ، رأيته مرة واحدة في جنيف ،

وهو من كبار العاملين فى مجال القانون الدولى بحكم استاذيته فى معهد الدراسات الدولية العليا فى جامعة جنيف .

وكما قال الدكتور جورج ابى صعب على التليفون معى : غريبة ، قلت أنا لنفسى ايضا غريبة ، فوكيل الوزارة محمود بك القرشى يتصل بالدكتور أحمد السيد باشا ويأتى الى جنيف خصيصا لمقابلته ، وهو استاذ اساتذة القانون الدولى فى مصر ، ووزير الخارجية يستدعى الدكتور جورج ابى صعب على هذا النحو المفاجىء الى القاهرة ، وهو استاذ قانون دولى ، فماذا جرى فى القاهرة ؟

لم امحص فى الأمر ولم ادقق ، فقد قمت بعملى مثل ساعى البريد ، ولم اسأل سعادة السفير عبدالرءوف الريدى ، كما اننى لم اتعمد الربط بين الأمور ، واكتفيت بما قمت به ، وارحت ضميرى .

السؤال الذى يشغلنى منذ يومين ، هو الهند أم بنين ؟ لكننى كنت قد وقعت فريسة لمجموعة اخرى من الأسئلة اشد غموضا وحساسية ، واذا كان يتعين علىّ اجابة محمود بك القرشى فى بحر عدة ايام حول العاصمة التى انقل اليها فان بقية الأسئلة علىّ الإجابة عليها بينى وبين نفسى وبعضها عاجل وبعضها يمكن تأجيله ايضا .

حدثتنى زوجتى أمس الأول عن الإسكندرية وفتحت معى قضية قصر اللواء عويس والدها فى عزبة عويس وضرورة استرداده من براثن وزارة التربية هو والأراضى الملحقة به وفقا للقوانين التى اصدرها الرئيس الراحل أنور السادات وافاضت فى موضوع القضية .

استمعت اليها مصغيا ومن حين الى آخر كنت استوضحها شيئا لكننى لم ادخل معها فى مناقشة حادة أو غير حادة وقد ابتعدت عن الأقوال القاطعة أو الوعود وقد لجأت الى كلمات مثل : "طيب . وجب برضه . حاضر .

سألتنى فجأة عن شاعر الإسكندرية اليونانى كفافيس ، نصحتها بالحصول على دواوينه من مكتبة جنيف ، قالت :

- طيب .

أخفيت عنها موضوع نقلى العاجل ، تركت هذا السؤال معلقا ، بينى وبين نفسى ، فأمامى مجموعة اخرى من الأسئلة تتعلق بزهية وابنى محمد نجيب ، وقد بدأت تلح على فكرة الاستقالة من العمل ، والتفرغ لابنى .

الى جانب عملى فى البعثة ومتابعة الأمور العاجلة كنت اتابع دورة المفاوضات حول مدونة نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة الى الدول النامية .

كان الوزير المفوض شكرى فؤاد يتابع هذه المفاوضات فى عمق ويزودنى بنصائحه ويراجع معى التقارير والبرقيات العاجلة التى نزود وزارة الخارجية بها .

كنت أحس بعبث المناقشات وانها تدور دون طائل فقد كانت مقاومة الدولة الصناعية المتقدمة شديدة الى درجة ان ساعات طويلة قد امضيت فى جدل عنيف وحاد حول الفاصلة والنقطة ومراجعة حروف الجر فى الفصل الأول من مشروع المدونة .

من الواضح لى منذ البداية ان الدول الصناعية ترفض المدونة ولكنها امام اصرار الدول النامية ودعم دول الكتلة الاشتراكية لها تراجعت عن الرفض المباشر الفج ولجأت الى دفن القضية بإثارة اعتراضات اجرائية وشكلية .

قلت لنفسى ساخطا :
ـ هذا عبث ومضيعة للوقت .

مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية من منجزات الرئيس الراحل جمال عبدالناصر وقد انشأ هذا المؤتمر بعد خطاب الرئيس عبدالناصر فى الجمعية العامة سنة ١٩٦٤ وترأسه الاقتصادى البارز المصرى الدكتور عبدالمنعم القيسونى فى أول انعقاد له تقديراً لدور مصر وهاهى ذى مرت السنون وأضحت الولايات المتحدة الأمريكية تهدد بالمطالبة بنقل المؤتمر من جنيف الى فيينا وتهدد ميزانيته وتقليل اجتماعاته وتوفير نفقات الترجمة وطباعة الدراسات وطرد الباحثين والخبراء وذلك بدعوى انه لم يحقق زيادة فى تجارة الدول النامية ولم يحقق لها التنمية .

انتهت الجلسة قبل الأخيرة ، فاسرعت الى التليفون ، وقلت للوزير المفوض شكرى فؤاد :

ـ المواقف ثابتة والجمود يحيط بالمباحثات .

استمع لى ، قال :

ـ طيب . فى انتظار التقرير .

عرجت على الكافيتريا القريبة من التليفون التى يطلق عليها "السربنت" وتوجهت على الفور الى البار وتناولت قهوتى وقد عبرت القاعة الواسعة على عجل واتخذت ركنا لى بعيدا عن الزحام وعلى مقربة من الجدار الزجاجى الذى يطل على الحديقة الواسعة .

كان الجو غائما والشمس غائبة وقبعت فى جلستى ولم تكن بى رغبة فى تبادل الحديث مع أحد فتوجهت بناظرى الى الحديقة بعيدا عن حشود الدبلوماسيين فى الكافيتريا .

يوم بارد ، وتلك الإضاءة الكونية الخافتة التى تلف كل شىء ثقيلة الوطء وتثير فىّ احساسا بالسكون يدفعنى لترك الأمور حتى تجرفنى فى طريقها واغرق .

ارسلت فى الأيام الماضية باقتى زهور الى زهية متمنيا لها سرعة الشفاء باسم زوجتى وابنتى وأنا . كنت اود مخابرتها تليفونيا لكن شجاعتى لم تسعفنى . امسكت بالسماعة وادرت قرص التليفون لكننى توقفت قبل الرقم الأخير ووضعت السماعة .

اخبرنى الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :

ـ الجراحة نجحت لكن حالتها النفسية ليست على مايرام .

استمعت اليه ودورت كلامه فى رأسى وصمت .

شيئان فى حياتى جاهدت فى سبيلهما حتى النهاية ، وهما : الدراسة وزواجى من الأميرة جويدان ، اما بقية امور حياتى فكنت اتركها للمصادفة أو اتوقف قبل إدارة الرقم الأخير ، حتى عملى بالخارجية جاء بالمصادفة البحتة ، ولم تكن لى واسطة أو معارف ، اجتزت مجموعة من الامتحانات فتغير مصير حياتى .

رأيته هناك واقفا وجهاز التسجيل فى يده يتلفت يسارا ويمينا ، قصير القامة زائغ العينين ، هذه وقفته المفضلة ، وابتسمت ، من يراه يظن انه فى عجلة من امره ، لكنه يقف ويدير اشياء كثيرة فى رأسه ، وكأنه يكتب مقالاته واقفا .

حديثه موجز ويعجبنى فيه عدم الإلحاح فى الأسئلة وكأنه ليس صحافيا . لا يتابع أو يكتب الا ما يروقه من احداث ومدونة نقل التكنولوجيا من اهتماماته ومن حسن حظى انه يقصر اتصالاته بشأنها على السفير الريدى .

اذا قدم نحوى ، سوف أقوم ، مشاغلى لا تسمح لى بالحديث أو الثرثرة ، هذه ايام حرجة والتصريحات الصحافية مغبتها قاسية ، والصمت أفضل من الكلام .

نحيت وجهى بعيدا وانشغلت بالنظر الى الحديقة وقد سكن الهواء وبقت الأغصان العارية واقفة وكأنها محروقة بفعل البرودة الشديدة .

اسئلة متلاحقة فى رأسى ، ورغبة قوية تدفعنى للارتباط بابنى محمد نجيب ، لكننى أخاف الفضيحة .

قالت لى ابسنت فور عودتها والسرور على وجهها جملة واحدة ادارت رأسى ، قالت فى براءة :

- دادى . محمد نجيب يشبهك تماما .

قفزت من جلستى ، سألتها :

- كيـف ؟

دخلت الى غرفتها ، وجاءنى صوتها ، قالت :

- لا أعـرف ؟!

ناديتها ، قالت :

- ابدل ملابسى .

بعد فترة خرجت الىّ فى منامتها ، قبلتنى ، قالت :

- تصبح على خير يادادى .

امسكت بيدها ، سألتها :

- كيف يشبهنى محمد نجيب ؟

قالت ابنتى :

- طريقة كلامه ونظراته وسرحانه ، تشبهك تماما يادادى . عيناه وجانب وجهه عندما يدير رأسه هى أنت .

وبعدها سألتنى ، قالت :

- ماهى الحكاية يادادى بالضبط ؟ هل هو قريبنا ؟

قلت لها :

- نعـم .

وتوجهت الى غرفتى .

كلما تأملت قول ابنتى ، "محمد نجيب يشبهك تماما" ، سارت فى عروقى دماء جديدة ، دماء حمراء فيها سخونة ، فيها دفء ، رفعت يدى وتأملت اصابعى ، وجدتها كما هى ، يد سمينة ، متبلدة .

ابنتى بفطرتها كشفت سرى ، وربما اذا التقت زوجتى جويدان بزهية أو محمد نجيب مرة واحدة ، لاطلعت على عذاباتى ، وقالت لى هذه المرأة كانت عشيقتك ، وهذا ابنك منها .

هذه هى ايامى الأخيرة فى جنيف ، وعلى الرحيل الى بنين أو الهند وهناك سوف ابتعد بجسدى وروحى عن هذه الهموم اما زوجتى فتود العودة الى الإسكندرية .

أحسست بحلقات تضيق حول عنقى حلقة وراء حلقة فاذا هربت من اسار واحدة ضاقت اخرى وكادت تخنقنى ، اذا صارحت زهية برغبتى فى اعلان ابوتى لمحمد نجيب فكيف اسافر الى الهند ولمن اتركه ، وهل من العدل تحطيم قلب الدكتور أحمد السيد باشا وهو فى نهاية العمر !!

اذا استقلت من العمل وعدت الى القاهرة فهل اذهب الى عزبة عويس واتفرغ للزراعة التى لم اتقنها يوما وقد نشأت فى العزبة بصفتى "افنديا"

ولم تكن لدينا اطيان فى حاجة الى رعاية . اللواء عويس رحمه الله كان فلاحا حقيقيا وقد شغلته الأرض وملأت حياته وافنى عمره فيها حتى ساعاته الأخيرة وبعد توزيعها على المعدمين . اما أنا فكاليد النجسة البطالة التى لم ترو شجرة ولم تقلم غصنا .

هـــه .

المسألة اكثر تعقيدا ، ففى استقالتى ربما طلاقى ، وخروجى من المولد بلا حمص ، اللهم كما خلقتنى .

هاهى ذى الحسابات تطل برأسها لتغطى علىّ المشاعر ، فأنا فقير ، أما زوجتى فهى ، ثرية ، وابنتى ، وخفق قلبى . فى طلاقى خسارتى لابنتى كما خسرت من قبل ابنى ، فماذا يتبقى لى فى حياتى ؟!!

رأيت الأميرة جلبهار فى نهاية القاعة تتحدث الى كارين المتحدثة باسم الأونكتاد ، تقفان ، فيهما شبه كبير وكأنهما أختان على الرغم من فارق العمر الكبير بينهما ، فكارين ، شابة ، صغيرة السن ، وجلبهار تستعد للخروج إلى المعاش .

شقراوان ، ملاحتهما آسرة فى عدوانيتها ، فجمالهما صريح ، وفتنتهما تكشف عن نفسها ، تتحدثان ، وتضحكان همسا ، والعيون ترقبهما فى فضول .

الأميرة جلبهار ترى شبابها فى كارين ، وتقول عنها :
- ابنتـى .

كسبت الأميرة حياتها بخروجها الى العمل فى المحافل الدولية . لم تلجأ الى حياة الأمراء الفارغة ولم تعتمد على ثروتها ولم تربط نفسها برجل .

عاشت حرة ، وهذا سر شبابها المتجدد وتلك الحيوية فى جسدها الفائر وقوامها المفرود .

اقترب منهما ذلك الصحفى القصير ، انحنت كارين انحناءة كبيرة لتقبله فى خده بسبب قصر قامته وطول قامتها الفارع ، ضحكت فى سرى ، أما

الأميرة جلبهار فرحبت به ووضعت يدها على كتفه ، وانسحبت ، تركتهما ، وقدمت نحوى .

لوحت لها بيدى وقمت لأحضر لها القهوة ، هى دائما فى عجلة ، راحتها نصف ساعة فقط ، تقضيها فى شرب عدة فناجين قهوة ، جلست الى مائدتى ، وعدت اليها والقهوة فى يدى ، قالت :

ـ شكرا سعادة المستشار .

انشغلت عنى بقهوتها وقد أخذت ترشفها فى صمت ، وكأنها قد تعبت من الكلام فى الكابينة الى حد الموت . بعدها أخذت نفسا عميقا ، وحركت كتفيها ومدت صدرها البارز الى الأمام واعتدلت فى جلستها ، قالت :

ـ كيف حالك يابن البلد ؟

قلت لها ضاحكا :

ـ لا يسـر .

اجابتنى ، قالت :

ـ أعـرف .

هاهى ذى تدخل فى الموضوع مباشرة دون لف أو دوران ، وما اعتبره سرا حتى الآن سوف تتناقله الألسن بعد ايام ، قالت :

ـ غريب أمركم ايها الرجال ، الواحد منكم يهمل زوجته طويلا ، حتى تطالبه بالطلاق فيحزن .

التفت اليها مصغيا ، انها تحدثنى عن طلاق ، وتتهمنى بإهمال زوجتى جويدان ، سألتها ، قلت :

ـ هل هذه رغبة الأميرة جويدان ؟

قالت لى محذرة :

ـ لا تنس ان العصمة فى يدها .

وصلتنى الرسالة ، زوجتى لن تطلب الطلاق ، ولكنها ، سوف تطلقنى فى صمت وهدوء ، لن تكون بيننا مناقشات ، وابنتى ، ما مصيرها ؟

هببت واقفا ، قمت ، لكننى لم أعرف لى وجهة اذهب اليها ، فجلست ثانية .

قالـت لـى :

ـ اهـدأ .

وبعدها ضحكت ، وقد غاظنى ضحكها ، وأحسست بتعاسة ، سألتها غاضبا ، قلت :

ـ ماذا يضحك فى الأمر ياجلبهار ؟

اجابتنى ، قالت :

ـ ما يضحكنى لن يضحكك ، هاأنذا قد صمت . هل يعجبك صمتى ؟

كنت اودها أن تحدثنى عما تعرف ، ان تنصحنى ، ان تقول لى شيئا يريحنى ، سألتها ، قلت :

ـ ماذا افعل ؟

قالت لى على الفور :

ـ خذ زوجتك وارحل عن جنيف ، بلاد الله واسعة ، على شريطة ألا تتركها تعيش فى الإسكندرية بمفردها ، هذه هى اللعنة .

أجبتها ، قلت :

ـ مسألة نقلى أصبحت واردة ، ما رأيك فى الهند ؟

ضحكت ، قالت :

ـ سوف تنغمس جويدان فى اليوجا هناك وينصلح حالها .

حذرتنى الأميرة جلبهار قريبة زوجتى من العودة الى الإسكندرية بطريقة غامضة اثارت ريبتى ، وتذكرت على الفور ان جويدان سألتنى أول أمس عن اشعار كفافيس وقالت انها تود الإقامة فى الإسكندرية وسوف تجد سعادتها فى جوها الدافىء المعتدل .

قلت لنفسى : نزوة جديدة من نزواتها .

شتاء هذا العام صقيع أوربى مبكر وزوجتى فى حاجة الى دفء غير ان

جو الهند مشبع برطوبة قاتلة تزيد من حالة الاختناق التى تدهمها من وقت الى آخر .

سألتنى الأميرة جلبهار قالت :
ـ لماذا لا تستقيل ياسعادة المستشار وتتفرغ للأعمال الخاصة ؟

ضحكت ، قلت :
ـ الدبلوماسيون يستقيلون للعمل بالمحاماة اما أنا فتخصصى اللغة الإنجليزية التى تؤهلنى للتدريس .

قالت :
ـ الأعمال التجارية ، الأميرة جويدان لها ولع شديد بالتجارة .

ضحكت ، قلت :
ـ لتخسر بقية نقودها ؟!!

قالت فى جدية شديدة :
ـ كلا . سوف تضاعفها وتشغل وقتها . هى فى حاجة الى عمل .
قلت :
ـ معك حق يا جلبهار .

سألتنى ، قالت :
ـ ماهى حكاية الهند ، ولماذا الهند ؟

قلت :
ـ هذا تخمين منى .

فى دقائق قليلة وقبل ان تنتهى من فنجان قهوتها صارحتها بأسرارى ، وتضايقت من اندفاعى في الحديث معها ، فقمت لأحضر لها فنجانا آخر من القهوة .

سرت فى بطء وكأننى احمل اثقالا على كتفى وقد بدت تظهر فى مخيلتى ثلاث نقاط منفصلة : جنيف . عزبة عويس . نيودلهى . هذه ليست مواقع معيشة لى ، ليست سقفا ابيت تحته فى الليل وعملا ارتزق منه ولكنها مسارات حياة ، مسارات حياتى أنا . اذا بقيت فى جنيف على ان اقدم

استقالتى من العمل لأبقى الى جوار ابنتى وزوجتى ، واذا عدت الى عزبة عويس على الاستقالة والانشغال بأعمال جويدان التجارية الفاشلة وان اتابع تسرب اموالنا واطياننا قطعة قطعة لكننى سوف اكون الى جوار ابنى محمد نجيب وأمه زهية هانم الصفتى اما اذا سافرت الى الهند كسبت حياتى وربما زوجتى وخسرت ابنى .

اختيارات كلها ملعونة .

عدت بالقهوة ، وضعتها أمامها ، سألتها ، قلت :

ـ ما رأيك ياجلبهار ؟

ضحكت ، واعتدلت فى جلستها وانحسر الثوب عن ساقيها ، قالت :

ـ كف ياسعادة المستشار عن الحديث الى نفسك ، افتح قلبك للآخرين ، فضفض ياحبيبى .

ضبطتنـى .

تحدثت الى نفسى ثم طلبت رأيها ، ما أغبانى !! وما أثقلنى أيضا . قلت :

ـ ما رأيك فى مسألة الطلاق ؟

سوت الفستان على ساقيها ، قالت :

ـ جويدان تمر بأزمة روحية ، وأنت المسئول .

هززت رأسى ، قلت :

ـ ربـمـــا .

نظرت الىّ فى غضب بعينيها الواسعتين وقد ارتسمت على وجهها تقطيبة قاسية ، قالت :

ـ لا تنس اننى قد سهلت لك الزواج من جويدان واننى اعتبرها ابنتى وليست قريبة لى فقط .

قلـت :

ـ لا أنسى ياجلبهار .

قالـت :

ـ شـكـــرا .

بعدها التفتت اليّ فى ود ، مدت يدها واحاطتها بكتفى ، قالت :

ـ اسمع ياكرامة ، ماذا تود من الدنيا اكثر من الحفاظ على عائلتك ، كن ياأخى شجاعا مرة فى حياتك ولن تندم ابدا ، تخلص من تأثير استاذك رحمه الله الدكتور رشاد رشدى ، أرض خراب ايه ؟ الخراب فى مخه ، رحمه الله .

قلت لها معترفا بالجميل :

ـ هو الذى قدمنى الى الرئيس السادات رحمه الله ، قال له ، كلمة طيبة عنى ، ففتحت امامى ابواب رئاسة الجمهورية .

قالـت :

ـ كن أنت . وسوف تفتح امامك ليس ابواب رئاسة جمهورية ولكن ابواب الجنة .

قلـت :

ـ معـك حـق .

كانت الأوراق الخاصة بمدونة نقل التكنولوجيا على المائدة المستديرة بيننا تطلعت اليها جلبهار فى قرف قالت :

ـ كلام فى كلام . الدول النامية ليست فى حاجة الى تكنولوجيا لكنها فى حاجة الى أناس الى بنى آدمين .

هذه آخر مهمة لى ، ونظرت الى الأوراق فى أسى ، نظرت الى جلبهار متضرعا ان ترحمنى من سخريتها اللاذعة وان تكف عن تأنيبى .

تأملتنى ، قالت فى عطف :

ـ لن ألومك ثانية .

وتركتنى وقامت . ذهبت وغابت فى أروقة الأمم المتحدة بينما بقيت على حالى جالسا .

ضجة رهيبة على الرغم من صمت الدبلوماسيين بسبب الحركة الدائبة فى الكافيتريا الصادرة عن هزات الرءوس ومصافحة الأيدى ، لا صوت حقيقة ، لكنها ضجة تؤذى العينين ، طنين ضخم يسمع بالعينين وليس بالأذنيين ، هذا هو عالم الدبلوماسية السرى ، كل نظرة لها مغزى ، ومصافحة الأيدى لها معنى .

قلت لنفسى : كن شجاعا مرة واحدة وادر الرقم حتى النهاية ، حتى تسمع كلمة ، آلو على الطرف الآخر .

توجهت على الفور الى كابينة التليفون ، وأدرت القرص وانتظرت ، قالت زهية :

- آلـو .

قلت لها بصوت قلق :

- كيف الحال يازهية هانم ؟

اجابتنى على الفور ، قائلة :

- الحقنى ياكرامة .

فى صوتها لهفة وهلع ، قلت :

- ماذا جرى يازهية هانم ؟

بكت ، قالـت :

- سوف افقد محمد نجيب ، سوف افقد ابنى .

طلبت منها الهدوء ، سألتها :

- اين الدكتور السيد باشا ؟

قالت فى اسى :

- شغل عنى . عنده عمل طوال اليوم . تعال الىّ ياكرامة - ارجوك .

قلت لها :

- حـاضـر .

ثم سألتها ، قلت :

- اود الأطمئنان . ماذا جرى لمحمد نجيب ؟

قالت وقد عادت الى البكاء :

- يستعد للسفر الى السويد .

سألتها ، قلت :

- لمـــاذا ؟

قالت غاضبة :

- مع فتاة . تعرف عليها فى المستشفى فأكلت عقله .

قلت مطمئنا :

- هذه نزوة .

انفجرت فى بكاء حار وندمت لقولى نزوة وكأننى فتحت جرحا قديما قلت :

- مسافة الطريق :

قالـت :

- شكرا ياسعادة المستشار .

لم تعد المشكلة بالنسبة لى مسألة الهند او بنين او جنيف فهاهو ذا ابنى يقرر الهروب الى المجهول ، هناك ، فى السويد فى صحبة تلك الفاتنة الشقراء ، قلت لنفسى : معه حق .

كانت الأوراق فى يدى ، فتوجهت الى الجراج ، حيث سيارتى ، ربما هذه هى أول مرة استجيب فيها لنداء زهية لى فى ساعة حاجة ، راودنى أحساس بأننى أسير على طريق جديد لم أطرقه من بعد ، تنادينى زهية ولا أخذلها ، استمع اليها واقول حاضر .

دلفت الى سيارتى خائفا من طريقى فهذه ساعة تتربص بى فيها الأقدار لتدفعنى دفعا الى سبل لا قبل لى بها ، ولكن بارادتى أو هكذا خيل الىّ وأنا ادير السيارة .

لم يعد ينقصني الا تلك السويدية الشقراء لتخطف ابني في اللحظة الحرجة وقبل ان أعلن ابوتي له ، ماذا افعل ؟

اعلنها ام اتريث ؟

اندفعت بي السيارة ، لا ادرى هل اقودها ام هي تسير بي بمفردها ، قلت لنفسي : السويد دفعة واحدة يابني !! ومتى ؟ في هذه الأيام التي تلعب فيها بنا الأقدار .

(٩)

هرول كرامة الى المستشفى فى حسن نية ملبيا نداء زهية . هذه أول مرة تستغيث به فيسرع اليها ، وجدها فى انتظاره فى صالون مرفق بغرفتها . وحيدة . الخوف فى عينيها .

ترتدى ملابس انيقة بسيطة ، لكن الملابس لا تخفى الخوف الظاهر فى لفتاتها المذعورة وحركات يدها القلقة . رعشة واضحة فى صوتها . هذه هى أول زيارة له لها فى المستشفى وان كانت ابنته ابسنت قد حضرت مرتين فى صحبة محمد نجيب .

دعته ، فقدم على عجل ، لم يتريث ولم يفكر . لم يدع الماضى يشده ويفصله عنها ، لم يخذلها ، لكنها خائفة ، هل هى خائفة منه ؟

هذه هى أول مرة يرى كرامة فيها زهية خائفة . عندما بانت عليها علامات الحمل فى عزبة عويس ، لم تكن خائفة ، وواجهته قائلة :

ـ هذا طفلى ، ولد ، لن أسقطه ، أهرب من العزبة وأربيه .

فى هدوء ، سأل كرامة ، قال :

ـ ماذا جرى يازهية ؟

اجابته فى أسى ، قالت :

ـ محمد نجيب يود السفر والعيش بعيدا عنى .

قال كرامة دون ترو :

ـ هذه ليست أول مرة يسافر فيها بمفرده .

هبت زهية واقفة . ظن كرامة أنها تنوى عمل شيئا ما ، كأن تتناول

شيئا ، أو تلقى نظرة على المرآة ، أو تضع شيئا من المساحيق على بشرتها ، وتابعها بعينيه ، لكنها ظلت واقفة فى منتصف الغرفة ، صامتة .

استراح كرامة قليلا ، قال لنفسه راضيا : هى تفكر فى قولى لها .

هذه هى أول مرة منذ ثلاثين عاما يجتمعان فى غرفة واحدة بمفردهما ، تحت سقف واحد وحدهما ، ففى السابق كان ينفرد بها فى الحقول ، أو تحت شجرة وارفة فى الظل فى الليل .

هذه ليست زهية عاملة الترحيلة الغجرية ولكنها زهية هانم التى صنعها الدكتور أحمد السيد باشا وثورة يوليو ٥٢ ، وسألت نفسى ، هل تتمرد على صانعها وتتنكر له وتقع فى غرامى مرة أخرى ؟ مدت يدها لى بالسلام وسحبتها ، ولم تدعنى أضغط عليها ، فكيف يتعلق قلبها بى ؟

قلت لنفسى : كل شىء مضى ، دهسته الأيام .

سألتنى فجأة وهى تواجهنى وتنظر فى عينى وتفتحهما على آخرهما وكأنها تأكلنى بعينيها . نظراتها كانت فيها كراهية ، قالت :

- التقيت أمس ياسعادة المستشار بالخال عباس ؟

أجبتها ، قلت :

- نعـــم .

قالت غاضبة :

- طيـــب .

دعكت يديها ، فركتهما . تدق الأرض بقدمها ، كأنها "تدبدب" وقد سرحت عنى . قلت لنفسى : هى تفكر . نسيتنى .

سألتنى ، قالت :

- ماذا قال لك الخال عباس ، ياسعادة المستشار؟

قلت لها :

- تحدثنا حول هزيمة ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ٧٣ ومقتل الرئيس السادات .

وأضفت قائلا :

- كانت دردشة سريعة .

سألتنى هذه المرة بشكل مباشر :

- هل حدثك خال عباس عن محمد نجيب ؟ عن ابنى ؟

أخذتنى النداهة عنها ، وغاصت بى فى الوحل البعيد وطين السنين ، فأجبتها دون روية :

- كنا نتحدث عن ابنته التى انضمت الى الجماعات التى قتلت الرئيس يوم ٦ أكتوبر ، وبعدها قال شيئا عن محمد نجيب .

سألتنى وقد بدأ صوتها يعلو ، قالت :

- ماذا قال لك خال عباس عن ابنى ؟

اجبتها ، قلت :

- روى لى شيئا عاديا عنه فى معرض حديثنا عن هزيمة ٦٧ ولم اعد اذكره .

وبعدها تنبهت ، سألتها ، قلت : هل كان الخال عباس يحمل لى رسالة ؟

زجرتنى بنظرة غاضبة ، قالت :

- ياخسارة ياكرامة ياابن بلدى كنت اظنك اشد حصافة .

ندت عنها صرخة عالية وكأن سكينا رشقت فى صدرها ، ارتبكت فى جلستى ، طلبت منها الهدوء ، خوفا من قدوم الممرضات ، ثارت فى وجهى ، قالت :

- اخرج . اخرج ياسعادة المستشار . اتركنى .

تشبثت فى جلستى خوفا من القيام . تطردنى . صرخت فى وجهى وقد تقلصت عضلات وجهها وبدا قبيحا للغاية ، اشارت بيدها الى الباب ، قالت فى غضب شديد :

- اخــرج .

خفت من تهورها ورأيتها تبحث عن شىء لتضربنى به ، قمت .

اتجهت نحو الباب . تحاشيت النظر اليها ، وكنت اظنها سوف تطلق رصاصات عليّ ، اجهشت بالبكاء وسمعتها تأن قائلة :

ـ ياخسارتك يامصر .

هذه آخر كلمات سمعتها من زهية وأنا فى طريقى الى الدرج . تصرفت معى كعاملة ترحيلة أو غسالة وظهرت على حقيقتها وغالبنى الضحك وأنا اتذكر قولها لى : كنت اظنك أشد حصافة .

قلت لنفسى تعلمت شيئا من الدكتور أحمد السيد باشا ، لكنها لم تتعلم منه آداب الحديث ، وتركت نفسها لنوبة غضب ـ لا أعرف سرها ـ وسوف تندم عليها فيما بعد ، وهذه هى اخلاق السوقة يرفعون اصواتهم ومن افواهم تخرج الكلمات الساقطة ثم يعتذرون .

لكن هيهات ، لن أقبل اعتذارا .

ظهرت زهية بنت الصفطى على حقيقتها . ونزلت الدرج نادما على قدومى .

وقفت فى نهاية الدرج فى الطابق السفلى متأذيا من مسلكها معى ، قدمت اليها بحسن نية لأصلح أخطاء الماضى كلها دفعة واحدة ، لكنها لم تتح لى الفرصة وصرخت فى وجهى : أخرج ياسعادة المستشار .

بير السلم كهوة واسعة فوق رأسى تنفث سما فى صدرى . هواؤها ثقيل وله قوة ضغط طاردة ترمينى الى الخارج وصوتها يلاحقنى : ياخسارتك يامصر .

مصر . مصر . كل الناس تتحدث عن مصر بمناسبة وغير مناسبة . قلت لنفسى : مالها مصر ووقوع ابنها أو ابنى فى غرام فتاة سويدية ؟

أفقت على صوت خطوى الى خارج المبنى ، وتبينت فجأة ، أنها سبتنى بقولها ياخسارتك يامصر . فهى تقصد ياخسارة التعليم فيك ياكرامة ياابن عزبة عويس ويامصيبتك يامصر بتولى مثلك هذا المنصب .

زهية بنت الصفطى الغجرية عاملة الترحيلة التى لا يعرف أحد أهلا لها

تعايرنى بأصلى وفصلى .

خرجت من باب البهو الخارجى فلفحنى هواء بارد متجمد . شددت القلنصوة التى اخفى بها صلعتى على أذنى وصفير الرياح يلطمنى .

أدرت السيارة وكففت عن التفكير وتركت نفسى لسيل من الذكريات التى غزتنى بقوة وأحاطت بى حتى أغرقتنى فى طين عزبة عويس وهوائها الراكد .

دخلت الى البعثة منهكا خائر القوى فوجدت ثلاث رسائل فى انتظارى . تكليف من سعادة السفير الريدى بالتوجه الى فندق الأنتركونتننتال على عجل لمقابلة الدكتور أحمد السيد باشا وبعدها لقاء سعادة وكيل الوزارة محمود بك القرشى والبقاء معه الى حين وصول سعادة السفير . والرسالة الثانية من خال عباس ابوحميدة يطلب فيها منى الاتصال به فى الفندق بين الساعة الواحدة والنصف والثانية لأمر عاجل ، اما الثالثة فكانت من الدكتور أحمد السيد باشا يطلب منى تشريفه فى الفندق .

هذه الرسائل الثلاث تصب كلها فى نهر واحد عميق يغرقنى ، وأخذت ابحث حولى عن طوق نجاة ، فقد تشابكت فيها الخيوط وتلاحمت بين الخاص والعام وقررت ان اعزل العوامل الشخصية عن العامة ولا أخلط بين هزيمة ٦٧ المدوية ورغبة ابنى فى الهروب منى الى المجهول ، قلت لنفسى الحكمة فى عزل الأوراق ، وقررت ان التقى بالدكتور أحمد السيد باشا بعيدا عن محمود بك القرشى وسعادة السفير الريدى ، الخاص خاص والعام عام ، ولكل قضية مفتاح ولن اترك نفسى لهم لنهشها وتعريتها ، واذا كنت قد خسرت ابنى محمد نجيب فابنتى ابسنت صغيرة وفى حاجة الىّ ، ولن اكسر قلبها كما كسرت قلب امها الأميرة جويدان .

قلت لنفسى وأنا فى طريقى الى الفندق ، القضية فى غاية الوضوح : الأستقالة أم قبول المنصب الجديد فى الهند .

تركت المعطف والقلنسوة فى سيارتى واخذت معى محفظة اوراقى وبها المذكرات الخاصة بمدونة نقل التكنولوجيا على أمل ان اعد تقريرى فى

البيت أو فى ساعات فراغى القليلة بين هذه اللقاءات ، فهذه هى آخر مهمة لى فى جنيف وبعدها اتفرغ لتسوية امور الحياة العائلية من "نقل العفش" وغير ذلك .

صعدت الى بهو الفندق وأنا أحس بالهزيمة ، أحساس داخلى جارف ، وتركت نفسى للسلم وكأننى أصعد الى حبل المشنقة .

وجدت الباشا فى بهو الفندق ، فى انتظارى ، تقدمت اليه فقام مرحبا بى ، فاسرعت اليه حتى اوفر عليه جهد الوقوف .

قال لى الباشا :

ـ شكرا ياسعادة المستشار على المجىء .

قلت على الفور :

ـ العفو ياباشا .

واخترت جلستى فى مواجهته حتى يتسنى لى معرفة مكنون نفسه نحوى عندما انظر الى عينيه واتأمل تقاطيع وجهه .

بعد فترة صمت ، قال الباشا :

ـ شكرا ياسعادة المستشار لما قمت به مع محمد نجيب ، لقد انشغل طوال الوقت عن والدته بمدونة نقل التكنولوجيا وقام بدراسة لها فى المكتبة من وجهة نظر العلاقات الدولية السائدة حاليا بين الشرق والغرب من جانب وبينهما وبين الدول الفقيرة النامية من جانب آخر أما الجوانب القانونية فى مشروع المدونة فقد اغرقنى فيها .

وبعدها أضاف الباشا قائلا :

ـ الفضل فى ذلك كله لك ياسعادة المستشار .

أجبته قائلا بطريقة عفوية :

ـ العفو ياباشا .

رمقنى بنظرة فاحصة ، وبعدها قال :

- سمو الاميرة جويدان كسبت قضيتها ضد الدولة بخصوص عزبة عويس وقصر اللواء عويس رحمه الله .

تذكرت أننى قد دونت تاريخ اعلان الحكم فى القضية فى مفكرتى لكننى نسيت متابعته كما ان جويدان لم تخطرنى به ولابد انها كانت تعرف أن الحكم قد صدر لصالحنا لكنها أخفته عنى عن عمد .

رأيت ان ادارى جهلى بالحكم ، قلت :
- الفضل للقوانين التى اصدرها الرئيس السادات بإعادة الأطيان والأموال المصادرة لأصحابها الشرعيين .

هز الباشا رأسه ، ولم يعلق ، وبعدها قال :
- هذا حكم نهائى ياسعادة المستشار . مبروك .

هل طردتنى زهية من غرفتها منذ أقل من ساعتين ظنا منها أننى أخفى عنها نبأ الحكم ، وأننى مازلت أدعى الفقر وأخاف من اعلان أبوتى لابنى على الرغم من ثرائى ؟

فاتحتنى زوجتى منذ عدة أيام برغبتها فى العودة الى الإسكندرية وطلبت منى دواوين الشاعر اليونانى السكندرى كفافيس فنصحتها باستعارتها من مكتبة جنيف ، فهل اتخذت قرارها بالعيش فى الإسكندرية وتصفية املاكها فى محافظة الجيزة ؟

حذرتنى قريبتها الأميرة جلبهار من ترك زوجتى فى مدينة الإسكندرية وذكرتنى بان العصمة فى يدها ، لكننى للأسف لم آخذ كلامها على محمل الجد فى زحمة العمل ، فهل كانت تعرف مقاصدها ؟

سألنى الباشا ، قال :
- اعتقد ان القصر فى حوزة وزارة التربية وقد حولته الى مدرسة لتعليم فنون الزراعة أم أنا مخطىء فى تصوراتى ؟

أجبته ، قلت :
- هو كذلك ياباشا .

قال الباشا :

- أنا على استعداد ياسعادة المستشار لشراء القصر وقطعة ارض حوله لا تقل مساحتها عن اربعين فدانا بأى ثمن ترونه أما اذا كانت فى نيتكم بيع العزبة بأكملها فأنا ايضا على استعداد لشرائها فورا .

وأضاف الباشا قائلا :

- فى خلال ساعات يمكن انهاء العقد هنا فى جنيف ودفع النقود بالعملة التى تودونها بالدولار أو الفرنك السويسرى وتسجيل العقد فى القنصلية المصرية . وهذه كلها اجراءات معروفة وسهلة ، ومحمد نجيب له خبرة واسعة بهذه الأمور .

تحولت جلستى الى أحمد السيد باشا الى جلسة بيع وشراء لا يخصنى أمره ولا يشغل نفسى أو يثير فضولى فغمرنى احباط وقرف شديد من نفسى ومن وضعيتى التى لا تسمح لى بان اعيش حياتى كما أنا ولست كما يقال عنى الرجل الآخر .

على هذا المقعد فى بهو الفندق اجريت اتصالات مع إسرائيليين لعقد صفقات بيع البترول بواسطة شركة وهمية مصرية فى جنيف من خلف رؤسائى فى وزارة الخارجية بتعليمات مباشرة من الرئيس السادات ورفضت الرشاوى والعمولات والسمسرة وقمت بواجبى كموظف ودققت فى التفاصيل ووقفت حجر عثرة أمام آخرين سال لعابهم أمام الدولارات واعتبرت نفسى محاربا فى معركة وكانت مساومات عملائهم تقرفنى وتدفعنى الى التشدد لتعويض هزيمتنا فى عام ٦٧ .

اعتدلت فى جلستى ورسمت ابتسامة على وجهى ، وقلت :

- فى شبابى المبكر ياباشا كنت أهوى الشعر واعد نفسى لأصبح شاعرا أو على الأقل ناقدا أدبيا لكننى فشلت وجرفتنى أمور الحياة والمعيشة بعيدا عن جنة الشعر ومريديه وأنا لا أميل بطبعى الى عقد الصفقات أو توقيع عقود وسوف اترك هذا الموضوع لزوجتى الأميرة جويدان خاصة ان القصر والأطيان تخصها وقد ورثتها عن ابيها المرحوم اللواء عويس باشا .

أجابنى الباشا ، قال :

ـ لنترك الأمر اذن لمحمد نجيب والأميرة جويدان وهو رجل اعمال ناجح .

قلت لنفسى ، جاءت المصائب من حيث لا أدرى ، جلسة واحدة مع هذا الشاب وتعود بعدها جويدان قائلة : هذا ابنك من امرأة اخرى . طلقنى . ابنتى الصغيرة قالت لى : محمد نجيب يشبهك الخالق الناطق يادادى . حتى الأميرة جلبهار عندما رأته لأول مرة فى الأمم المتحدة ، سألتنى عنه وهى تضحك .

قلت لنفسى كفلاح أصيل : وقعت الفأس فى الرأس ياكرامة . وبعدها أردت التفلسف فقلت لنفسى : وقد هد المعبد على رأسك .

خالجنى يقين ان زهية كانت تعرف وقد أخفت سرها عنى ، وفارقنى غضبى من ناحيتها فأنا آخر من يعلم بأمور حياته ومعيشته وقد تركت نفسى لأسبح فى بحور الأميرة وتجرفنى الأمواج كيفما أرادت .

انتهى حديثنا وبدأت استعد للقيام ، وقبل قيامنا ، قال الباشا :
ـ محمد نجيب حصل على تأشيرة دخول السويد ويسافر خلال ايام لمقابلة عالمة آثار سويدية من معارف ابنتى المرحومة أوديت . وقد شجعته تلك الفتاة الشقراء التى تعرف عليها فى المستشفى على هذه الزيارة .

صمت . لم استفسر ولم اعلق . الجميع حولى على سفر وكأن الحياة قد أصبحت قصيرة جدا ولا تحتمل بقاءهم فى موضع واحد عدة أيام أخرى . أنا ايضا على سفر ، ليس بحثا عن معارف قدامى ، ولكن الى المجهول .

أضاف الباشا قائلا :
ـ معرفة المرحومة أوديت بتلك العالمة السويدية واسمها ساندرا استروهولم تعود الى يوم السبت الأسود اى يوم ٢٦ يناير ٥٢ . كانت أوديت هاربة من القلم السياسى فى تلك الأيام ومتخفية فى زى فلاحة بسيطة وتقيم فى عزبة عويس عند الخال عباس ولما سمعت بخبر الحرائق توجهت على الفور الى شارع الهرم لاستطلاع الأمر فوجدت سائحة مصابة بنزف بسبب حجر اصابها فى رأسها وقد دهمتها آلام الوضع . فاتخذت ابنتى قرارا بالكشف عن شخصيتها وصرخت فى الجميع طبيبة وولدتها فى

صيدلية قريبة وبقت الى جوارها الى حين وصول سيارة من السفارة السويدية وحملتهما معا الى مبنى السفارة ، وتابعت ابنتى اشرافها عليها لعدة ايام فى مبنى السفارة ، حتى دبرت لنفسها موضعا آخر للاختفاء عن عيون القلم السياسى .

استمعت الى هذه الحكاية التى شدتنى الى ماض بعيد وروحى تحترق ، ففى تلك الساعات كنت اجرى كالمجنون فى شارع الهرم مشعلا الحرائق فى المركبات وفى المحلات وقاذفا الناس بالحجارة .

أضاف الباشا قائلا :
ـ كانت ابنتى متخفية فى زى فلاحة بسيطة ، ولما رأت حالة السيدة سيئة للغاية ، كشفت ابنتى عن شخصيتها ، قائلة : طبيبة ، لم تصدقها المصابة فى البداية ، لكنها بعد دقائق وقد لمست خبرتها ومعرفتها الطبية الواسعة وثقت فيها .

كانت جروح جسدى وتسلخات جلدى قد طابت بعد ضرب اللواء عويس لى بالسوط أما جرحى الداخلى فكان فى اتساع كل يوم وقد تقيح وأفرز سموما أعمتنى وغيبت عقلى .

جاءنى صوت الباشا وهو يقول :
ـ قررت ابنتى الكشف عن شخصيتها وتعريض نفسها لخطر مؤكد .

فأحسست به يحدثنى عن نفسى .

كل الناس يشدها المستقبل ، اما أنا فحبالى مربوطة بصخرة الماضى ، وقلت لنفسى ابناء مصر لهم ولع شديد بالآثار ، وهذا هرمى الخاص قد بنيته لأحبس روحى فى داخله .

استمر الباشا يروى لى حكاية ابنته ، قال :
ـ كشفت اوراق ابنتى التى دونتها فى تلك المرحلة عن صداقة حميمة نشأت بينها وبين السيدة ساندرا استروهولم فقد تبين لها ان تلك السيدة السويدية الشابة الى جانب تخصصها فى التاريخ فهى تروتسكية ، ولك ياسعادة المستشار ان تتخيل عمق أحاديثهما ، فابنتى "حدتاوية"

والاخرى "تروتسكاوية" .

وضحك الباشا طويلا ، وبعدها قال :
- تلك كانت أياما اخرى وربما لا يعرفها ابناء هذا الجيل .

وافقته على قوله بهزة من رأسى دون ان أفتح فمى .

أكمل الباشا حديثه ، قال :
- محمد نجيب سوف يتوجه الى جامعة اوبسالا بالسويد لمقابلة الأستاذ ساندرا استروهولم وعرض مذكرات ابنتى عليها لاستكمال بعض النقاط ولبيان وجهة نظرها فيما دونته ابنتى عن احاديثهما فهذه امانة .

وبعدها قال وهو يهز عصاه :
- الرفيق عباس ابوحميدة كان على حق فى تحفظاته على نشر المذكرات ياسعادة المستشار . ثلاثون عاما ليست بالفترة الطويلة .

يفتح الباشا قلبه لى ، وقد أراحنى توقف حديثنا عن البيع والشراء فمثل تلك الأحاديث تصيبنى بالقرف الشديد ، وقد أدرك عزوفى عن مناقشة موضوع القضية ، فكف عن الحديث عنها ، لكنه فتح فى قلبى جرحا متقيحا لم يندمل بفعل السنين بحكاياته المتنوعة .

ابنى يسافر الى السويد لاستكمال بعض صفحات فى مذكرات طبيبة . لا يعرفها وان كانت قد منحته ثروتها قبل وفاتها ، بحثا عن ماض لم يعشه وان كان قد تربى فى كنفه وتمتع بثمراته .

قبل قيامى لمواجهة محمود بك القرشى ، قلت لنفسى : دع الأمور تأخذ مجراها ، ابنى يلتقى بزوجتى الأميرة جويدان لإنهاء موضوع القصر وأنا لن أخسر شيئا ، فسوف تنتقل ملكية القصر من زوجتى الى ابنى .

اذا سألنى محمود بك القرشى عن وجهتى ، قلت له على الفور :
- الهنـد .

هناك اعمل على مقربة من الدكتور نبيل العربى ، وهذا يريحنى .

قمت . وسؤال معلق فى رأسى ، أخذ يقلقنى عن دوافع الدكتور وزهية

زوجته من وراء شراء قصر اللواء عويس ، هل هى صورة مبتذلة من مسرحية "زيارة السيدة العجوز" للانتقام من حمادة ابوجبل وزوجته "ستهم" ؟

غير ان اشارة الدكتور أحمد باشا السيد اليّ مدونة نقل التكنولوجيا عدة مرات فى حديثنا لفتت نظرى ، خاصة بعد أن أظهر معرفته باستيلاء وزارة التربية على القصر وتحويله الى مدرسة زراعة فنية واصراره على شراء اربعين فدانا محيطة بالقصر أو العزبة بأكملها .

وزارة التربية لن تتنازل عن المدرسة حتى اذا انتقلت ملكية القصر الى الباشا ، والباشا ليس ساذجا ، وليس فى حاجة الى عزبة ، فهل ينوى التبرع بالقصر والأرض الى وزارة التربية ، ليطلق على المدرسة اسم زوجته : زهية الصفطى بدلا من اسمها الحالى ، مدرسة اللواء عويس ؟ قلت لنفسى : ربما يود تسميتها باسم محمد نجيب .

استراح قلبى قليلا . وأنا فى طريقى الى محمود بك القرشى . اتصلت به من بهو الفندق ، فطلب منى ، معاودة الاتصال به بعد عشرين دقيقة قبل صعودى اليه فى جناحه .

محمود بك القرشى ليس بمفرده ، كانت رسالته واضحة وصريحة لى . توجهت الى المحل الصغير واشتريت مجموعة من صحف الصباح وكان قد فاتنى الاستماع الى نشرات الأخبار كما اننى لم امكث بالبعثة طويلا ولم اطلع على البرقيات الواردة الينا من القاهرة .

اتفاق بين مصر وإسرائيل حول التحكيم حول طابا . مصر تصر على التحكيم وترفض التوفيق . مشارطة التحكيم سوف تعرض على السلطة التشريعية فى البلدين . حكم محكمة التحكيم ملزم للطرفين . مصر استعانت بخبرات ابنائها فى وضع مشارطة التحكيم . د . وحيد رأفت . د . أحمد السيد باشا . د . جورج ابى صعب .

انفراجة فى مباحثات الإسكندرية بعد تعثر حول طابا . ثلاثة اجيال من خبراء القانون الدولى المصريين يضعون خبراتهم تحت تصرف وزارة الخارجية .

فردت الصحف القادمة من القاهرة أمامى وسرحت . ابتسمت . قمت من فورى الى البهو حيث ظل الدكتور أحمد السيد باشا جالسا . وضعت الصحف أمامه ، وقلت :

ـ مبروك ياباشا .

نظر الىّ مبتسما ، وبعدها قال :

ـ كل أدى واجبه .

لم يـ ق نظرة على الصحف أو يمد يده ويتناولها ، ادركت أنه يعرف الكثير ولا يود الحديث حول هذا الموضوع . وتحيرت ، ماذا قدم الدكتور أحمد السيد باشا من جنيف وهو مشغول بزوجته وبنشر مذكرات ابنته الراحلة ؟

قلت لنفسى : ربما هى استشارات سريعة .

بعد فترة صمت ، قال الباشا :

ـ الدكتوران عصمت عبدالمجيد وبطرس غالى لعبا الأوراق المتاحة لهما فى مهارة .

وبعدها أضاف قائلا :

ـ هذا جيل من السياسيين المصريين ، ابعاد القضية المصرية وملفاتها على أطراف اصابعه على حد قول الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل . وقد استفاد جمال عبدالناصر من خبرات هذا الجيل بقدر اما الرئيس السادات رحمه الله فقد تجاهل خبرات هذا الجيل واستند الى معارفه وقدراته الخاصة يعاونه مجموعة من الموظفين فى أمور الحرب والسلام والاقتصاد للأسف .

قلت حزينا :

ـ نحن نسدد فاتورة هزيمة ٦٧ .

قاطعنى قائلا :

ـ ياسعادة المستشار وقت سداد فاتورة ٦٧ لم يحن بعد ، الفاتورة سوف تسدد فى عقد التسعينيات وعليها تراكمات الفوائد أيضا ، وبالأرقام

هى فاتورة باهظة التكاليف وظالمة .

أوشكت العشرون دقيقة على الانتهاء ، فقمت مستأذنا فى الذهاب الى محمود بك القرشى ، كشفت عن نيتى هذه المرة فى صراحة ، فالرجل يحيط باسرار الموقف بأكمله ، وقال لى الباشا مودعا :
ـ الله معك .

وأحسست به يعرف سبب مجيئى الى محمود بك القرشى ، وأحسست بقلق من مقابلته . وحتى اريح نفسى من مغبة القلق وعدم راحة البال ، قلت لنفسى فى ثقة :
ـ امامك طريقان ياكرامة ، الهند أو الاستقالة ، وكلاهما سوف يفتح أمامك باب الجنة على حد قول الأميرة جلبهار .

كنت وأنا فى طريقى الى التليفون أخاطب نفسى وكأنى أتحدث الى رجل آخر لا يهمنى أمره ، ولما جاءنى صوت محمود بك القرشى على الجانب الآخر مرحبا بى فى جناحه ، ادركت ان ساعة رحيلى قد حلت ، ومددت يدى بطريقة عفوية الى سترتى ، ووضعتها فوق قلمى .

رحب بى محمود بك القرشى ، لكننى كنت كمن يحمل كفنه بين يديه طالبا السماح ، ولما سألنى : الهند أم بنين ؟ قلت له على الفور :
ـ استقالتى جاهزة .

سألنى الرجل فى ود :
ـ أنت متعب ياكرامة ؟

أجبته ، قائلا :
ـ عندى من الأعمال الخاصة ما يشغلنى ، ومن الظروف العائلية ما يمنعنى من السفر .

سألنى ، قال :
ـ هل فكرت جيدا ياسعادة المستشار ؟

قلت :
ـ الأمور واضحة ياافندم .

رد على قائلا :
ـ كما ترى ، وتقبل تمنياتى الطيبة .

انتهت مقابلتنا وقد وضعت استقالتى بين يديه . كما دخلت دون واسطة وزارة الخارجية ، وعن طريق المصادفة البحتة ، فى لحظة تاريخية سمحت لأبناء الدهماء باختراق السياج والحواجز ، خرجت منها مصادفة وأنا زوج للأميرة جويدان ابنة اللواء عويس ياوران الملك السابق فاروق .

مهنتى الآن دبلوماسى سابق ، وليست لى خبرة بعمل قانونى أو مالى أو تجارى . قلت لنفسى : معاشك يكفى ياكرامة . ارجع مع خال عباس ابوحميدة الى عزبة عويس وعش فى هدوء هناك .

وقفت . والدرج المتحرك ينزل بى ، يغوص بى الى أسفل ووضعت يدى استند الى حافة السلم المتحرك الذى يحملنى بعيدا عن محمود بك القرشى والدكتور أحمد السيد باشا وزهية هانم وابنى محمد نجيب .

اترك تلك الحياة الرغدة التى عشتها ولم انتسب اليها بل عمقت فى داخلى الإحساس بالغربة والضياع . حركة السلم النازلة لا تتوقف وتمنيت ان يصاب بعطل لمدة ثانية أو ثانيتين لالتقط انفاسى وأعيد حساباتى لكننى كما تركت نفسى للسلالم الصاعدة دون روية نزل بى السلم المتحرك الى بهو فندق انتركونتننتال لأجد باب الخروج أمامى .

أخذنى الحنين ، فأخرجت سيجارا وأشعلته ولما نفثت الدخان من فمى وجدته يهفو الى أعلى ، قلت لنفسى غاضبا : عشت حياتك ياكرامة ياابن سرحان السقا تقفز الى أعلى كسحابات الدخان هذه ، لا وزن لك ولا هوية .

اتجهت الى الجراج ، وأخذت سيارتى وقد ضاقت بى الطرق ، فأسرعت الى فندق الرون حيث خال عباس أبوحميدة ، فمعه ربما أجد نفسى الضائعة .

(١٠)

كلما عبرت الأميرة جلبهار تلك الطرقة الزجاجية الفاصلة بين المبنيين القديم والجديد أحست بالموت يقترب منها أو بأنها تولد من جديد . احساسان متناقضان تماما يهجمان عليها ويدهمانها وكأنها طرقة مسكونة بالأرواح .

على اليمين حديقة واسعة يتوسطها تمثال معدنى يرمز الى دور الأمم المتحدة ، وعلى اليسار هضبة خضراء ترقد أسفلها السيارات متراصة فى نظام .

ويتغلب الإحساس بالموت على الأميرة جلبهار اذا كانت قادمة من المبنى القديم الى المبنى الجديد وكانت السيارات بألوانها القبيحة الى يسارها أما اذا كانت متجهة الى المبنى القديم وبحيرة جنيف الى يسارها وذلك التمثال المعدنى يتوسط الحديقة وعلم الأمم المتحدة يرفرف فوقه ، أحست براحة الميلاد .

المبنى القديم أخف على قلب الأميرة من المبنى الجديد الأسمنتى ، وللأسف أغلب ساعات العمل تقضيها فى القاعات الجديدة فى المبنى الحديث . ولهذا السبب تحرص الأميرة على الذهاب الى المبنى القديم والبقاء فى جنباته فتلك الردهات العالية المتسعة تريحها بعد حبسة الكابينة فى قاعات صغيرة مغلقة ولا نوافذ لها .

هناك فى المبنى القديم تتسكع دوما الأميرة جلبهار ، واذا أسعدها الحظ بالترجمة فى مؤتمر نزع السلاح غمرتها نشوة وهى ترقب تلك اللوحة الأسبانية الجدارية التى تملأ سقف القاعة زخما وحرارة .

قاعات المبنى القديم العالية تذكرها بمدخل قصر اللواء عويس فى عزبة

عويس فى الجيزة . تلك أيام مضت .

اتصلت بها الأميرة جويدان مرة أخرى واشتكت لها من كرامة ، قالت :
ـ كرامة تغير ورجع الى اصله .

قالت لها جلبهار على الفور :
ـ هذا أفضل ياجويدان .

سمعت بكاء ، فدعتها الى الغداء .

عبرت جلبهار المبنى الجديد متجهة الى المبنى القديم ، وأحوال قريبتها جويدان أصبحت تقلقها ، سمعت صوتا يقترب من الخلف ، التفتت الى الحائط الزجاجى على يمينها ، لمحت ظله ، توقفت عن السير ، التفتت اليه ، ضاحكة ، قالت :
ـ لماذا كل هذه العجلة ياأنور . الدنيا بخير ياأنور .

اجابها أنور سلامة ، وهو يتجاوزها فى عجلة :
ـ اسمحى لى ياسمو الأميرة ، ان اخالفك الرأى . الدنيا ليست بخير . والحياة قصيرة جدا ، وأقصر مما نتصور .

تشاءمت الأميرة من قوله الحياة أقصر مما نتصور ، تجاوزها ، نادت عليه توقف ، قالت :
ـ ما رأيك فى فنجان قهوة فى البار بعد عشر دقائق .

وافقها ، وتابع سيره مهرولا ، مبتعدا عنها .

هى نصف ساعة تجدد فيها الأميرة جلبهار نشاطها قبل حبسة كابينة الترجمة ، فتوجهت الى مكتب البريد لشراء عدة طوابع تذكارية ومرت على مكتب التليفونات ، لتخابر الأميرة جويدان ، وتطمئن عليها مرة أخرى فكانت مكالمتها السابقة لها موجزة .

فى البار ، وجدت الأميرة جلبهار زميلها أنور سلامة منتظرا ، وقد طلب لها القهوة ، وقطع البسكويت بالشيكولاتة التى تحبها .

جلست ، قالت :

ـ لقد سبقتنى ياأنور .

لم يلتفت أنور سلامة الى قولها ، وتابع حديثه الذى بدأه مع نفسه وهو فى طريقه الى البار ، قال :

ـ البيروقراطية فى هذا المبنى هى محصلة البيروقراطيات فى العالم .

قالها فى لهجة حيادية وغير غاضبة ، وكأنه يلقى بحكمة لا تقبل الرد ، وكان وجهه متجهما ، فأرادت الأميرة جلبهار مداعبته والتخفيف عنه ، فقالت :

ـ هذا من حسن حظنا ياأنور .

قال أنور سلامة وعلامات الكدر على وجهه .

ـ نعم . معك حق .

وافقنى هذه المرة دون جدال ، وادركت أن هما كبيرا يشغله ، فأنور سلامة لا يصمت عن إلقاء الحكم السائدة الا لسبب .

غير ان صمته لم يطل ، فحمدت الله على سلامته ، قال :

ـ نعم . من حسن حظنا ـ نحن الغلابة ـ ان هذا المبنى تحكمه البيروقراطية ، لأنه لو امتدت اليه ايدى أولئك الذين يدعون الثورة لفسد كل شىء ، كما فسدت أمور العالم الثالث أو الرابع .

بعدها اندفع فى الحديث دون توقف الا لرشف رشفات سريعة من فنجان القهوة ، قال :

ـ اسمعى ياجلبهار ، أنت أميرة ومن العائلة المالكة السابقة ، هذه حقيقة على عينى ورأسى ، ولكننى لا أخفى عنك ، أنك كنت سوف تصبحين أولى الذين نتخلص منهم بالإعدام أو بالضرب بالرصاص ، ليس لأنك أميرة فقط ولكن لأنك من أولئك الذين يدعون أنهم من المثقفين ، لكن سامحه الله وغفر له ، أقصد جمال عبدالناصر ، فقد ترك الحبل على الغارب للمثقفين والمدعين والمرتشين ، والنتيجة كما نرى .

كان فى خطتنا الحكم بالحديد والنار لمدة سنتين فقط ، وبعد ذلك تسليم الحكم لأصحاب البلد الحقيقيين من الفلاحين والعمال ، نقول لهم ،

تفضلوا ، هذه هى البلد نظيفة من الافات ، أمانة فى ايديكم ، وعلى فكرة ، الفلاح لا يخون الأمانة مطلقا بل يحافظ عليها .

وبعدها أضاف ، قائلا :

ـ كنا عشرين ضابطا ، وعندما ضممنا الواحد والعشرين ، خاننا وابلغ عنا . لقد قلت ذلك كله ، لجمال عبدالناصر فى عام ١٩٥٤ بعد التخلص من محمد نجيب ، استمع لى ، ولم يعلق ، وبعدها وجدت نفسى مشردا ومطاردا .

تحسست عنقى ، قلت له ضاحكة :

ـ الحمد الله ان جمال عبدالناصر قبض عليكم وطردكم من الجيش ياأنور .

قال لى وهو ينظر فى عينى :

ـ طبعا من حقك ، أنا أقدر المشاعر الإنسانية ، لكن التاريخ لا يرحم . هذه مسئولية .

قلت له :

ـ أهون عليك ياأنور ان تعدمنى بالرصاص .

قال وهو ينظر فى وجهى ودون ان يرمش له جفن :

ـ بيدى اذا تطلب الأمر . أنا مقاتل محترف ، القتل بالنسبة لى مثل شرب كوب الماء ، هذه مهنتى ، ما معنى مقاتل ؟

نظر فى ساعته ، قال :

ـ شكرا على المجىء ، الى اللقاء .

قــام .

تابعته بعينى . يسير فى تؤدة ووقار وكأنه يتأمل حديثه الىّ ، لا أدرى لماذا استريح للجلوس اليه ؟ على الرغم من ان كلامه لا يعجبنى ، ربما لأن ملامح وجهه تذكرنى بوجه اللواء عويس والد الأميرة جويدان ، تلك التقطيبة الحادة التى تقسم الوجه الى نصفين ، تثيرنى ، وأجد فيها رجولة طاغية ، كما ان هناك سمات مشتركة تجمع بين ضباط الجيش وتأسرنى

اليهم . واذا كان اللواء عويس عندما تعرفت عليه لأول مرة ، ووقعت فى غرامه الى حد الهوس يكبرنى بعشرين عاما على الأقل ، فأننى أكبر أنور سلامة بخمس سنين ، ولهذا أرى نفسى فى حضرته كأم له وأنس لحديثه ، وربما ما يحببنى فيه هو أنه لا يزال يعيش فى تلك السنوات المرة وقد توقف التاريخ لديه عند عام ١٩٥٢ ، وهذا هو احساسى أيضا ، وان كنا نرى الأحداث نفسها من منظورين مختلفين .

لو أراد أنور سلامة أن يطبع قبلة على خدى ، لقدمت له فمى ، تركت له شفتى ، لكنه لا ينظر الىّ ، أول أمس التقيته فى الكابينة الصغيرة ، كنا وحدنا ، قلت له :

ـ الم تلحظ ياأنور أننى ارتدى فستانا جديدا ؟

قـــال :

ـ ياسمو الأميرة أنت دائما ترتدين الجديد ، ومن كان مثلى ، يتوه بين كل جديد .

راقبته ، كان يدعك راحة كفيه بعضهما ببعض ، ويتوجه بنظراته الى نقطة وهمية فى القاعة ، قلت له :

ـ يابرودك ياأخى .

تابع حديثه بصوت خافت ، قال :

ـ جلبهار أنت أميرة وربما أدنى من رأيت فى السلم الاجتماعى فى مصر مدير الدائرة ، أما أنا عندما طردت من الجيش كنت ملازما أول ، عشت بين المجندين الأميين ، دربتهم على السلاح . هم بسطاء ، نعم . جهلة ، نعم . لكن بعد ستة أشهر كنت اتحدى بهم الآخرين فى النشان وفى قيادة السيارات . اتحدى بهم الضباط . هذه هى مصر .

كنت أنظر مستمعة ، وقبل أن يبدأ فى جملة جديدة ، قلت :

ـ ما رأيك فى هذا الفستان ؟

قـال :

ـ طبعا جميل . وأنت سيدة جميلة .

قاطعته قائلة :

ـ هذا المديح يكفينى اليوم .

قدم رئيس الجلسة الى المنصة ، فوضعت السماعات على أذنى ، واستغرقت فى العمل .

اللواء عويس والد الأميرة جويدان فى صحوته الأخيرة قبل وفاته ، سألنى :

ـ ماذا تنوين فعله فى حياتك ؟

أجبته على الفور :

ـ سوف أخرج للعمل ، والعمل عندى قبل الزواج .

قـال:

ـ خير ما تفعلين ياسمو الأميرة .

وبعدها حملنى رسالة شفهية الى الملك فاروق وعائلته يعبر فيها عن كامل اخلاصه وولائه للعرش .

مات بعدها ، وفقدت بموته أبا ، وعشيقا فى آن واحد .

لا أحد يثير فى نفسى هذه الذكريات سوى أنور سلامة والأميرة جويدان ، الحديث اليهما يفتح جروحا قديمة لم تندمل بفعل مرور السنين . ويا لها من ذكريات .

الحجر فى محله ثقيل . هذا مثل لبنانى سمعته لأول مرة وأنا اجلس فى شرفة فندق فى منطقة الحمراء فى بيروت وكنت قد شربت عرقى بلح بطحة وراء بطحة وكان رفيقى لبنانيا زلق اللسان خفيف الظل ، ظل يسقينى كأسا وراء كأس ولما ألقى بهذا المثل أفقت من السكر فقمت ودخلت الحمام وبدلت ملابسى ودعوته الى نزهة ليلية ولم أسمح له بلمس قصة من شعرى .

قلت له فجأة :

ـ اسمع ياأديب . أنت رجل ظريف . زلق اللسان . ويكفينى الليلة ما

سمعته منك . الحجر فى محله ثقيل .

ظن المسكين انه قد اغضبنى واخذ يعتذر لى حتى كشف عن سماجة وقلة ذوق وقد خرج عن طوره فطلبت منه مغادرة جناحى على الفور وانتظارى فى بهو الفندق حتى انتهى من زينتى .

طردتـه .

قال فى مسكنة :
ـ ياسمو الأميرة اننا لم نبدأ سهرتنا بعد .

قلت له ضاحكة :
ـ سنكمل سهرتنا فى التسكع وليس فى غرفة نومى .

كان أول لقاء لى مع أديب ولا أدرى سبب انزعاجى الشديد من سماعى قوله الحجر فى محله ثقيل وأحسست به يستخف بى بطريقة غير مباشرة بسبب غربتى عن مصر ويظن أننى ألعوبة بين يديه وأننى صيد سهل لكننى لقنته درسا .

قابلت أديب مرة ثانية مصادفة فى عاصمة افريقية نسيتها بعد عشرين عاما وعرفت انه كون ثروة وشكل دارا للنشر وسألنى فور رؤيتى ، قال :
ـ ياسمو الأميرة . فى جعبتى سؤال واحد يعذبنى ، هل لى بمعرفة جوابه ؟

ضحكت طويلا .

كان جسده قد اصبح يميل الى السمنة ونبت له شارب كث وعلى الرغم من رجولته وفتوته الظاهرة كنت أرى فى وجهه وحركاته لمسة انثوية تقززنى منه وندمت لاستلطافى له .

قلت له وابتسامتى على فمى :
ـ لقد حذرتك وقلت لك اننى امرأة صاحبة نزوات كالبحر . انفجر فجأة واهدأ فجأة .

ارتسمت على وجهه علامات غضب مصطنع ، قال :

ـ لقد انتظرت طويلا فى بهو الفندق .

ضايقنى فيه انه لم يكن غاضبا أو ساخطا علىّ . قلت لنفسى : هذا رجل لا يعرف كيف يغضب ؟ لذا هو لا يعرف كيف يحب .

قلت لـه :

ـ هل تزوجت ياأديب ؟

استعد لرواية قصة لى لكننى تركته واقفا وهربت منه .

الأميرة جويدان حائرة . مهزوزة . كالحجر فى غير موضعه . حياتها مع كرامة فارغة . رفضت العمل وكان حلمها ان تعمل بالجامعة الأمريكية لكنها لم تكمل دراستها العالية وتمردت على مناهج الدراسة واستغرقت فى قراءة أخبار الملوك الذين هوت عروشهم والأميرات اللاتى ضعن ودخلن مزبلة التاريخ من أوسع الأبواب وأصبح فى جعبتها موسوعة من الحكايات المسلية والطرائف .

فقدت الحس بالتاريخ وتوقفت عند الحكايات ومآسى الأميرات وبدأت تتحدث كوالدتها المرحومة شويكار رفقى عندما كانت تشتد عليها موجات الجنون وتحلم بعودة الملك فاروق وتأديب الضباط .

الأميرة جويدان نسيت دراستها للثورة الفرنسية وفهمها للتحولات الاجتماعية وارادت ان تعيد عجلة الزمن الى الوراء بالجمع بين السلطة والثروة فدخلت فى مشاريع مع حاشية السيدة جيهان السادات ونصابين عصر الانفتاح ولم ينقذها من براثنهم سوى عمها حمدى بك .

حدثتنى عن الطلاق من كرامة على الغداء ، قالت :

ـ رجع الى اصله . لا فائدة منه .

لا يضحكنى فى ورثة اسرة محمد على باشا والعائلة المالكة السابقة شىء قدر حديثهم عن الأصل والنسب . قلت لها :

ـ لنترك حكاية الأصل والفصل جانبا ، ماذا جرى ؟

قالت لى فى حسرة :

- أصبح كرامة لا يحس بوجودى مهما طال حديثه الىّ . ينظر الىّ ولا يرانى . اذا بدلت ملابسى أو غيرت قصة شعرى أو وقفت امامه نصف عارية لا يلمحنى ولا يشعر بوجودى . واذا سألته شيئا اجابنى فى كلمات مقتضبة وهو الذى كان يجلس تحت قدمى متغزلا فى رقتى وحلاوتى .

استمعت اليها ، وبعدها قلت :

- هذا هو الزواج ، الأزواج يشكون من برود الزوجات والنساء يشكون من تغاضى الأزواج عنهن .

كانت حالتها النفسية لا تسمح لى بالمزاح ، فكبحت جماح نفسى ، وساورنى قلق عليها بسبب اضطراب نظراتها ووجهها الساهم . لم يكن بها حزن او غضب ولكن يأس وقنوط من الحياة ، وكنت قد رافقتها فى شبابها المبكر عندما اصيبت بحالة من الاكتئاب قبل قيام حركة الجيش فى اواخر عام ١٩٥١ . واذكر اننى دونت شيئا فى مذكراتى عن حالتها وكانت والدتها الأميرة شويكار رفقى قد وقعت فريسة لنوبة عقلية وراثية فزاد الحمل على اللواء عويس .

كنت أتناول طعامى وبى شهية للأكل بينما كانت هى تقضم شيئا فى بطء لتشاركنى المائدة وليس الطعام وتبينت انها زادت نحولا ورقت هيئتها وبانت عظامها وترهل جسدها .

علمتنى الحياة ان الحديث لا يفيد فى هذه الحالات ، وسألتها عن ابسنت ، قالت :

- ابنتى بدأت تنحاز الى والدها ضدى . تنصره علىّ . وتبدو فخورة وسعيدة بتصرفاته الحمقاء . ضاعت تربيتى لها هباءً . هذا يكسر قلبى .

وانسالت دمعتان على وجنتيها . مسحتهما بسرعة ووضعت على عينيها نظارة شمسية داكنة . اخفت عينيها ودموعها عنى لكن تقاطيع وجهها وقد تحجرت قسماتها كانت تفضحها .

تبينت فجأة ان شفتها السفلى وقد تهدلت وسقطت بسبب نوبة بكاء تخفيها وتقاومها تشبه شفة والدها اللواء عويس تماما .

صدت نفسى عن الطعام وتوقفت عن التهام قطع الجمبرى المقلى التى اشتهيها واقبل عليها فى نهم . مسحت شفتى ، وفتحت حقيبتى واخرجت المرآة الصغيرة وانشغلت عنها للحظات بوضع الروج على فمى . كنت أرقب وجهى فى المرآة واتأمل عينى الواسعتين لأتحكم فى تعبيرات وجهى حتى لا أحرج مشاعرها عن غير قصد .

كنت أبحث عن كلمات أضعها على شفتى اللتين صبغتهما بلون قرمزى غامق وانطق بها حتى أخفف عنها ويبدو أنها رأتنى وأنا أدور الكلمات وأفتح فمى وأمط شفتى تارة الى اليمين وتارة الى الشمال قبل أن انطق بها ، فعاجلتنى ، قائلة :

- هذه ليست أزمة وتمر أو عاصفة وتهدأ . انها القطيعة .

وضعت المرآة واصبع الروج داخل حقيبتى ونظرت فى ساعتى وتأهبت للقيام وقلت لها :

- دعينى أفكر فى الأمر ومادامت المسألة مقصورة على عدم الكلام وليس الضرب فهى محتملة .

سألتنى غاضبة ، قالت :

- هل كنت تتصورين أننى اتركه يضربنى او حتى يرفع صوته فى وجهى ؟

تحدثنى وكأن روح اللواء عويس قد حلت بها وقد كان رحمه الله سريع الغضب ، حقيقة الآباء يخطئون والأبناء يأكلون الحصرم ، أحسست بأن روح اللواء عويس تظللنا ، قلت لها :

- ما أحلى ضرب العشاق ، وزعيقهم .

قلتها وأنا أتأوه ، وفى حسرة ، وكأننى أخاطب اللواء عويس وليس ابنته الحزينة الأميرة جويدان .

نظرت لى نظرة طويلة من تحت النظارة ، وقد أحسست بنظرتها تخترقنى دون رؤيتى لعينيها ، هذه النظرة تحسها المرأة عن بعد ، عندما ترقبها عيون الرجال من بعيد ولا تراهم ، ولكنها تحس بمتابعتهم لها .

قالت لى الأميرة جويدان بعدها .
ـ أمرك عجيب ياسمو الأميرة .

صمت برهة ، غبت فيها عن الوجود ، سرحت ، ورأيتنى فيها التقى باللواء عويس وكان يطيب له التجول فى جناحى فى الزمالك عاريا ، وهاهى ابنته تطلب نصيحتى .

أفقت على سؤالها لى :
ـ ما رأيك ؟

قلت لها على الفور :
ـ سوف أفكر فى الأمر .

العواطف اذا كسرت لا سبيل لإصلاحها ، والجدل لا يرمها ، فبحور النفس البشرية لا تعترف بمنطق ، ودعوتها الى صحبتى إلى حفل استقبال فى بيت الملحق الثقافى الأمريكى .

قالت متأسفة :
ـ لا أقدر على الذهاب دون دعوة رسمية ، وأنا زوجة دبلوماسى مصرى .

قلت لها :
ـ هذا حفل فى بيت المستشار والدعوة غير رسمية للترحيب بعازف بيانو قادم من الولايات المتحدة وقد دعانى المستشار وقال لى احضرى معك رفيق او رفيقة .

قالت :
ـ لا اقدر . وضعى لا يسمح .

ادركت فى تلك اللحظة انها لا تزال متعلقة بكرامة وانها تعانى من خيبة أمل أو غيرة غير ان عنادها قد يدفعها الى الطلاق .

قلت لها :
ـ ما رأيك ؟ سوف اعتذر عن عدم الذهاب ونلتقى عندى على العشاء .

قالت :

ـ هذا أفضل . وابسنت مدعوة اليوم إلى عشاء خارج البيت مع قريب لكرامة من العزبة .

لم اعلق على قولها ، ولم أسألها عن هذا الضيف المفاجىء ، ومن فى اسرة كرامة فى مقدوره القدوم الى جنيف ؟

دفعت الحساب وقمنا .

اتجهت الى سيارتها المرسيدس الضخمة وانتظرت حتى جلست الى عجلة القيادة وبدت لى كعصفورة صغيرة داخل تلك السيارة ، اما أنا فقد اخذت سيارتى الفولكس الصغيرة وانطلقت خلفها حتى غادرنا الجراج واتخذ كل منا مسارا مخالفا .

كان على دعوة مجموعة من أناس تستريح لهم جويدان ويخفف وجودهم عنها الإحساس بالوحدة . قلت لنفسى : المرأة لا تعيش دون حب .

حقيقة المعارف كثيرون أما الأصدقاء فقلة . وهذه المشكلة تصادفنى فى كل مرة أقرر فيها استضافة اناس فى بيتى . وقررت ان اترك الأمر للمصادفة .

هل الحياة قصيرة جدا وأقصر مما نتصور كما قال لى أنور سلامة هذا الصباح ؟

الحديث مع هذا الرجل متعة ، كلماته تفتح فى قلبى ينابيع التأمل والتفكير ، وركنت سيارتى على مقربة من باب ٦ ، وتوجهت الى مكتب البريد ، وطلبت من السفرجى الاتصال بمطعم النيل ، واعداد بوفيه شرقى لعشرة أشخاص للعشاء الليلة .

كان أمامى عشرون دقيقة قبل بدء نوبتى فى الترجمة فى مؤتمر نزع السلاح فتوجهت الى البار لتناول القهوة ، ولعلى أجد من أدعوه على العشاء .

رأيته جالسا وكأنه ينتظرنى ، وتناولت قهوتى وتوجهت الى مائدته ولم

يكن وحيدا . عرفني على رفيقه ، قال :

ـ الدكتور على سموحة . ياسمو الأميرة جلبهار وعائلة سموحة من اكبر العائلات نى الإسكندرية . وهذه قصة اخرى أحب ان احكيها لك .

رحبت بالرجل ، وتناولت رشفة من فنجان القهوة ، قال زميلى أنور سلامة :

ـ أنت اليوم مدعوة على العشاء معنا . زوجتى والدكتور على وأنا وذلك اذا سمح لى بمشاركتكم .

ابتسمـت .

عاجلنى بقوله :

ـ لن اقبل الاعتذار ياسمو الأميرة . هذه فرصة . الدكتور على سوف يعمل معنا لمدة شهرين وهو صديق ورجل . ويكفى قولى رجل . لأن له قصة سوف ارويها لك أو اتركه يرويها لك بنفسه .

تأملت الدكتور على سموحة وجدته لطيف المعشر ويجلس هادئا وعلى وجهه ابتسامة مريحة وفى عمر أنور سلامة .

قلـت :

ـ اسمع ياأنور . زوجتك والدكتور على وأنت ضيوفى الليلة .

قال مقاطعا :

ـ أنت أهل كرم و ...

قلـت :

ـ وسوف اترك لك دعوة خمسة اشخاص تختارهم بنفسك .

سألنى ، قال :

ـ هل اليوم عيد ميلادك ؟

قلت له ضاحكة :

ـ اليوم ذكرى عزيزة على نفسى .

دعك راحة كفيه ، ونظر بعيدا ، وقال :

- ونحن نحتفل معك بهذه الذكرى ، ما قولك يادكتور ؟

فتح الدكتور على فمه ، وتبينت انه لا يحرك ذراعه اليسرى ، قال :
- ارجو ألّا يكون وجودى مزعجا لأحد .

قلت له على الفور :
- حضرتك تشرفنى يادكتور .

حل موعد ذهابى الى الكابينة ، قلت :
- سوف اعتمد عليك يأنور فى دعوة من تشاء من الأصدقاء .

اعترض قائلا :
- ياسمو الأميرة ..

تناولت حقيبتى وقمت ، قلت :
- العمل واجب .

ضحكنـا .

اللوحة الجدارية أمامى ، الوانها الزاهية تأسرنى كلما تأملتها وأحس بروح اللواء عويس تصحبنى فى عملى وتشجعنى ، وكنت قد سألت عن تلك اللوحة وأصلها وفصلها وعلمت انها لفنان اسبانى اسمه خوزيه ماريا سرت واسم اللوحة "المنتصرون والمنهزمون" وخمسة من العمالقة يحيطون بهم لضمان السلام ومن بعيد فى عمق اللوحة اطلال مدينة سلامنكا الاسبانية التى يعود لها الفضل فى تطوير قواعد القانون الدولى فى القرن الـ ١٦ .

الحياة مجموعة من الانتصارات والهزائم والرابح الوحيد هو الموت ولم يخلق بعد ذلك البطل الذى فى مقدوره القول : إننى انتصرت .

هو حوار طرشان يسهم فيه مجموعة من الدبلوماسيين المدربين على الكلام ونترجمه كما هو لمجموعة اخرى من الدبلوماسيين العرب .

وقامت معركة بين السفيرين السوفييتى والأمريكى حول اجراءات التحقق والرقابة على الأسلحة الكيميائية وقدم تعديل على المواد المقترحة رفضه السفير السوفييتى على الفور .

لمحت السفير عبدالرءوف الريدى يتابع الحوار الدائر ويسجل ملاحظاته فضحكت .

حدثت مداخلات من الدول الغربية والشرقية اتسمت بالحدة استوعبت بعضها وفاتنى بعضها والمترجم المحترف يعمل بصورة آلية متلاحقة حتى يلحق بالمتحدث وتفوته المعاني لكننى من كثرة الترجمة فى مؤتمر نزع السلاح اصبحت خبيرة بنوعية القضايا المطروحة والخلافات حولها .

فى نصف ساعة وانتهت نوبتى وتركت الكابينة لزميلى الدكتور عماد وحيد وتسللت الى البار حتى اجدد نشاطى بشرب القهوة .

نزلت السلم ، ومررت على غرفة المراسلين الأجانب وتوجهت الى البار مباشرة ، وطلبت قهوتى وجلست الى مائدة خالية ، وبى رغبة حميمة قاتلة فى البقاء بمفردى حتى أريح رأسى من عبء الترجمة وهمها وقد راودنى إحساس بالملل من عملى كل هذه السنوات وأصبحت أشوق للتقاعد وقلت لنفسى :

ـ هانت ياجلبهار هى شهور أقل من عام .

ضاعت أيامى فى طاحونة الترجمة وامضيت حياتى فى عمل متواصل خوفا من الوحدة وحافظت على استقلاليتى وهاهى قد حلت ساعة المواجهة : لا ابن ولا ابنة ولا زوج .

قلت لنفسى :

ـ أنت ياجلبهار مستقبلك خلفك . وزادك هو ذكريات . ودفاتر أيامك مليئة باحداث صغيرة ولقاءات عابرة . وكلها عدة سنوات قادمة اقل من أصابع اليد الواحدة ومصيرك فى بيت للمسنين .

ورأيت نفسى وسط مجموعة من العجائز ، وارتعشت اطراف اصابعى ، هذه حياة ميتة ، والموت لى افضل من قضاء ايامى فى عزلة . هذه قسوة من الطبيعة على جنس النساء ، فالرجال يدفعهم شبقهم الجنسى للتعلق بالحياة والجرى وراء النساء اما المرأة فيذبل جمالها وتنكفىء على ذاتها تفتش فى جعبتها عن مشاعر دفينة أثرت حياتها ويا ويل من كانت جعبتها

خالية من قصة حب فسوف تذبحها الساعات والدقائق والثوانى فى شراسة .

قلت لنفسى :

ـ هذا قدرك .

عشت فى غربة متصلة ، فى طفولتى المبكرة ، طردت من مصر بسبب طمع الملك فؤاد الأول فى اطيانى واملاكى التى ورثتها ورحلت الى باريس قسرا للدراسة ولم اعد الى مصر الا فى سنة ١٩٥٠ بعد ان سمح لى جلالة الملك فاروق باستعادة املاكى واطيانى من الخاصة الملكية وعاوننى اللواء عويس والد الأميرة جويدان فى انتزاع ثروتى من فم الأسد .

هى سنوات قلائل عشتها فى مصر فى كنف اللواء عويس واغرقنى فيها فى بحور العشق وخبرت فيها اسرار العائلة المالكة عن قرب حتى وقع الانقلاب المشئوم فغادرت مصر بعد ان هربت ثروتى ومجوهراتى بمعاونة واحد من مجلس قيادة الثورة .

استقر بى المقام فى جنيف كموظفة دولية لا كلاجئة سياسية وقطعت صلاتى بالأميرات والأمراء من العائلة المالكة السابقة وعشت حياتى يوما يوما .

لست نادمة عما مضى وان كنت خائفة من ايامى المقبلة .

كنت أود العودة الى مصر والاستقرار فيها على مقربة من السيدة جيهان السادات لكن مصرع الرئيس على هذا النحو الفاجع الدامى كرهنى فى العودة .

غربة فى الشباب وغربة فى الشيخوخة . وأنا ابنة وحيدة .

كان فى مقدورى العمل فى مجال صناعة الأزياء والموضات وكموديل ايضا لكننى خفت من حياة اللهو المسلية فعمرها قصير جدا واحترفت الترجمة وجعلتها مهنتى فى الحياة .

كل الناس تعمل من أجل أكل لقمة العيش أما أنا فأعمل من أجل محاربة

الزمن وتحقيق ذاتي .

زميلي الدكتور عماد وحيد دائما يشاركني الترجمة في دورات نزع السلاح ودراسته العلمية تسعفه في فهم ابعاد الأمور اكثر منا نحن جمهرة المترجمين المحترفين .

سألت الدكتور عماد وحيد ذات مرة ان نضع سويا كتابا في القضايا الرئيسية لنزع السلاح ، فنظر لي خائفا وقال :

- ياسمو الأميرة أنا عندي طفلة صغيرة واود تربيها .

في البداية لم افهم مقصده ، قلت له :

- سوف اتفرغ لجمع الوثائق الأساسية .

قـال :

- ياسمو الأميرة انا مترجم ، ما اسمعه في الكابينة انساه عند نزولي على السلم . لا اتذكره ولا أود تذكره .

سألتـه :

- كيف يادكتور ؟

اجابني ضاحكا ، قال :

- حالة من التخلف العقلي .

شاركته الضحك ، قال :

- معك حـق .

نظر حوله متوجسا ومتأملا وجوه الجالسين حولنا وجها وجها وبعدها قال :

- اذا كانت هناك معركة عسكرية فهل يسمح للقادة بنشر دراسات عن الأسلحة ؟ نحن في ذورة الحرب الباردة والصراع على اشده بين الشرق والغرب ومناقشة قضايا نزع السلاح الهدف منها اعطاء شرعية لسباق التسلح واللعب في هذه الحلبة مآله الموت بضربة من مظلة مسموم سنها أو ...

وجد بغيته فى صحبة الغانيات الشقراوات ، وكنت اراه فى ردهات الفنادق جالسا الى اكثر من امرأة ساقطة مستمعاً لهن فى ود ، ولا اعتقد انه كان يسمعهن الشعر ، بل كان يتأملهن فى وجد ويعب الخمر .

هذا رجل قتله شبقه .

انتهيت من قهوتى . قمت . احس بملل وضيق . من لا يقضى على يد الغانيات يقتله الضجر .

سيارتى على مقربة من المبنى الجديد فى الناحية الأخرى وتشاءمت من الصعود الى الطابق الثالث وعبور تلك الطرقة الزجاجية المسكونة بالأشباح ، وفضلت السير فى ممرات الطابق الأول المهجورة .

الكافتيريا والمطعم مغلقان ، والممر الطويل غارق فى صمت مريب وخالجنى خوف ، فهنا الجريمة تكون كاملة ، وسرت لا أسمع سوى دقات قلبى ، وضربات كعب حذائى .

فى نهاية الممر ، كان المصعد خاليا ، فدلفت اليه ، وضغطت على اشارة الطابق الثالث غير أن المصعد هبط بى الى الطابق السفلى تحت الأرض ، تركت المصعد اتطلع الأمر ، وجدت مجموعة من العمال ينقلون مطابع جديدة .

التفت الى واحد منهم ، قال :
- ايها السيدة الجميلة المحترمة . هذا المصعد معطل . طالع نازل .

تبينت انه يحادثنى بالايطالية ، قلت :
- ايها الرجل المحترم ، اين المصعد الآخر ؟

ترك الرجل رفاقه ، قال :
- هذه السيدة الجميلة غريبة فى هذا القصر المسحور .

وتقدمنى بخطوة فى الممر .

اسقط الرجل هذه المرة صفة المحترمة واكتفى بالجميلة واردت مجاملته فقلت له :

- انت فارس حقيقى .

نظر الىّ برهة متأملا وجهى وشعرى ، وقال :
- هذا زمان ردىء والفرسان لا مكان لهم ، لكن من نعم السيد المسيح علينا ان به سيدات جميلات شقراوات مثل حضرتك .

سألته ، قلت :
- هل تحب الشقراوات ؟

اجابنى وهو ينظر فى عينى ، قائلا :
- قلبى اخذته شقراء فى أول ثانية وقعت عيناى فيها على عينيها .

ضحكت من قلبى ، قلت :
- اذا حدث وتقابلنا ثانية ، فانت ضيفى على الغداء .

قـال :
- سوف اتضرع الى المقادير ان ترتب هذه المصادفة الحسنة .

جاء المصعد ، سألنى :
- الـى ايـن ؟

قلـت :
- سيارتى امام باب اربعين .

سألنـى :
- هل تسمحين لى بصحبتك الى باب السيارة ؟

قلـت :
- يسعـدنـى .

فى المصعد كان صامتا ، وحل بى تعب مفاجىء ، وأحسست بضيق تنفس ، ودوار شديد ، وتمنيت ان امسك يده أو استند الى كتفه ، لكننى تحاملت على نفسى .

هذه الحالة قد تكررت عدة مرات فى الشهرين الماضيين .

نظرت اليه وتحيرت ، هل اصرفه بعيدا عني ؟ من السهل على ان افتح حقيبتي واتناول منها اصبع الروج أو علبة البودرة وأتوقف برهة وادعك شفتي ووجنتي امامه ، اما ان اتوقف واخرج حبة كي اضعها تحت لساني أو ارش سقف حلقي بالبخاخة فهذا يعني انني انتحر امامه واحكم على انوثتي بالموت .

هذا غريب عني ، عامل بسيط قابلته مصادفة منذ دقائق لكنه جعلني ادقق في تصرفاتي بينما الموت يقترب مني .

الحيطان أحس معها بالأمان وتلكأت في وقفتي الى جوار المصعد فخطوة الى الخلف واستند بمرفقي الى الحائط بينما سيارتي هناك امام باب اربعين ويفصلني عنها بهو واسع كالبحر .

اتساع البهو ، جعلني اطوف في الزمان واتذكر اللواء عويس عندما كان يتهرب مني ويرفض لقائي في سنوات مرضه قائلا :
- المرض عورة ياسمو الأميرة ، والفلاح الحقيقي لا يكشف عن مرضه امام الأغراب .

لا خوف عليّ هنا ، فعشرات من الناس حولي ، قلت :
- شكرا ايها السيد .

نظر اليّ في تردد ، قال :
- ليلة سعيدة أيتها السيدة الجميلة المحترمة .

ابتعد عني . وبقيت كلماته معي ، وسرتُ وسرتُ وكأنني اغوص واطفو في رمال ناعمة ، وقبل ان اسقط ، رأيته مقبلا ناحيتي ، قلت :
- كرسي يامحروس .

هي دقائق وكنت في العيادة وحولي مجموعة من الأطباء والممرضات والزملاء والزميلات .

لحقت بضيوفي في وقت مناسب ، وقررت ألّا ازعجهم بما جرى لي بعد انتهاء عملي ، ربما وجهي شاحب بعض الشيء ، لكنني استعدت نشاطي كاملا ، وبي رغبة للأكل ، وشهية للضحك ، والثرثرة .

اذا كانت هذه صحوة ما قبل الموت فما اجملها ، فالموت بين مجموعة من الأحبة خير من السقوط والقضاء فى ممر الطابق السفلى أو بهو الطابق الثالث الواسع .

تقدم محروس ناحيتى مسرعا وامسك بيدى واسندنى الى الجدار بينما حمل زميل له الكرسى وقدم به ، وكانت آخر كلماتى التى اذكرها :

ـ كرسى يامحروس .

تعجبت فى تلك اللحظة ، فقد كان محروس يسندنى الى صدره ويدفعنى للوقوف بركبته ، وفى ذات اللحظة يحضر الكرسى لى ، ليجلسنى ، قلت لنفسى :

ـ محروس موجود فى كل مكان .

كانت مجموعة ترتدى الملابس البيضاء تندفع نحونا جريا ، فضحكت وسألته :

ـ ماذا جرى يامحروس ؟

اجابنى ، قال :

ـ انت بخير ياسمو الأميرة .

قبل ان تمسك الطبيبة يدى لقياس النبض والضغط ، سألته :

ـ محروس . من ابلغ العيادة ؟

ضحك .

شغلتنى الطبيبة عن محروس ، ونقلت الى العيادة ، على الكرسى ، وهناك ، اعطيت مجموعة من الأدوية والحقن ، وطلب منى الاسترخاء على سرير لمدة ساعة ، فنعست .

القيت نظرة على البوفيه ، كانت كميات الطعام مناسبة وشهية ، وطلبت من أنور سلامة افتتاح البوفيه ، فتنازل للأميرة جويدان ، وبينما ارحب بالضيوف واشكر الدكتور على سموحة على تشريفه ، دق جرس التليفون ، كان محروس ، يسألنى عن صحتى ، قلت :

ـ تعال يامحروس . عندى مجموعة من الاصدقاء على العشاء .

اعتذر عن المجيء ، قال :
ـ آسف على الإزعاج .

اصر على موقفه ، قال :
ـ العفو ياسمو الأميرة .

قلـت :
ـ تعال يامحروس . وكف عن هذا التعالى .

تلعثم ، قال :
ـ ياسمو الأميرة .
ـ قلت :

ـ تعال . لا تتعبنى .

قـال :
ـ حاضـر .

وضعت السماعة ، كان الدكتور على سموحة مشغولا بالحديث الى الأميرة جويدان ، فاسترحت ، والتفت الى حرم أنور سلامة ، ارحب بها وفجأة . قلت لها :
ـ يابختك يامدام بزوجك . تصورى طوال اربعة عشر عاما طويلة عريضة عملنا سويا ، لم يلتفت مرة لفستان جديد لى ، أو قصة شعر جديدة .

ضحكت مدام فاتن ، وافتر ثغرها عن اسنان جميلة ، قالت :
ـ انور سلامة لا يفرق بين جلابية البيت وفستان الخروج . بعد زواجنا بشهر أو شهرين كان علينا القيام بزيارة فى مناسبة مهمة ، وسألته ، ياأنور ما رأيك فى هذا الفستان ؟ نظر الىّ وقال ، جميل يافاتن . لكننى كنت غير راضية عن الفستان ، فبدلته ، وسألته ، رأيه ، فاجابنى نفس الاجابة ، فبدلت الثانى ، والثالث والرابع وفى كل مرة اتلقى نفس الاجابة ، حتى فرسنى ، قتلنى ، واخيرا ، وضعت على جلابية المطبخ وفوقها الفوطة ،

وعصبت شعرى بمنديل ، وكأننى ذاهبة لتنظيف السطوح أو العمل فى عزق الحديقة ، وقلت له ، هيا بنا ياأنور ، أنا جاهزة ، فى هذه المرة لم اسأله رأيه ، وهو لم يقل لى شيئا ، وقاد السيارة وأنا الى جانبه ، فى طريقنا الى موعدنا ، اخذ يحدثنى ، وأنا مقتولة من الغيظ ، وقبل وصولنا الى مقصدنا ، طلبت منه ان يصحبنى الى بيت والدتى لسبب مهم لدقائق فقط ، فقال ، حاضر .

وتوقفت مدام فاتن عن الكلام ، وهى تضحك ، قالت :

ـ ما جرى فى بيت والدتى أنور يرويه لك .

التفت اليه ، ناديته ، قلت :

ـ تعال ياأنور .

قل وهو يدعك يديه :

ـ الأميرة جلبهار وزوجتى ، خير ان شاء الله .

واكمل لى أنور الحكاية بذات الطريقة التى يتحدث بها عن انقلابه الفاشل ضد جمال عبدالناصر . كلماته حيادية ، باردة ، قال :

ـ فجأة ضربت فاتن بالصوت الحيانى من أعلى درجات السوبرانو وهى تطلب الطلاق .

استمر أنور سلامة فى حكايته ، وأنا ميتة من الضحك ، قال :

ـ الطلاق ياأميرة جلبهار فى عرفى مسألة جادة ، وهى مسألة مكروهة جدا ولكنها واردة ايضا مثل بقية مصائب الحياة . قلت : يافاتن أنا على استعداد تام لمناقشة هذه المسألة ولكن ليس قبل عشرة أيام .

شدتنى حماتى من يدى الى غرفة جانبية ، وسألتنى :

ـ لماذا سحبت فاتن من شعرها وبفوطة المطبخ الى هنا ؟

قلت لهـا :

ـ ماذا تقولين ياحماتى ، نحن كنا فى طريقنا لحضور حفل زفاف .

قالـت :

ـ حفل زفاف ياأنور بفوطة المطبخ ؟ حفلة تنكرية هى ؟

قلـت :

ـ فاتن وضعت عليها اغلى فستان ، ثمنه اربعمائة جنيها ، وسألتنى رأيى ، قلت لها جميل يافاتن ، ويبدو أنها بدلته من ورائى .

ضحكت حماتى ، قالت :

ـ ياخسارتك ياأنور .

كنت اتابع أنور سلامة وأنا ميتة من الضحك ، الى درجة اننى لم اعد اقوى على الوقوف ، قلت :

ـ نجلس وتكمل لنا الحكاية .

قال أنور سلامة :

ـ خرجت الى الصالة وكانت دهشتى كبيرة فقد كانت فاتن متنكرة فى زى غسالة ، فقلت لها غاضبا ، هذا حفل زفاف ابنة نائب رئيس الوزراء ياحبيبتى وليس حفلة تنكرية .

فاجابتنى فاتن ، قالت :

ـ نسيت ياأنور . وانتهى الأمر .

ضحكت وضحكت .

كنت أقول لنفسى ، لقد أحسن جمال عبدالناصر بالقبض على أنور سلامة ورفاقه ، فكيف يتسنى لرجل لا يلحظ فستان زوجته حكم مصر ، الملك فاروق كان يعرى المرأة من أول نظرة ويمتدح اكسواراتها بل وملابسها الداخلية ايضا .

بعدها استدركت ، قلت لنفسى : كان الملك فاروق يفعل ذلك مع صديقاته من الغانيات وليس مع زوجته وأم بناته . وتعاطفت مع أنور سلامة . ورميته بنظرة حانية وضبطتنى زوجته ، فاحسست بخجل .

كانت الأميرة جويدان تتابع الحديث مع الدكتور على سموحة حول الخشب وانواعه وطرق تخزينه والنقل البحرى وكأنها مقبلة على اجراء صفقة تجارية ضخمة .

وتعجبت .

وتركتهما يتحدثان فى ركن من الصالة .

كان السفرجى مشغولا بمراقبة البوفيه ، سألته :
- فيه حاجة ناقصة .

اجابنى ، قال :
- البوفية معد لاستقبال عشرة اشخاص .

تذكرت اننى طلبت من أنور دعوة بعض الأصدقاء بمعرفته ، سألته ، فاجابنى ، قائلا :
- مجموعة الزميلات والزملاء سوف يصلون بعد ساعة .

استرحت ، قلت :
- اهلا وسهلا .

انسحبت الى غرفتى ، وبدلت ملابسى ، وتسريحة شعرى ، ووضعت قليلا من المكياج على وجهى ، وقد تبينت ان لونى شاحب ، والإرهاق على وجهى ظاهر بعد ان ارتسمت دائرتان سوداوان تحت عينى ، وبانت تجعدات على رقبتى .

كنت اطمع فى اخذ حمام ينعشنى ، لكننى تكاسلت واكتفيت بدعك جسدى بكولونيا منعشة ، قلت لنفسى ، هاهى متاعب الجسد ياجلبهار . لا يخفيها الشعر الكستنائى الناعم ولا المكياج الصارخ ولا الملابس الغالية .

دقت الدادة على بابى ، سألتنى :
- اية خدمة ؟

طلبت منها الدخول والبقاء الى جوارى ، سألتها :
- ما رأيك فى هذا العقد ؟

قالت :
- فاتن ياسمو الأميرة .

ضايقنى اطراؤها ، وهى عادة قليلة الكلام ، طلبت منها الخروج وان

تتركنى بمفردى ، الجميع يطروننى اليوم ، فى الساعة التى احس فيها بانتهاء عمرى الافتراضى مثل السيارة والثلاجة ، وكأنهم يودعوننى .

خجلت من تناول الحبة امام العامل الايطالى حتى تهاوت مقاومتى وتصدعت قواى ـ قلت لنفسى : هذا عيب . الشاب فى عمر ابنك ياجلبهار ، وبعدها قلت لنفسى ضاحكة وأنا انظر الى المرآة ، ربما لهذا السبب خجلت ، ولو كان كهلا ما اهتممت به وكنت قد اخرجت البخاخة امامه ورششت سقف حلقى وجددت نشاطى .

كان ظريفا معى ، ووسامته فائقة كتمثال رومانى ، ووجهه قتلنى ، ولما قال : أيتها السيدة الجميلة المحترمة ، كنت قد تعلقت به .

انتهيت من زينتى ، قلت لنفسى ، اذا كنت قد اخفيت ضعفى عن هذا العامل فأنا لن أشير بكلمة واحدة بما جرى لى أمام ضيوفى الليلة .

افتقدت وجود الدادة الى جوارى ، كنت أود ان تبقى معى وأنا اتزين حتى لا تدهمنى خواطرى وتفسد علىّ دقائق زينتى ، لكن إطراءها اغضبنى وهى الصامتة دوما .

ألقيت نظرة اخيرة علىّ قبل خروجى ، قلت :
ـ أميرة مغربية أو تركية فى قصر عبدالحميد .

ثم اكملت لنفسى :
ـ أو جارية فى قصر شهريار اللعين .

كل امرأة فى داخلها جارية عيناها على الموضة وعلى الرجال وأنا جاريتى التى فى داخلى فتاة لعوب تود الانطلاق وتعشق اللهو لكننى دربتها على الكتمان والجدية وجعلت منها جارية متكبرة لا تسلم جسدها ابدا .

خرجت الى ضيوفى ، ولم اغب عنهم سوى دقائق قليلة ، قالت لى فاتن زوجة زميلى أنور سلامة :
ـ جميلة ياسمو الأميرة .

قالتها لى همسا ، ثم نادت على زوجها ، وسألته :

- ما رأيك يا أنور فى فستان سمو الأميرة ؟

دعك راحة يديه ، ونظر الى سقف البهو ، قال :

- الأميرة جلبهار دوما اميرة .

سألته ، قلت :

- ما رأيك فى هذا العقد يا أنور ؟

خفض رأسه ونظر الى قدمى وتأمل السجادة ، قلت :

- أنا اسألك عن العقد وليس عن خلخال يا أنور .

كنت قد وضعت على رقبتى شالا بنفسجيا اخفى به التجعدات ووضعت عقدا من الزبرجد يتدلى على صدرى البارز ليستقر على فستان أحمر قانٍ مزين بالقصب .

ضايقتنى النبرة التى قال بها : الأميرة جلبهار دوما اميرة وذكرتنى بقول الكاتب الأمريكى وليام فولكنر الشهير : عاهرة يوما دوما عاهرة .

قلـت :

- زوجك يافاتن يقتلنى ، واذا بلغك اننى انتحرت أو مت كمدا فانت تعرفين السبب .

اكمل أنور سلامة ، قال وهو ينظر الى السجادة :

- بعد هزيمة ٦٧ التى قتلتنا جميعا توجهت الى الفريق ..

قاطعته ، قلـت :

- زوجك يافاتن هانم صارحنى باننى كنت سوف اقتل اذا نجح انقلابهم ووقتها كنت فى عز شبابى .

قال أنور سلامة :

- بيدى ياسمو الأميرة ، أنا مقاتل محترف ، والتاريخ لا يرحم ، كنا ..

قلت ضاحكة :

- ده أنا كنت زى القمر يا أنور ، تقتلنى برضه .

قال أنور سلامة وكأنه لا يرانى أو يسمعنى وتابع حديثه المفصل حول

هزيمة ٦٧ ، ومكملا ما بدأه :

- تسللت الى صحراء سيناء ومعى ثلاثة من الجنود المتطوعين وسعيت لعقد لقاءات مع قادة العربان لتسهيل بعض العمليات الانتحارية ولجمع السلاح الذى تركه الجيش . احتك بى أحد الخونة من العربان ، رفضت الحديث اليه ، واعلنت عن رغبتى فى مقابلة احد شيوخ القبائل صاحب السمعة الحسنة والتاريخ الوطنى وفقا لمعلومات زودت بها فى القاهرة . كلمته فى البداية بالحسنى ووفقا للاصول التى اعرفها جيدا . دعوته لتناول الطعام ، فرفض ، عرضت تزويده بكيسين من الدقيق ، رفض ، قال انه لا يقبل سوى الدولارات او الجنيهات الذهبية ، ادركت أنه من صغار العربان وليس كبيرا فى قومه ، فنصحته بالابتعاد عن طريقى ، تطاول بالكلام فى سخرية واضحة من الضباط والجنود والشعب المصرى باكمله ، تركته يتطاول حتى وقع فى شر اعماله ، قال ، انه يأكل بمفرده خمسة ضباط ويحلى بعشرة عساكر ، تناولت "الكلوب" قربته من وجهى ، طلبت منه ان ينظر لى لأننى اضحك على كلامه ، تمادى ، قلت له ، شيئا من النصائح ، واشهدت عليه رفاقه ، وكنت اذكره بكل كلمة ، واطلب من رفاقه ترديدها ، واقول لهم ، اللهم اشهد علىّ فأنا برىء من دم هذا الظالم المتكبر .

توقف أنور سلامة عن الحديث برهة ، ودعك يديه ، بعدها اكمل ، قال :

- لن اطيل عليكم . طلبت منه الاقتراب منى ، فقدم منفوخا ، وماهى الا دقائق حتى كنت قد لويت رقبته ، وغرزت اسنانى فيها ، وملأت كفى من دمه ، وشربته ساخنا ، وقلت لرفاقه انتم اسرى ، والا ...

قلت فزعة :

- اسكت ياأنور . اسكت .

قال فى هدوء :

- أنا ساكت ياسمو الأميرة ، لكنه الطبع ، والطبع يغلب .

عندما صحت فيه صارخة : اسكت ياأنور . كان صوتى قد ارتفع من

شدة فزعى ، اما هو فكان يحكى لنا هذه الفظائع بصوت خافت يشبه الهمس ويذوب رقة وعذوبة ، حتى احسيسنى باننى القاتلة بينما هو عاشق ولهان .

قــال :

ـ اسمحى لى بجملة اعتراضية واحدة ياجلبهار ..

قلــت :

ـ تفضل ياأنور .

قــال :

ـ فى ذلك الحين كنت مفصولا من الجيش واعمل بشركة نقل قطاع عام ، على كل حال ليس ذلك سرا ، شركة النيل للنقل البرى والأتوبيسات ، هذا للعلم فقط .

سألته ، قلت :

ـ لماذا لا تكتب مذكراتك ياأنور ؟

اجابنى ، قال :

ـ هذا سؤال الاجابة عليه معقدة جدا ، لأننى اذا كتبت سوف تنهار اعمدة كثيرة والله سبحانه وتعالى لحكمة آلهية قد امرنا بالستر .

قلت له فى سخرية :

ـ اى ستر ياأنور ، اذا كنت نويت قتلى وشرب دمى .

قال موضحا :

ـ هذه ليست خناقة ياسمو الأميرة ، اننا نتحدث عن التاريخ والصراع وبناء دولة .

قلــت :

ـ كنت لن اسامحك الى يوم القيامة ياأنور اذا كنت قد قصفت عمرى فى عز شبابى .

دعك يديه ، قال :

- مفهوم ياأفندم . مفهوم .

حضرت مجموعة من الزميلات والزملاء ، رحبت بهم وقد اسعدنى حضورهم وقد اطال كل منهم النظر اليّ ، وشد على يدي قائلا :

- كيف صحتك الآن ؟

ادركت ان خبر دخولى الى العيادة قد وصلهم ، كنت اقول ضاحكة :

- مثل الحصان .

سألتنى زميلة ، قالت :

- ماذا جرى ياجلبهار ؟

قلت لها :

- "دوخة" بعد انتهائى من العمل .

ثم اكملت :

- دلع بنات .

قالت :

- الحمد لله .

كنت ارى الشك فى عينيها وكأنها لا تصدقنى وقد ضايقنى ذلك الاهتمام وجعلنى أحس باننى مريضة فعلا ، فدعوتهم جميعا لشرب نخب زميلنا الدكتور على سموحة .

وصل محروس ، دعوته لشرب نخب الدكتور على سموحة ، فتناول كأسا من عصير الليمون وقال :

- فى صحة الجميع .

وزعت اهتمامى على الجميع ، رجالا ونساء ، وعيناى تتابعان محروس والسؤال على لسانى ، لماذا قدم اليّ فى اللحظة التى اوشكت فيها على التهاوى ، ومن ابلغ طبيبة العيادة ؟

احطته بعينى ، وحانت منه نظرة نحوى ، فضحكت ، ناديته ، قلت :

- من اخبرك يامحروس اننى فى حاجة الى مساعدة ؟

اجابنى ، قال :

- اخبرني زميلي فى الطابق الأرضى ، ان سيدة ربما تكون في حاجة الى مساعدة عاجلة تتجه الى الطابق الثالث ، فاسرعت ناحية المصعد ، هذا كل مافي الأمر .

سألته ، قلت :

- هل الطرقات والممرات ...

قاطعنى ، قال :

- نحن مهمتنا سلامة الجميع ، خاصة الزوار ، بعضهم يحس بإعياء ، أو يحتاج مساعدة ، آلاف الناس تتدفق على المبنى يوميا ، ونحن رجال الأمن نعتبر انفسنا فى خدمتهم جميعا .

قلت له :

- لم اكن بالمصعد بمفردى لحسن الحظ .

اجابنى ، قال :

- اعرف .

ضحكت من شفتى ، قلبى كان مشغولا ، قلت :

- تعرف من صعد معى ؟

قال :

- نعم . زميل جديد .

سألته ، قلت :

- اسمه ايه ؟

اجابنى ، قال :

- سنيور كانتورى .

قلت :

ـ كنت اظنه عاملا وقد ترك عمله لمرافقتى لإعجابه بى .

قــال :
ـ هذا واجبه .

قلــت :
ـ لم يكن معجبا بى !!

اجابنى ، قال :
ـ حذار من الطلاينة والأسبان ، كلامهم مثل السكر ، وغزلهم رقيق وصريح .

ضحكت ، قلت :
ـ انت تعرف ماذا قال لى .

ضحك ، قال :
ـ لابد انه قد بدأ حديثه قائلا لك : أيتها السيدة الجميلة المحترمة .

قلـت :
ـ بالضبـط .

ضــحــك .

احسست بخيبة أمل ، وادركت كم كنت غبية ، فقد حادثنى كما يحادث بقية النساء ، وقد صحبنى لأننى فى حاجة الى مساعدة ، وربما بأمر من مسئول ، وليس حبا فى أو اعجابا بى .

قلت لنفسى : اذا لم يكن معجبا بى ، فيكفينى انه يعجبنى ، وجهه قاتل ، وجه لا يرى الا فى افلام بازولينى أو فللينى .

هذا وجه من تراه لا تنساه ، ويبدو اننى آخر من يعلم .

اقتربت من الزميلات ، كن يبتسمن ويتهامسن فى حلقة نسائية وبصوت خافت ، قلت : هذه فرصتى .

كانت سميرة تضحك فى عنف وصخب بينما علا المجد تقف امامها صامتة ، قلت :

ـ ما الحكاية ؟

قالت سميرة:

ـ هل رأيتهِ ؟

تساءلت ، قلت :

ـ مــن ؟

قالت سميرة :

ـ قاتل النساء ومعذب القلوب سنيور كانتورى .

ضحكت ، قلت :

ـ تشرفت اليوم بمعرفته .

قالت علا المجد مبتسمة فى خبث :

ـ يبدو انه يفضل الشقراوات ولا يلتفت الى السمراوات .

قلت لها :

ـ فرصتى كبيرة ، وقد غازلنى اليوم قائلا : أيتها السيدة الشقراء الجميلة المحترمة .

شدتنى سميرة ناحيتها لتقربنى منها ، سألتنى :

ـ ماذا قال لك ايضا ؟

قلت ضاحكة :

ـ طلب منى ان اسمح له ليصحبنى الى عربتى عند باب ٤٠ لكننى رددته .

قالت سميرة :

ـ طاوعك قلبك لرفض طلبه . انت جبارة ياجلبهار .

قلت ساخطة :

- لم يكن لدى وقت للحب .

وبعدها ، اضفت ، قائلة :

- جاء طلبه فى وقت لا يناسبنى . فى اللحظة الخطأ ، وتعيس الحظ من يأتيه الحب أو المال فى اللحظة غير المناسبة .

كانت علا المجد تسمعنا صامتة ، فى ترفع ، وكأنها تسخر من سذاجتنا او طيشنا ، أو قلة أدبنا ، فاضفت قائلة :

- صرفته عنى ، وبعدها جاءت الإسعاف لتنقلنى الى العيادة .

قالت سميرة ، ضاحكة :

- صرعة الحب . مسكينة .

قلت وأنا انظر الى علا المجد لأغيظها :

- لكننى لم اضيع الفرصة تماما ، دعوته على الغداء فى يوم ما .

قالت سميرة وهى تتوسل لى :

- ارجوك خذينى معك .

قربتها الىّ وحضنتها ، قلت فى حنان :

- حاضر ياحبيبتى .

قالت سميرة

- نفسى ، اجلس امامه وانظر فى عينيه وأتأمل وجهه عن قرب . اود ان اطبع صورته فى اعماقى ، فاذا حدث وانجبت ابنا فى يوم ما ، كان علىّ شاكلته .

ضحكت ، وابتسمت علا المجد فى خبث ، قلت :

- هناك طريقة اسهل ياحبيبتى لإنجاب طفل على شاكلته .

قالت سميرة فى سذاجة بنت الثالثة عشرة ، والبراءة فى عينيها :

- لا اعرف هذه الطريقة .

ضحكنا ، وتفرقنا .

اقتربت من زميلى الدكتور عماد وحيد ، كان واقفا بمفرده بالقرب من البوفيه ، وفى يده كوب من عصير الليمون ، قلت :

- ماهى آخر الأخبار ؟

اجابنى ، قال :

- وقعت فى آخر الجلسة مداخلة ساخنة بين السفيرين الأمريكى والسوفييتى حول المخزون من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية وانتهاك الاتحاد السوفييتى لكافة الاتفاقيات التى يتم التوصل اليها .

قلـت :

- لا أحد ينتهك الاتفاقيات قدر الإدارة الأمريكية ومبادرة حرب النجوم تتعارض مع نصوص اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية بشكل ظاهر لا يغيب عن طفل صغير .

قال الدكتور عماد وحيد :

- ياسمو الأميرة مبادرة الدفاع الأمريكية خطوة لغزو الاتحاد السوفييتى من الداخل . لتفتيته ، وهذا لم يفت وزير الخارجية السوفييتى الداهية جروميكو فالمبادرة هى قبلة السم على الطريقة الأمريكية ظاهرها برىء وباطنها خطير خطير .

قلـت :

- من حسن الحظ ان مؤتمر نزع السلاح لا يتعرض لهذه الأمور .

قــال :

- هذه أمور تخص القوتين الأعظم فقط ويتم التفاوض حولها خارج نزع السلاح واذا تم الاتفاق حولها جاءت لنا فى المؤتمر .

- سألت اليوم احد الصحافيين العرب حول التسمية الأفضل ، حرب النجوم أم حرب الكواكب ، فقال لى انه يفضل تعبير حرب النجوم ففيه شاعرية .

اجابنى ، قال :

- عرفته ، هذا شيوعى .

قلت له غاضبة :

- حرام عليك ، هذه تهمة خطيرة ، والرجل يكدح .

قال ضاحكا :

- اسـأليـه ؟

قلت له فى تحد ظاهر :

- سوف اسأله .

قـال :

- هذا الرجل كان معاديا للرئيس السادات ، ويكرهه كراهية شديدة .

قلت ضاحكة :

- كل من يكره السادات شيوعى يادكتور .

قال فى ثقة :

- نـعـم .

سألته فى براءة ، قلت :

- الذين اطلقوا النيران على السادات وأردوه صريعا شيوعيون .

اجابنى ، قـال :

- ياسمو الأميرة هذه قضية اخرى ، السادات كان يخاف الشيوعيين ، فجمع حوله مجموعات من السلفيين ، وسلحهم ، ورباهم لمحاربة الشيوعيين ، لكنهم انقلبوا عليه ، وخانوا الاتفاق ، من اذن قتل السادات ؟ الشيوعيون ؟

قلـت :

- هل هذا منطق يادكتور ؟

اجابنى ، قال :

ـ السياسة ياسمو الأميرة لا تعرف المنطق ، تعرف المؤامرات فقط .

قلـت :

ـ عيب عليك يارجل .

قـال :

ـ هذه هى الحياة ، ولنعشها كما هى .

قلـت :

ـ لـلأسـف .

زميلى الدكتور عماد وحيد يتحدث عادة فى أكثر الأمور جدية على نحو ساذج مضحك عن عمد ويبدو دائما كأنه أرنب مذعور ولا يفصح عن رأى خاص بعيدا عن العموميات الشائعة . بينما هو حجة فى العديد من الأمور بحكم دراسته العلمية المتخصصة وهواياته الغريبة التى تجمع بين اليوجا والموسيقى والفلسفة وقراءة الكف والطالع .

ربما هو الزميل الوحيد من مصر الذى يترجم من الفرنسية والانجليزية والعربية والعكس الى جانب الروسية التى يتقنها اتقانا كاملا بحكم دراسته الطويلة فى الاتحاد السوفييتى .

قلت لنفسى دوما عنه : هذا رجل مظهره لا يكشف عن مخبره . لكننى اخذت تحذيراته لى حول وضع قاموس أو كتابة كتاب حول قضايا نزع السلاح مأخذ الجد .

توجهت الى ركن الأميرة جويدان حيث كانت لا تزال منهمكة فى الحديث الى الدكتور على سموحة وقد طالت وقفتهما . اقتربت منهما ، وقد اسعدنى انشغالها بالحديث . قلت لنفسى لقد خرجت من عزلتها وهى ليست محبطة بالقدر الذى كنت اظنه لكنها ساخطة على زوجها كرامة سرحان السقا وقد تردت العلاقات بينهما ووصلت الى الحضيض .

قلت لها :

ـ حديث شيق :

ـ اجابتنى ، قالت :

ـ الدكتور سموحة اعطانى فكرة واضحة عن الاسكندرية واحوالها وشجعنى على العودة والإقامة فيها .

قال الدكتور سموحة :

ـ الأميرة جويدان لها خبرة كبيرة باقتصاديات التصدير والاستيراد ..

قاطعته ، قلت :

ـ لكنها خسرت اموالا كثيرة .

قــال :

ـ بسبب عدم معرفتها بالناس ، هؤلاء الذين تعاملت معهم لصوص ونصابون من عصر شاع فيه فساد عام .

قلـت :

ـ فكرة ، ما رأيك ياسمو الاميرة فى الإقامة فى الإسكندرية طوال شهور الخريف والشتاء ؟

ثم اكملت قائلة :

ـ اننى احلم بمدينة الإسكندرية .

نظرت الى فى تردد وكأنها لا تصدقنى وقد عاد الشك الى عينيها ، سألتنى ، قالت :

ـ صحيح ياسمو الأميرة ؟

قلـت :

ـ نعـم .

كان ذلك نزوة منى ، فقد اعربت عن رغبة حميمة تدفعنى الى العودة الى مصر بعد تقاعدى ، وقد عبرت عن رغبتى هذه فى لحظة ضعف وشوق وفى لحظة كنت فيها منهكة القوى من العمل ، لكن الأميرة جويدان ، أخذتنى من كلمتى ، وظلت تلح علىّ ويبدو انها قد بنت فى خيالها مشروعات كثيرة ، أو كأنها وجدت بغيتها فى الحياة أخيرا .

- ١١ -

شدتنى أوراق الدكتورة أوديت - رحمها الله - وجسدت لى أحداثا مضت ، بعضها نسيته وبعضها حملته داخل رأسى وبعضها طويت عليه غضاريف القلب وخبأته .

هذه ليست مذكرات كاملة أو حتى شبه مذكرات ولكنها مجموعة من الدراسات والوثائق حول وقائع واحداث بعينها رأت فيها المرحومة رأيا مخالفا فسجلته للتاريخ .

عندما فاتحنى أحمد السيد باشا بأمر هذه المذكرات لأول مرة بعد وفاة الرئيس جمال عبدالناصر تعجبت . فقد كان وقت الدكتورة أوديت مزدحما بالعمل الى درجة تمنعها من تناول الطعام الضرورى فكيف لها بكتابة مذكرات أو يوميات ؟

طلبت منه ضرورة تحقيق هذه المذكرات ووضع هوامش لها حتى تكمل الفائدة منها .

اجابنى ، قائلا :

- هذه مهمة زهية وابنها محمد نجيب . وسوف اشرف على عملهما بنفسى .

يبدو لى ان تحقيق هذه الأوراق قد استغرق منهما حوالى عشر سنوات أو أكثر قليلا هى جل حكم الرئيس السادات حتى اصبحت جاهزة للنشر .

وقد صدق الدكتور أحمد السيد باشا فى قوله فقد جاءت الأوراق فى صورة متكاملة وتجاوزت الهوامش صفحات المتن كما ان الرجل كان أمينا فأورد اقوال المعاصرين لها من أصحاب الآراء المعارضة للدكتورة أوديت

ولم يرد اسم من الأسماء فى الأوراق دون اتاحة الفرصة له لتوضيح وجهة نظره كاملة فيما جرى مهما كانت مخالفة لرأى صاحبة المذكرات .

هذه أمانة علمية تفتقدها الدراسات التاريخية فى الشرق ، والفضل فى ذلك للدكتور أحمد السيد باشا على الرغم من ان الدراسات التاريخية ليست مجال تخصصه كما انه لم يكن ماركسيا أو حتى يساريا بالمعنى الواسع فى يوم من الأيام .

توقفت كثيرا عند تحليل الدكتورة أوديت لأزمة مارس سنة ١٩٥٤ وقولها إن هذه الأزمة سوف تحكم مصر لعدة عقود قادمة وربما حتى نهاية القرن .

سجلت الدكتورة دور الرفاق يوما بيوم وكذلك تلك التكليفات التى قامت بها فى تشكيل جبهة عريضة معادية لحكم العسكر دفاعا عن الديموقراطية .

ومن جانب آخر سجلت انحيازها لجمال عبدالناصر وقالت اننا نخطىء بدفع الأحداث نحو الصدام وادانت بشدة الضغوط التى مارستها حدتو على يوسف صديق حتى دفعته الى الاستقالة من مجلس الثورة ووصفتها بالطفولة الثورية غير المسئولة .

يا لحزنى وشقائى .

قضت الدكتور أوديت باصاباتها فى حادثة عربة مدبرة بسبب نشاطها السياسى فى تلك الأيام وكانت اصاباتها من الخطورة الى درجة انها كانت لا تفيق الا سويعات قلائل وجاءت السطور القليلة التى كتبتها بعد الحادثة متناثرة وغير مترابطة وكلمحات مضيئة أو اقوال مأثورة وخالية من التحليل واعمال الفكر .

هذه اسرار نفس طاهرة وضمير حى وعقل راجح وارادة حديدية وسوف يظل مصرع الدكتورة أوديت سبة مثلها مثل شنق خميس والبقرى ومقتل عطية الشافعى فى المعتقل فى بداية الثورة .

ندمت لترددى امام الدكتور احمد السيد باشا فى مسألة نشر المذكرات

فقد تصرفت كفلاح يخاف من العالم الواسع ، ويحصر نفسه فى دائرة ضيقة من الناس .

لست مؤرخا ، والكتابة ليست مهنتى ، لكننى عشت الأحداث التى كتبت عنها المرحومة وشاركت فى بعضها ايضا ، والعالم قد تغير ، ومن يشغل نفسه حاليا ببدايات حركة الجيش أو ثورة ١٩٥٢ ؟

ما انتقدناه فى سنة ١٩٥٤ نتحسر عليه فى سنوات الثمانينيات وفى التسعينيات سوف نبكى عليه وفى بداية القرن القادم على الأجيال الجديدة ان تهب من جديد لرفع لواء الثورة والعدالة .

قلت للدكتور أحمد السيد باشا فى حزن :

- الكتلة الشرقية بل والاتحاد السوفييتى فى الطريق الى التفكك .

نظر الىّ فى دهشة ، قال :

- انت . الذى تقول هذا القول .

قلت له آسفا :

- نعم . الدودة نخرت الجذور وليس الجذوع أو الفروع أو الأوراق . وساعة السقوط قادمة لا محالة .

طلب منى ان احكى له ، قلت :

- الحكومات اصبحت معزولة تماما عن الناس . السلطة فى جانب والناس فى جانب آخر ، وهذا الوضع لن يدوم طويلا .

سألنى ، قال :

- يارفيق هل تعتقد ان طروحات تروتسكى وانتقاداته لستالين فى بداية الثورة ثبتت صحتها بعد اكثر من نصف قرن من الزمان .

الدكتور أحمد السيد باشا على الرغم من تقدمه فى العمر ذهنه صاف وعقله مشغول بالقضايا السياسية وقد وضع يده على الجرح الدامى فى تاريخ الحركة الشيوعية .

اجبته ، قلت :

ـ هذه قضايا نظرية يصعب على فلاح مثلى الخوض فيها وقد قضيت عمرى فى العمل السرى والمعتقلات فى خضم حركة عارمة لم تتح لى فرصة للتفلسف .

سألنى ، قال :

ـ هل تعتقد يارفيق ان تشيكوسلوفاكيا فى طريقها الى الانقسام ؟

قلت على الفور :

ـ نـعـــم .

قـــال :

ـ هذه نظرة متشائمة جدا يارفيق .

قلت حزينا :

ـ هذا يقينى .

اطرق الباشا الى الأرض ساهما وهو يحرك عصاه فى حركة دائرية صغيرة وبعدها قال لى :

ـ ما يقلقنى فى آخر العمر هو مستقبل الدول النامية أو المتخلفة .

قـلـــت :

ـ عقد الثمانينيات يصفه الرفاق المتخصصون فى براغ بانه العقد الضائع بالنسبة للدول النامية .

قال الباشا :

ـ هذا اعتقادى .

كنت أود أن اقول له ان القرن العشرين هو عقد الاشتراكية والعدالة الضائع ، لكننى احجمت ، وبلعت همومى ، بعد ان ذكرتنى اوراق الدكتورة اوديت ، وحملتنى الى سنوات بعيدة مضت ، عندما احتدم الخلاف بين اسكرا من جانب وبين حدتو من جانب آخر .

قلت لنفسى ، ما لا يحسم كلية لا يدفن ، لأنه يعود ويطل برأسه بعد سنوات قصرت أم طالت .

لم تتعمق الدكتورة أوديت الأزمة السياسية فى العشرينيات بين ستالين وتروتسكى ولكنها التفتت الى المقولات المضادة لحدتو فى الأربعينيات وبداية الخمسينيات وعلى الوجه الخصوص بعد قيام حركة الجيش وتولى العسكر السلطة .

جرت مياه كثيرة فى نهر الاشتراكية من الناحية النظرية اما من الناحية العملية فقد انفصلت الكوادر عن الناس واكتفت برفع الشعارات .

سألنى الدكتور أحمد السيد باشا عن رأيى فى المذكرات ، قلت :
- قطعة من تاريخ مصر .

ابتسم ، قال :
- ومسألة نشرها يارفيق .

قلت على الفور :
- فى العام المقبل .

اخذ يحرك عصاه فى دوائر صغيرة ، وكنا نتحلق حول سرير زهية هانم وعلى الرغم من التحسن الظاهر فى صحتها بعد الجراحة فان القلق كان يوحد بيننا .

اكملت ، قلت :
- بعد مصرع الرئيس السادات على هذا النحو ، وازدياد السخط الشعبى على كل المستويات ، الجماعات اليسارية المختلفة تعيد ترتيب صفوفها ، ونشر المذكرات فى الشهور القادمة سوف ينكأ جراحا قديمة ، خاصة ان المذكرات تشير الى اسماء بعينها لها دور وقد اثبتت الأيام خطأ توقعاتها .

نظر الى نظرة عميقة ، قال :
- تحدثنى يارفيق مثل كوادر الأحزاب الشيوعية بينما الحقيقة فى نظرى لها الأولوية وخلاف الرأى فى المسائل السياسية لا يفسد للود قضية .

قلت له موضحا :

ـ أنا لم أكن فى يوم ما منظرا أو مفكرا ولكننى امضيت عمرى فى العمل ، والحفاظ على الوحدة ديدنى واسقاط الخلافات الهامشية مهمتى .

استندت زهية هانم بمرفقها ، وجلست ، قالت :

ـ ياخال عباس العمر لم يعد يحتمل التأجيل . وهذه وصية الدكتورة قبل وفاتها .

قلت :

ـ يازهية هانم نعد المذكرات للنشر هذا العام ويتم توزيعها فى بداية العام القادم .

قال الباشا متفهما موقفى :

ـ اعتقد انه من المناسب نشر المذكرات فى العام القادم ، فقد افرج الرئيس حسنى مبارك عنى فور توليه السلطة ، فى حين الرئيس السادات كانت نيته مبيتة لتوجيه اتهامات تتعلق بقلب نظام الحكم بالقوة العسكرية لفؤاد باشا سراج الدين والأستاذ محمد حسنين هيكل ولى .

استراح قلبى :

ـ كنت اتحرج منذ قدومى الى جنيف ومقابلة الباشا من سؤاله عن فترة اعتقاله فى سبتمبر الماضى فى أكبر حملة اعتقالات سياسية شهدها عصر السادات وعجلت بالقضاء عليه .

وددت ان يروى لنا شيئا عنها لكننى لم اسأله شيئا ، خوفا من تعكير صفو زهية هانم والتى كانت تتابع حديثنا باهتمام .

سألت زهية هانم فجأة عن محمد نجيب واشارت من طرف خفى لانشغالهنا عليه ، وأجاب الدكتور أحمد السيد باشا قائلا :

ـ انهمك فى متابعة انشطة الأمم المتحدة ، وقد عرفه سعادة المستشار كرامة طريق اللجان كما أن ابنته ابسنت تراعاه بعد الظهر وشغلته عنا .

صمتت زهية هانم ورأيت كدرا على وجهها وفى عينيها وقد اقلقنى غياب تلك البسمة وظهور تقطيبة حادة على وجهها ذكرتنى بأيام زمان عندما كنت

أراها خارجة من الغيطان أو نازلة الرياح؛ تغسل "المواعين" وتقول لى فى تعاسة :

- قلوب الناس لم تعد بها رحمة ياخال عباس .

اطيب من خاطرها ، فينطلق صوتها الرنان بالموال ، فتهز الحقول واتركها وقد اشجتنى وحركت مواجع قلبى .

تمنيت ان تتخلى زهية هانم عن تقطيبتها وتنطلق بالغناء الشجى فتخفف ثقل الغربة وآلام الجراحة ، ولكن اين نحن من غيطان عزبة عويس الواسعة ؟

كانت آخر كلمات الدكتورة أوديت التى خطتها أو املتها قبل رحيلها عن الدنيا كلمة اهداء الى محمد نجيب قالت فيها الى الجيل الجديد ممثلا فى الصغير محمد نجيب ويكفيه انه يحمل اسم رمز الثورة . ثم عدة جمل غامضة حول جدلية الحياة والصراع بين جمال عبدالناصر ومحمد نجيب قائد حركة الجيش ورمزها الشعبى .

وبعدها مباشرة كلمات اشد غموضا حول القدر وغنى الحياة وتطورها الخالق تمنت فيها عودة محمد نجيب الى احضان والديه وقد فهمت فى البداية انها تتحدث فى هذا السياق عن اللواء محمد نجيب وتشير من طرف خفى الى زعماء مصر الراحلين خاصة سعد زغلول باشا والديموقراطية المفتقدة لكننى تبينت انها تهدى الكتاب الى محمد نجيب ابن زهية وادركت انها كانت تعرف والده ايضا .

من عظمة الإسلام انه حلل الزواج والطلاق ونظم العلاقات الأسرية تنظيما دقيقا يحفظ للارحام حرمتها وللانساب صلاتها . ومحمد نجيب ابن زهية من رجل آخر .

قدمت ممرضة رشيقة جميلة وتقدمت من زهية تسألها عن مطلبها ، فقالت :

- قهوة وعصير ليمون للضيوف .

تبينت ان زهية قد دقت جرسا فأتت الممرضة أو الشغالة .

جلست زهية هانم فوق سريرها ، تمنيت ألا تتجه بنظرها الى المرآة ، فقد كان وجهها حزينا ومكدودا ، ربما من الجراحة ، وربما ايضا بسبب مخاوفها على زوجها وابنها .

كنت اجلس فى ركن والى جوارى الدكتور احمد السيد باشا وفى مواجهتنا زهية هانم وكانت مناقشاتنا السياسية قد طالت ، فقلت موجها حديثى الى زهية هانم :

- والله وحشنى غناؤك يازهية هانم .

ضحكت من قلبها ورفعت رأسها واخذت نفسا عميقا وانطلقت بالغناء تصدح بلحن شجى وفى كلمات اجنبية وتبينت لحنا اعرفه جيدا لا يغيب عن اذنى طوال اقامتى فى براغ لكننى لا اعرفه وتركت نفسى لهذا الشدو الشجى وعيناى على قسمات وجهها وقد عادت اليه الفرحة .

اقبل طبيب فزعا ووقف الى جوار الباب مستمعا وقد أحسست بالحرج فالمستشفيات ليست محلا للغناء مهما كان شجيا وعندما علا صوتها تكاثر الأطباء ودندن بعضهم ايضا بصوت خفيض ثم انطلق صوت يصاحبها فى الغناء منهيا الوصلة باشارة من يده كقائد مدرب .

تقدم منها كبير الأطباء ، قال :

- يسعدنى سماع نشيد الفرح من مريضة اجريت لها جراحة منذ اربعة ايام .

ودس السماعة فى صدرها ورفع يدها يقيس لها النبض وربما ليمنعها من الغناء بطريقة لبقة ، قال :

- صوتك ايتها السيدة احلى من مغنية الأوبرا الشهيرة ماريا كلاس .

بعدها ضحك ، قال :

- مهنتك فى الدوسيه "ست بيت" فما هى الحكاية ؟ مغنية اوبرا متخفية . تناول ميزان حرارة ووضعه فى فمها .

منعها الرجل من الحديث وليس من الغناء فقط ، وقد ابتسم الباشا لما وضع الطبيب ميزان الحرارة فى فمها وغمز لى بعينيه وكأنه يسألنى ، هل

فهمت ؟ فأومأت له برأسى قائلا : نعم .

كان الباشا يحس بالخجل مما سببته زوجته من فوضى فى المستشفى ، مال علىّ ، وهمس فى اذنى ، قال :

- نحمد الله لعدم استدعاء البوليس .

ضحكت ، واكمل قائلا :

- هذه فضيحة ربما لم تعرفها هذه المستشفى منذ انشائها . اسألنى أنا عن السويسريين وتمسكهم بالنظام الى درجة الجنون .

قلت :

- زهية هانم مغنية اوبرا . هذا هو الحل .

قال الباشا :

- هذا صحيح ، وقد غنت في الأوبرا ، لما قدمت السيمفونية التاسعة لبيتهوفن امام الرئيس جمال عبدالناصر ، عندما كان الدكتور ثروت عكاشة وزيرا للثقافة .

تذكرت على الفور اللحن الذى غنته وهو من الحركة الرابعة وقد اتخذته اوربا نشيدا لها ، قلت :

- هذا شعر شيللر ياباشا .

اجابنى ، قال :

- زهية هانم تحفظه عن ظهر قلب بالألمانية .

تبارك الخالق ، زهية هانم ابنة عزبة عويس تغنى بالألمانية فى جنيف وتقف لها المستشفى على "رجل" ، وابنتى خيبها الله تقول لى : صوت المرأة عورة .

وصل كبير الجراحين ودارت مناقشة بينهم هامسة تنم عن اهتمام بالغ ، على اثرها ، قال طبيب :

- سوف تنقل السيدة الى غرفة الجراحة لإجراء كشف على العملية .

اضطرب الباشا ، سأل :

ـ هل هناك مخاوف من عدم التئام الجروح بسبب الغناء ؟

قال طبيب فى حسم :
ـ للاطمئنـان .

قادتنا ممرضة الى صالون ملحق بالغرفة ، واغلق الباب علينا ، وفى لحظات ، سمعنا حركة فى الغرفة ، تنم عن نقل المريضة .

كنت احس بالخوف والخجل ، وقال الباشا :
ـ هذه مخاوف لا محل لها . فقد تعلمت زهية هانم الغناء على يد مدربة شهيرة ، هى مدام رطل ، فى دار الأوبرا قبل حريقها ، وأول شروط الغناء الأوبرالى ، دراسة التنفس بطريقة صحيحة ، واخراج الهواء من الرئتين وليس من البطن .

ومال الباشا بجسده كله وكأنه يريح عظامه البارزة ، وطلب منى الجلوس فى الناحية الأخرى ، واعتذر قائلا :
ـ البروستاتا تؤلمنى ، وهذا الوضع يريحنى ، اغفر لى يابنى .

قـلـت :
ـ العفو ياباشا . العفو .

الرجل يكابد متاعبه الجسمانية فى صبر وتؤده وهو الذى فى حاجة الى عناية طبية تتناسب مع تأخره فى العمر وقد اقترب من التسعين أو الخامسة والثمانين على الأقل .

اذا كان قد قدر لابنته الدكتورة اوديت الحياة لكانت فى عمر زهية حاليا أو اكبر منها بسنوات قليلة لكن الموت اختطفها وهى فى قمة نشاطها .

استراح الباشا فى جلسته ، فقال :
ـ كان محمد يدرس البيانو فى صغره على يد مدرس موسيقى وقد تابعت معه زهية هانم دروسه لكنها لم تتقدم مثله فى العزف وهذا طبيعى حيث ان الأطفال لهم القدرة على تعلم العزف والتفوق على الكبار كما ان اصابع زهية كانت لا تسعفها فى العزف وليست لينة بالقدر الكافى بسبب عملها فى

الحقول فى صباها . وبعد عدة سنوات زهد محمد نجيب فى الموسيقى فهجرها وتركته على هواه حتى التحق بالجامعة هو وامه فتعرف على فتاة يونانية سحرته واعادته الى عالم الموسيقى مرة ثانية وعزم على الألتحاق بالأوبرا فخافت عليه زهية هانم من البنت وقالت له رجلى على رجلك والتحقت بفصول الغناء بينما تابع محمد نجيب العزف على يد استاذ ايطالى شهير . لم تتركه للفتاة وشجعته على معرفة غيرها واصطفت له مجموعة من البنات ، هذه طبعا من مكائد النساء .

قـلـت :

- ياباشا هذه نعمة لقد وقعت ابنتى فى علاقة مع واحد من الأصوليين غسل مخها وعاد بها الى حياة القرن الأول الهجرى .

بانت الدهشة على وجه الباشا ، قال :

- ماذا تقول يارفيق ؟

قلت فى حسرة :

- ربيت عشرات الكوادر بل مئات من قادة المناضلين وفشلت فى تربية ابنتى .

سألنى الباشا ، قال :

- الناس لا تتغير بطريقة فجائية ، فكيف وقع لها ذلك ؟

قلت حزينا :

- عانت ابنتى من الوحدة والضياع بسبب كثرة سنوات اعتقالى وهروبى التى زادت على عشرين عاما فى كافة العهود ياباشا .

اراح الباشا عظامه بتحريك يديه وساقيه ، وصمت برهة ثم قال :

- الأبناء عادة يتخذون لهم مسارات مخالفة لآبائهم .

قـلـت :

- اننى اتفهم دوافعها لكنها سارت بعيدا جدا .

عمنا الصمت وهدوء المستشفى يحمل فى طياته ضجة مكتومة بالأنين

ولم يكن المقام يسمح لى بمزيد من الثرثرة حول همى الكبير فطوحت رأسى على كتفى حتى اريحه وبلعت كلامى متأهبا لحضور زهية من غرفة الجراحة سليمة .

سمعت حركة وصوت أقدام عديدة ، اشار الباشا برأسه ، قال :

ـ زهية وصلت .

انتظرنا فى غرفة الصالون ، وكنت اود الخروج للاطمئنان ، لكننى رأيت الباشا جالسا فى هدوء ، فقاومت رغبتى . قال الباشا :

ـ سوف يدعوننا ويأخذون علينا اقرارات بعدم غنائها مرة ثانية . وربما يهددوننا بالبوليس . اننى اعرفهم يارفيق .

قمت ، استعد لفتح الباب والتوجه الى زهية ، وفجأة انطلقت زهية بالغناء مرة اخرى ، فترك الباشا عصاه ، وضرب كفا بكف ، قال :

ـ زهية جنت .

تناول عصاه ووقف غاضبا ، قال :

ـ ليس الى هذا الحد .

قـلـت :

ـ الأطباء حولها .

فتحت الباب وتسللت خارجا ، رأيت زهية جالسة على كرسى ، تغنى وحولها الأطباء والممرضات يستمعون ، ومن حين الى آخر يصاحبها واحد من الأطباء .

همس الباشا فى اذنى ، قال :

ـ باريتون جميل .

هززت رأسى موافقا ، وقد فاتنى مقصده ، فأنا ليست لى معرفة بالغناء أو الموسيقى ، واستغرقت فى الاستماع مع المستمعين ، وقد ملأنى الفخر والعزة ، زهية هانم ليست من عزبة عويس فقط ولكنها بمثابة ابنتى .

انتهت الوصلة أو اللحن ـ بلغة الموسيقى ـ باشارة من الطبيب الشاب

الذى يربى ذقنه .

صفقنـا .

تحدث اكبر الأطباء سنا ، قال :
- من واجبى كجراح ألّا أكشف مطلقا عما تتفوه به المريضة أو المريض وهو تحت تأثير المخدر ، لكننى هنا ، اكشف سرا ، واقول ان السيدة زهية هانم قد اشجتنا فى غرفة العمليات بهذا اللحن ، حتى اننى خشيت أن يهمل طبيب التخدير واجبه بسبب حلاوة الصوت .

ضحكنا جميعا .

اكمل الجراح ، قائلا :
- الى جانب نشيد الفرح لشيللر ، غنت لنا زهية هانم لحنا آخر من اوبرا ترافيتا وهو لحن حزين جدا ، وكانت المفارقة انها انتقلت من اللحن الفرح الى اللحن الحزين فى يسر مع اختلاف طبقة الصوت فى اللحنين ، وبعدها غنت لحنا بالتركية واخذت تكرره ، وكنت ارى الحزن على وجهها ، وقد شغلنى ذلك كثيرا ، آسف اذا كنت قد انتهكت قوانين المهنة ، لكن النبض وضربات القلب كانا يضطربان ويحدث ضيق فى التنفس كلما نطقت بهذه الأغنية .

احست زهية بالخجل ، قالت :
- لا أذكر . لا أذكر .

قال الطبيب ضاحكا :
- التقطت كلمتين فقط ، "قتل ياسين" ، وعندما كنت اوجه سؤالا لأشغلها عن الغناء ، كانت تجيبنى بالتركية وتعاود الغناء .

ضحكنا جميعا . وضحكت زهية هانم ايضا ، ووضعت يدها على بطنها ، وصاح الطبيب قائلا :
- الضحك الشديد اشد خطورة على الجروح الداخلية من الغناء .

قاومت زهية الضحك بصعوبة ، ولما سكنت ، انطلقت بالغناء .

يابهية خبريني .. على قتل ياسين

صاح الجميع ، نعم . هذا هو اللحن . ماهى الحكاية ؟

تطوعت بالإجابة ، قلت شيئا فى لغتى الانجليزية الضعيفة ، حول التراث الشعبى ، ومقاومة الانجليز ، وموت ياسين .

واخذ منى الدكتور أحمد السيد باشا الخيط ، فاكمل فى فرنسية طلقة واوجز ما سعيت لقوله فى كلمات محدودة سهلة .

قال الطبيب :
ـ هذه القصة تشبه قصة وليام تل فى سويسرا .

اجاب الدكتور احمد السيد باشا قائلا :
ـ نعم . لكن مع اختلاف الظروف والملابسات .

تساءل الجراح قائلا :
ـ طوال سنوات عملى لم اسمع مريضا أو مريضة يغنى لوليام تل تحت تأثير المخدر وان كنت استمعت لمئات من القصص الطريفة .

قال الدكتور أحمد السيد باشا موضحا ، وقد اسعفتنى زهية هانم بالترجمة عندما تبينت غياب كثير من المعانى عنى ، ان الفرق بين وليام تل وبين ياسين ان الأول خرج منتصرا والثانى خرج مهزوما وقتل . ويبدو ان العقل الجمعى يغنى للمهزومين ـ خاصة تحت المخدر .

ضحكنا .

قال الجراح :
ـ الحزن الجمعى يغيب ويظهر فى اللاوعى وهذا يفسر سبب اضطراب قلب زهية هانم اثناء الشدو بهذه الأغنية .

اكمل الدكتور أحمد السيد باشا قائلا :
ـ هذا حزن تتوارثه الأجيال منذ موقعة دنشواى واعدام الفلاحين على مشانق امام عتبات بيوتهم .

قال الجراح :
ـ هذه صورة فظيعة .

تدخلت زهية هانم ، قالت :
ـ هذا هو الاستعمار .

مد الجراح فورا يده الى زهية ، قال :
ـ عموما الغناء غير مسموح به هنا . هذه اوامر ، لكن اذا كانت المريضة مغنية اوبرا فنحن نتساهل ، المهم ان تصدح دوما بنشيد الفرح ، وليس بياسين ، هذه تعليماتى كجراح .

قالت زهية هانم :
ـ حـاضـر .

وكتب الطبيب شيئا ، قال :
ـ نصف حبة فى اليوم .

واضاف قائلا :
ـ سمحت بالزيارة طول اليوم وحتى الساعة العاشرة ليلا . مغنية الأوبرا لها معجبون ، وعلى كل هذا الجناح درجة أولى ممتازة ، ونخصصه للاسترخاء ولن يضايق احدا وجود زوار .

كان الدكتور أحمد السيد باشا يتابع تعليمات الطبيب فى اهتمام بالغ وتبينت على وجهه علامات عدم الارتياح من حديث الطبيب وفاتنى ما يقلقه فقد كان حديث الطبيب وديا للغاية معنا .

بعدها صارحنى الدكتور احمد السيد باشا قائلا لى على انفراد :
ـ حديث كبير الجراحين اثار مخاوفى .

سألته فى دهشة :
ـ لماذا ياباشا ؟

صمت فترة من الوقت ، وبعدها قال :
ـ عامل كبير الجراحين المريضة وكأنها طفلة كبيرة وغدا يحولها الى

طبيب نفسى .

قلت مخففا عنه :

ـ كل مريض بعد الجراحة فى حاجة الى كلمة حلوة .

قال آسفـا :

ـ هذه ليست جراحة عادية والنساء يصبن باكتئاب شديد بعد ازالة الرحم او جزء منه ، هذه طبيعتهن .

همس فى اذنى قائلا :

ـ المدام سوف تنام على الأقل اربع ساعات الآن ، فقد أعطيت حقنة منومة فى غرفة الجراحة ، وقد اخبرتنى الممرضة بذلك . ووجودنا لا فائدة منه .

كنا نجلس فى الصالون وحدنا بعد ان تمددت زهية على سريرها وغفت ونحن حولها نداعبها فاشارت لنا الممرضة بالخروج ، فخرجنا . وبقت هى الى جوارها .

قلت لنفسى : هذه الجراحة يابنتى قد جاءت مبكرة عن موعدها كثيرا ، ابناء الفقراء يقضون فى قمة لحظات العطاء ، ولما تزهزه الدنيا لهم وتأخذهم بالحضن ...

لا يساورنى شك فى ان سنوات الحرمان والبلهارسيا وقلة التغذية تؤثر على بنية الجسد العامة مهما تغيرت الظروف واحلوت الدنيا فيما بعد فجسد الإنسان قدره الذى يحمله .

هاهو الباشا فى العقد التاسع من عمره فى صحة جيدة أما زوجته ولم تتعدَّ العقد الخامس فقد بدأ جسدها فى التساقط ومهما ارتكبت البيروقراطية من جرائم وافتقدت حلم الاشتراكية فسوف يظل لها فضل العناية بالأطفال والصغار .

سألنى الباشا ، قال :

ـ ماهى وجهتك ؟

قـلـت :

– اليوم صباحا لا توجد اجتماعات غير ان جلسة ساخنة فى انتظارى بعد الظهر وربما تستمر لوقت متأخر من الليل .

سألنى الباشا ، قال :

– منظمة العمل الدولية ، هل لا تزال معادية للدول الاشتراكية ؟

ابتسمت ، قلت :

– منظمة العمل الدولية هى رأس الحربة فى الحرب الباردة والصراعات فى اروقتها لا نهاية لها .

قال الباشا :

– تعال معى اذن لجولة فى المدينة ، بى رغبة لزيارة اماكن كنت اتردد عليها فى شبابى ، فى البداية نزور المقهى الذى كان لينين يجلس عليه اثناء اقامته فى جنيف قبل الثورة ، وبعدها نتوجه الى المدينة القديمة ، للفرجة على اللوحات العالمية لكبار الفنانين ، فهذه هواية قديمة لى .

وافقت على الفور ، وانطلقنا .

كان السفير عبدالرعوف الريدى قد وضع سيارة بسائقها تحت امرة الدكتور أحمد السيد باشا ، وقد اعتبرت ذلك مجاملة طيبة من جانب السفير لواحد من كبار القانونيين فى مصر .

وكنت أحس بالحرج من وجودى الى جانب الدكتور السيد باشا فاشعت بين رفاقى وقلت للسائق ، اننى قريب لزوجته زهية هانم من بعيد . وقررت البقاء فى جنيف يومين أو ثلاثة بعد انتهاء مهمتى الى حين ان تتحسن صحة زهية هانم .

سألنى الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :

– من أين نبدأ ؟

قـلـت :

– المدينة القديمة .

نظر الى مبتسما ، فقد تحاشيت ذكر المقهى أو الإشارة الى اسم لينين امام السائق النوبي ، ولم تكن بي رغبة حقيقية فى زيارة هذا المقهى الذى كان يجلس فيه لينين فى اثناء اقامته فى جنيف وان كانت السلطات السياحية في جنيف قد احاطته بدعاية بينما الحكومة قد رفضت اقامة متحف للينين يضم أوراقه . ومن اجمل التعليقات التى قرأتها تعليق يقول : جنيف ترحب بلينين حيا وترفضه ميتا .

قادنا الدكتور فى عدة طرقات ضيقة وقد تأكدت ان السائق لا يعرفها حتى وصلنا الى هضبة عالية ، وطلب من السائق ان يركن العربة ، وسار بنا فى بطء عبر ميدان صغير ، وتوجه الى قاعة عرض . كانت لوحات معلقة واخرى مركونة الى جوار الحوائط ، ورجل عجوز بالقاعة ، نظر لنا مليا ثم رحب بنا .

كنت اسير خلف الباشا صامتا ، احرك عيني واثبتها حيث يتوقف الباشا وأنا رجل بسيط ثقافتى محدودة ، لكننى كنت استمتع بالتشكيلات والألوان قائلا لنفسى : هذه امور فهمها عسير على فلاح مثلى .

انشغل الباشا مع الرجل العجوز صاحب القاعة فى حديث طويل حول بعض الأمور الفنية والأسعار ، دعانا بعده الرجل الى غرفة استقبال ، وقدم لنا مجموعة من اللوحات .

جلس الباشا وكأنه قد وجد بغيته ، همس فى اذنى ، قال :
ـ هذه لوحات اصلية وهذه القاعة لها سمعة طيبة فى عالم الفن .

كانت القاعة بسيطة جدا ولا توحى بالثراء ، والرجل العجوز ملابسه تشبه ملابسى : ملابس واسعة وقديمة . وبدأت التفت الى الأسعار ، فدارت رأسى .

اخذت اتابع الرجل العجوز بعينى وقد انشغلت به بدلا من اللوحات ، كان جسده نحيلا جدا ، على الرغم من اكتافه العريضة ، وله رأس ضخم وعينان واسعتان وفم صغير جدا . وبدا لى كشخص مشوه من تلك الشخوص التى تمتلىء بها اللوحات ، وبسبب صغر فمه كان يستمع لنا ـ

بالأصح ـ كان يستمع للباشا حده ، ويتحرك ولا يتكلم الا فى القليل النادر .

اشبع الباشا ناظريه من اللوحات ، ودار الحديث حول لوحة صغيرة بالقلم الرصاص لفلاحة تستعد لحمل بسطلة مياه ، ومرسومة على ورقة كراس ، اما الثانية فكانت بالألوان وعبارة عن بهو وامرأة واقفة عارية فى البهو ووجهها مألوف لدى بسبب روعته التى لا تنساها العين .

سألنى الباشا ، قال :

ـ اعجبتك اللوحة ؟

قلت دون روية :

ـ نـعـــم .

هز رأسه راضيا وكأنه قد أحسن الاختيار ، قلت لنفسى ، ومن أنا حتى يستأنس الباشا برأيى فى شأن يخص الفن ، لكنها الغربة ومرض زوجته وانشغال ابنه عنه والشيخوخة اللعينة التى جعلته يأنس لصحبتى بالإضافة الى ود قديم وعشرة طويلة جمعت بين ابنته المرحومة اوديت وبينى .

كلما ابتعدت عن تلك اللوحة عادت عيناى لتحدق فيها فى نهم ـ كان الجسد العارى لا يشدنى قدر ذلك الوجه . قال الباشا لى همسا :

ـ هذه اللوحة للفنان ديلفو البلجيكى ، وربما رأيت له شيئا من قبل .

كنت أود ان اقول اننى لا اعرف الفنان ولم اسمع باسمه من قبل ولكننى اعرف السيدة التى صورها الفنان ، هى ستهم ابنة عمى وزوجة الجلف حمادة ابوجبل عمدة عزبة عويس لسنوات طوال .

سألنى الباشا ، قال :

ـ زهية هانم تحب اعمال هذا الفنان ايضا ، ماهى الحكاية ؟

قلت لنفسى ، زهية هانم فضحتك واذاعت السر من قبلك ، تشاغلت عن الباشا ، لأدور فى فمى ردا مناسب ، لكن الباشا عجل بسؤالى ، قال :

ـ ماهى الحكاية يارفيق ، ابناء عزبة عويس يعجبهم ديلفو ؟

قلت معترفا :

ـ هذه حكاية طويلة وعريضة ياباشا .

قال ضاحكا :

ـ لنؤجلها لحين جلوسنا على المقهى .

وافقتـه .

ادركت انه قد سعى لشراء هذه اللوحة من أجل خاطر زوجته زهية هانم لحبها لهذا الفنان ، وقلت لنفسى ، ترى "ستهم" مصورة امامها لتخفف عنها الإحساس بالغربة .

يخلق من الشبه اربعين ، حكمة قديمة ، وانشغل الباشا عنى بكتابة الشيكات ومراجعة البيانات وبدأ العمال فى تغليف اللوحتين .

كنت أحس بقلق شديد منذ صباح اليوم بسبب توتر المباحثات فى اروقة المنظمة وظهور نية مبيتة لطرد بولندا من منظمة العمل الدولية بسبب تدخل الجيش فى الحكم لمواجهة التمرد العمالى الذى يقوده ليش فاليتسا . ورأيت من الحكمة العودة الى الفندق لإجراء بعض الاتصالات مع الرفاق .

قلت لنفسى ، حالة زهية هانم اصبحت طيبة ، وربما الباشا فى حاجة الى راحة ايضا ، وعقدت عزمى على العودة الى فندقى .

قال الباشا :

ـ هيا بنا يارفيق لتناول القهوة .

ترددت قليلا ، قلت :

ـ ما رأى الباشا فى العودة الى الفندق للراحة ؟

ابتسم الباشا ، قال :

ـ هذا وقت قهوتى يارفيق ، الساعة الحادية عشرة .

قلت مؤيدا :

ـ معك حق ياباشا .

طلب من السائق العودة بنا الى المدينة ، قال :

- هناك على البحيرة مقهى ايطالى صغير لا يقبل عليه الا قلة من الناس فى هذا الوقت والسياح لا يعرفون طريقه وهذا المقهى يقدم اطيب انواع القهوة .

قـلـت :

- والله نفسى فى فنجان قهوة مضبوط .

قــال :

- قهوة تركى لها "وش" من الكنكة .

ذهبنـا .

مقهى صغير يطل على البحيرة ، والاضاءة فيه مريحة ، وليس معتما مثل البارات ، وبه عدة موائد تطل على البحيرة مباشرة ، وكان الجو غائما واضاءة فضية ناعمة تغرق طريق البحيرة بينما رياح شديدة تهب من ناحيتها .

كنت متدثرا ببالطو ثقيل ، فخلعته فور دخولى المقهى ، ووضعته الى جوارى على الكرسى ، اما الباشا فقد سلم معطفه الى الجرسون ليعلقه .

كان السائق قد اصر على البقاء فى السيارة خوفا على اللوحتين ، قال :

- جنيف لم تعد آمنة .

أنا لا اترك معطفى بعيدا عنى ، هذه عادة متأصلة فى نفسى ، وكثيرا ما تسبب لى حرجا شديدا فى براغ حيث يصر الجرسونات على تعليق المعاطف على الشماعات فى "الجارداروبه" وعدم وضعها على الكراسى . هذا خوف داخلى لا مبرر له ويرجع الى سنوات ملاحقتى الطويلة ، كما اننى عادة ما أدس اوراقا فى جيوب البالطو وأنساها وأخشى ان تقع فى ايد غريبة .

ابتسم الباشا ، قال :

- أنا عادة لا اضع شيئا فى جيوب البالطو .

ثم اكمل قائلا :

- الشعور الجمعى لدى الأوربيين بسبب شدة البرد يدفعهم لعدم سرقة البلاطى او العبث بها فهذا عرف اجتماعى كما ان الشعور الجمعى لدى الفلاحين فى مصر يدفعهم لعدم سرقة الحمير، هل رأيت فلاحا يربط حماره فى سلسلة حديد مثل "العجلة" ؟ والسرقات فى هذه الحالات جرائم طارئة .

تأملت كلمات الباشا وجدتها حكيمة، هناك أشياء لا تسرق، فأس الفلاح، قربة السقا، مركوب المصلى، حمار السبخ، الثمار فى الحقول، عمة الفقيه، بندقية الغفير، صفارة الشاويش، زير السبيل وغطاه والكوز القريب منه، هذه أشياء مثل أعمدة وفوانيس النور واسلاك التليفونات ومواسير المياه فى المدن، لا تسرق، بل سرقتها عيب .

واضفت لنفسى قائلا :

- هذا فى عزبة عويس على الأقل .

فجأة صارحنى الباشا بما يقلقه، قال :

- محمد نجيب فى حالة حيرة ياعباس . يسعى للتعرف على ابيه ولا يجد من يمد له يدا . هذه دنيا ظالمة يارفيق، وأنا اوشكت على الرحيل وقد تجاوز عمرى الثمانين عاما أو على وجه الدقة اقتربت من الثمانين وليس من التسعين عاما كما يظن البعض .

اضاف الباشا ضاحكا :

- أنا عمرى من عمر الفنان محمد عبدالوهاب .

قال الباشا :

- أنا من مواليد هذا القرن وليس القرن الماضى كما هو مثبت فى اوراقى ولذلك قصة احجم دائما عن الإشارة اليها .

قال الباشا :

- تقلقنى احوال محمد نجيب وتقلباته . يود السفر الى لندن لإنهاء بعض الأعمال المتعلقة بالمكتب ليسافر بعدها الى السويد مع فتاته الشقراء .

كنت مستمعا، وأضاف الباشا، قال :

- هذا الشاب لا يقف على أرض صلبة ، رفض نصيحتى بدراسة القانون ، والتحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، فاجبر والدته على دراسة العلوم السياسية بدلا من القانون ، لكنهما بعد دخولهما الجامعة تركت لهما مهمة الإشراف على مكتبى ، وقضايا القانون الدولى قليلة لكنها فى حاجة الى دراسات واتصالات كما اننى اقدم استشارات قانونية فى قضايا معقدة تتعلق بالنفط لدول خليجية وقد اتقن محمد نجيب الإجراءات ، وتنظيم العمل ، لكنه لا يعمل بالقانون ، فالقانون مثل الطب فى حاجة الى دراسة اكاديمية متخصصة ، ويقع علىّ دائما العبء الأكبر فى العمل وكذلك على مجموعة من القانونيين الأجانب نتعاون معهم .

اضاف الباشا قائلا ، وكأنه يحدث نفسه ، قال :

- محمد نجيب يقول لى ياباشا أنا لست قانونيا لكننى اعمل "بيزنس" ادير واحدا من أشهر المكاتب العالمية ، وهذه فكرة لا استريح اليها يارفيق فأنا رجل قانون من اخمص قدمى الى قمة راسى ، عرضت عليه السفر الى باريس والتخصص فى القانون أو العمل فى الخارجية لكنه لا يبدى حماسا ، وهذا من اسباب قلق زهية هانم عليه .

قلت له ضاحكا :

- محمد نجيب شاب وقد فهم سياسة العصر ، انفتاح ، و"بيزنس" .

قال الباشا :

- لا أود لمحمد نجيب ان يكون تحت رحمة الآخرين ، يشترى خبرتهم ، وأنا فى كثير من الأحيان اراجع بنفسى أوراقا كثيرة مما لاقبل له بها . كما أننى لا أود له ان يشارك احدا بعد مماتى .

وبعدها أضاف قائلا فى حزن :

- هذا قدرى يارفيق ، ابنتى الوحيدة كانت أيضا طبيبة واذا كان قد قدر لها العيش من بعدى لكانت صفت مكتبى وتفرغت لعيادتها . مكتبى لا مستقبل له .

قلت مطيبا خاطره :

- دمتم له ياباشا .

استدار فى جلسته ليريح جسده ، فصمت حتى يطيب له الجلوس ، ثم قلت :

ـ هذه دائما مشاكل الآباء .

قـــال :

ـ محمد نجيب اكثر من ابن لى ، ليس من صلبى ، لكننى ربيته منذ طفولته كابن لزوجتى من رجل آخر كما تعرف .

قـلـت :

ـ باراك الله فيك ياباشا .

اجابنى آسفا :

ـ يبدو ان والده الحقيقى لم تتحرك فى داخله مشاعر الأبوة بعد .

تسربلت بالصمت ، لم اعلق ولم اسأل ، فهذه أمور يأخذها كبراء القوم مأخذا آخر ، بينما العلاقات فى عزبة عويس اقل تعقيدا ، فهذا ابن فلانة من زوجها الأول وهذا ابنها من زوجها الثانى ، وربما يسهل العلاقات بين الفقراء قلة الميراث او انعدامه ، اما اولئك الذين يمتلكون الأموال والعقارات والحسب والنسب فلهم حساباتهم الأخرى .

قـلـت :

ـ الحياة الهادرة ياباشا لها حساباتها .

قـــال :

ـ صدقت يارفيق .

طلب الباشا فنجانا آخر من القهوة ، قال :

ـ عشرة فناجين قهوة فى الخارج لا تعوضنى عن فنجان قهوة تعده لى زهية هانم بيدها .

قـلـت :

ـ شفاها الله .

قـــال :

- حالتها النفسية ليست على مايرام .

رأيت ان اغير وجهة الحديث ، وكنت قد سمعت اخبارا قادمة من القاهرة عرفتها من الرفاق في منظمة العمل الدولية ، قلت :

- سمعت ياباشا ان مباحثات الرئيس مبارك مع شيمون بيريز في الإسكندرية متعثرة مما يهدد اتفاق السلام .

استمع لى فى اهتمام ، قال :

- حول اى شىء يارفيق .

قـلـت :

- حول الانسحاب من سيناء .

هز رأسه مفكرا ، وبعدها سألنى ، قال :

- ماذا سمعت ؟

قـلـت :

- رفاق من براغ يقولون ان إسرائيل ترفض الانسحاب من طابا وهناك خلاف شديد بين مصر وإسرائيل حول طريقة التحكيم او التوفيق .

ضحك الباشا ، قال :

- أنت تعرف كل شىء يارفيق . زدنى علما .

قـلـت :

- الدوائر الصهيونية تشن حملة على وزير الخارجية الدكتور عصمت عبدالمجيد وتتهمه بالجمود وتخريب عملية السلام .

قال الباشا :

- الدكتور عصمت عبدالمجيد رجل قانون وعدل قبل ان يكون رجل سياسة .

ساورنى إحساس غامض بان الدكتور أحمد السيد باشا لا يود الحديث فى هذا الأمر وانه يعرف اشياء تخفى علىّ ، قلت لنفسى ، هو محام دولى كبير وربما له دور لا يود ان يكشف عنه امامى وربما مجيئه الى جنيف لهذا

السبب ايضا ، وركنت الى الصمت .

قمنا ، وسألنى فجأة ، قال :
- يارفيق عباس ، ما رأيك فى سعادة المستشار كرامة ؟

قلت فى فخر :
- هو ابن عزبة عويس . درس واجتهد .

اجابنى ، قال :
- هو كذلك .

وبعدها أكمل الباشا مكررا فى سخرية ، قال :
- هو كذلك ، مافى مرة طلبته الا وجدته مستعدا جاهزا . ليقل حاضر وليس اكثر من ذلك .

كان الباشا مشغولا بالتدثر بالبالطو قبل خروجنا من المقهى ، فصمت حتى نقطع الدرجات القليلة ويلفحنا الهواء البارد ، كما اننى دائما أتوقف عن الحديث الى كبار السن أثناء السير ، خوفا عليهم من عثرات الطريق .

زجرنى الباشا بيده فى كتفى ، طلب منى ان أصرف السائق ليتحدث الىّ على انفراد ، ففعلت .

الجو على البحيرة شديد البرودة ، مثلج ، ورياح عاصفة تصفعنا حتى كادت آذاننا وأنفانا تتجمد وتتساقط ، قلت فى نفسى ، ارحمنى ياباشا فهذا ليس وقت نزه على البحيرة .

واقفا ، يتطلع الى البحيرة الغائبة تحت الضباب ، يملأ عينيه منها ويدير رأسه يمنة ويسارا ، وكأنه ينتظر شيئا ، لكن الطريق موحش ، سيارات مندفعة فى سرعة والبشر فى داخلها وليس خارجها .

هذه نزوة طائشة لرجل متقدم فى السن ، واخشى عليه وعلى ان تصيبنا بنزلة شعبية أو التهاب رئوى . تململت فى وقفتى ، قلت :
- شدة البرودة تحرك عندى آلام الكلى .

قال الباشا مبتسما :

ـ معك حق يارفيق . هيا بنا .

وسار بى في شارع جانبى بعيدا عن طريق البحيرة ، فوجدت نفسى على مقربة من ميدان واسع ، وامام قاعة للشاى توقف ، قال :

ـ هيا بنا يارفيق .

دخلت خلفه ، قاعة فسيحة ، دافئة ، احسست بالانتعاش وبعدها سرت فى جسدى موجة من الخمول بسبب سخونة المكان ، سألنى ، قال :

ـ ما رأيك فى هذا المكان ؟

اجبته فرحا بالدفء ، قلت :

ـ أحس بأطرافى التى تجمدت ياباشا .

ضحك منى طويلا . وبعدها قال :

ـ ربما لا يسمح لى العمر بالقدوم مرة ثانية الى جنيف . هذه مواضع لى فيها ذكريات حسنة يارفيق . وشتاء جنيف أفضل من صيفها . لكن أهل المناطق الحارة يفضلون جنيف فى الصيف .

قلت لنفسى هذه أحاديث جانبية يشغل بها الباشا مقاطع الصمت بين البوح والكتمان ، فما يود التصريح به لا يدلقه مرة واحدة ولكن يصبه على أذنى بمقدار كى يمنحنى فرصة للتفكير والتدبير .

ساورنى اعتقاد راسخ انه يود منى القيام بشىء ما ، لكنه يقترب من بغيته بقدر محسوب .

قال الباشا :

ـ عندما قررت الزواج من زهية ، قلت لها منذ اليوم اسمك صفية هانم ، على اسم أم المصريين زوجة سعد باشا ، وعلى اسم والدتى أيضا .

ضحكت ، قالت :

ـ على اسم والدتك ، موافقة ، اما على اسم أم المصريين ، أنا عاملة تراحيل بسيطة .

قلت لها :

- انت أمنا جميعا ياصفية .

أسلمت لها مقادير الأمور ، وكانت قد انشغلت بالدراسة ، فقامت بكل واجباتها وظلت علاقتي بابنها كما هي ، باعتباره ابنا لها من رجل آخر ، وتزوجتها باعتبارها سيدة مطلقة .

ربيت محمد نجيب على هذا النحو ، والى جانب عناية امه به كان الى جواره دائما مربية فرنسية أو انجليزية لتعليمهما اللغة والإتيكيت والثقافة الأساسية العامة ولم تصادفهما مشاكل في الدراسة بل كانت صفية من المتفوقات وكذلك ابنها وعشنا جميعا فى سلام ورعتنى صفية هانم ومنحتنى من عطفها وحنانها وتفانيها اكثر مما كنت اتوقع بل اعادت لى شبابى وخففت من محنتى بسبب رحيل ابنتى أوديت المبكر . وطوال تلك السنوات كان هناك سؤال معلق في الهواء ، نتنسمه من حين الى حين ، ونتغاضى عنه معظم الأحيان ، أنت تعرف يارفيق ان القاعدة الإسلامية الشرعية تقول ان الابن للفراش ، وأنا رجل قانون ، وقد احترمت تلك القاعدة ليس من ناحية الأموال والعقارات ولكن من ناحية مشاعرى أيضا ، قاومت التعلق به والرغبة فى امتلاكه واخذت نفسى فى قسوة شديدة ولم اتساهل معها يوما واحدا ، فى الغرب يقولون الابن لمن يربيه اما أنا وبغض النظر عن القاعدة الإسلامية وكونها دينية واجبة النفاذ كنت ارى دائما انها تتسق مع القانون الطبيعى الذى يحكم البشر . وأنا هنا يارفيق لا أتحدث عن الأموال فقط ولكن عن المشاعر الإنسانية ايضا ، ان تحرم نفسك من تبنى ولد أو بنت ربيتها صغيرة أمام عينيك واشرفت عليه أو عليها فيه قسوة على النفس البشرية الأمارة بالسوء ، لكننى أخذت نفسى بشدة ، وقلت لنفسى دع شئون الخلق للخالق ، وفى يوم ما سوف يعود الابن الى ابيه . وتجمع بينهما الحياة .

كنت استمع الى الباشا صامتا ، وقد صدق حدسى ، يفاتحنى فى ادق امور حياته ، وعلى مقهى في جنيف ، لابد انه فكر طويلا فى الأمر قبل مصارحتى بما يشغله ، وشدنى الى حديث الباشا ، انه يتناول المسألة من ناحيتها الانسانية التى عادة تغيب عن البال فما يشغله ليس الأموال أو العقارات أو المكتب فهذه قضايا بسيطة وقد عرفت من زهية ان الدكتورة

أوديت تركت نصيبها كله لمحمد نجيب قبل وفاتها وفهمت من الحديث ان محمد نجيب اصبح شريكا فى المكتب وليس مديرا له فقط .

كنت يقظا لما يطلبه الباشا منى ، فهذه عشرة عمر ، وقد جمعتنا سنوات نضال على الرغم من ابتعاد الباشا عن المسائل السياسية ، وفى سنوات القحط والجفاف والتضييق على الناس كان الباشا يقدم العون المادى لرفاق ابنته الراحلة عن طيب خاطر ودون سؤال كما انه كان يتدخل لدى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر لتسوية الأمور الإنسانية الخاصة بالمعتقلين فى بعض الأحيان ، اصغيت وقد بدأت ألمّ بأطراف ما يشغله وما يطلبه منى فى انتظار لمعرفة التفاصيل .

قال الباشا :

ـ اعتقد انه من المناسب ان تفاتح زهية هانم فى هذا الموضوع يارفيق .

وزنت كلماتى ، واخيرا ، قلت :

ـ اى أمر ياباشا !!

ضحك ضحكة خفيفة ، كأنه يقول لى كلانا نعلم ، قال :

ـ اقصد مسألة زواجها السابق من كرامة وانجابها منه ابنها الوحيد .

آه . اطال الباشا المقدمات ، ثم وضع المسألة على بلاطة . هذه أمور مضى ثلاثون عاما عليها ومن عمر ثورة يوليو ١٩٥٢ وقد وصلنى طرف منها فى حينه بعد هروب زهية من العزبة ، وبعدها اخبرتنى الدكتورة أوديت ان زهية تساعدها فى العيادة وقد انجبت ولدا اسمته محمد نجيب . صفحات مطوية طمستها دفاتر الأيام الهادرة وماتت أوديت فى عز شبابها وتعلمت زهية ودرست وتزوجت من الباشا وأصبحت من سيدات المجتمع وترددت على الأوبرا ، وعقارب الساعة لا تعود الى الوراء وكنت أود ان اقول للباشا لندع الماضى يذهب فى هدوء ، لكننى صمت .

رآنى الباشا صامتا ، قال :

ـ أحد الأسباب التى دفعتنى الى رفض عروض الرئيس عبدالناصر

لتولى منصب وزير العدل أو مستشار له ان اجهزة الدولة كانت تعرف عن أحاد الناس أكثر مما ينبغى لها ومما أيضا لا يصح معرفته من شئون خاصة مثل الحب أو الزواج أو الطلاق وما يدخل فى هذا النطاق . وذات مرة صارحنى الرئيس جمال عبدالناصر بان طالبا فى كلية الآداب قد تقدم بشكوى يتهم فيها المرحومة أوديت وأنا بخطف عاملة تراحيل من عزبة عويس وحبسها فى القصر دون رغبتها واساءة معاملتها وقال لى الرئيس جمال عبدالناصر ان هذه الشكوى قد ازعجته الى درجة فقد فيها اعصابه وأمر باعتقال ذلك الطالب الكاذب لمدة ستة أشهر . طلبت منه الإفراج عن الطالب فابنتى كانت قد فارقت الحياة وأنا لا أحمل ضغينة لأحد خاصة اذا كان طالبا ، وصارحنى الرئيس جمال عبدالناصر وقتها ان الطالب قد وقع ضحية لواحد من رجال هيئة التحرير ومكتب الطلاب ، فى محاولة لتضييق الخناق على الدكتورة أوديت أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ .

فاتنى الربط بين ما يرويه لى الباشا وما يطلبه منى ، وتمنيت ألّا يكون الباشا قد وقع ضحية لأمراض الشيخوخة وضعف الذاكرة والخلط بين الأحداث ، لكنه كان مستيقظا ، وبعدها قال لى مباشرة :
- كان الطالب من عزبة عويس يارفيق ، وليس غريبا عنك أو عن صفية هانم .

طأطأت رأسى ، وقد اكتملت الحكاية من أولها الى آخرها . دخت من التفكير وتأمل مسارات الحياة الهادرة ، "نافوخى" ورم ، وزنقتنى "حصرة" المياه ، تململت فى جلستى وهززت رجلى ، سألنى الباشا :
- فيه حاجة يارفيق .

اجبته ، قلت :
- رجلى نعست ، وزنقتنى "حصرة البروستاتا" .

وتماسكت وقمت اجر رجلا وراء اخرى الى دورة المياه .

عدت الى جلستى كما قمت ، رأسى تدور ، وخطوى مضطرب ، ونفسى مكروش ، لا أعرف من أين ابدأ حديثى ؟

وأمسك الباشا بخيط الحديث مرة ثانية ، قال :
- محمد نجيب تعرف على أخته . فقطع نصف الطريق ، وسهل مهمتنا يارفيق .

لم أسأل ولم أستفسر ، فمعنى الكلام ظاهر كشمس النهار ، ولم يبق الا معرفة دورى وماذا يريد الباشا منى على وجه الدقة ، مفاتحة زهية أم مفاتحة سعادة المستشار كرامة بن سرحان السقا .

لا أظن انه يطلب منى الحديث الى محمد نجيب مباشرة ، فهذه لا أقدر عليها أنا الفلاح البسيط ، واذا كان الباشا يتبسط معى ، ويتخذنى كرفيق له فى ساعة غربة ، فهذا التبسط مرجعه معرفة قديمة .

فجأة قال الباشا :
- مهمتك محمد نجيب يارفيق .

اعتقدت في البداية ان الباشا قد عاد الى مسألة مذكرات الدكتورة أوديت وضرورة نشرها قبل فوات الوقت ، لكنه أكمل قائلا :
- أحك شيئا لمحمد نجيب عن اولاد وبنات بلدكم وقصة زواج كرامة من زهية وهروبه منها بسبب ضعف الحال وطلاقهما ، وبقاء زهية فى قصر المرحومة أوديت .

وبعدها قال لى محذرا :
- التزم الصدق فى الكلام يارفيق ، فزهية كانت تروى للولد تفاصيل حياتها فى العزبة وقصة اللواء عويس والأميرة شويكار وكأنى به يعرف أدق تفاصيل الحياة هناك من كثرة حكاياتها حتى عمدة عزبة عويس حمادة أبوجبل له نصيب وافر فى حكايتها .

هذه ورطة أصعب من مسألة طرد بولندا من منظمة العمل الدولية أو تجميد عضويتها ، ما العمل ؟

نظر الباشا الى ساعته ، قال :
- صفية هانم تنتظر ردا يارفيق .

سألت نفسى ، قلت :

- متى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ والفتى مشغول مع الفتاة السويدية الشقراء .

قال الباشا وكأنه يجيب على تساؤلاتى :

- سوف ادبر الأمر كى يبدو طبيعيا للغاية لا تشغل نفسك بالشكليات يارفيق هى جملة أو جملتان تلقى بهما على مسامعه كالقنبلة وبعدها تتكفل صفية هانم بالباقى ، هى أمه .

قلت :

- حاضر .

قلتها ، دون أن أحسب وقع ذلك على سعادة المستشار كرامة سرحان وعائلته ، فربما يهد ذلك عشه وترفضه الأميرة جويدان ، ياللمصيبة ، نبنى وهما جميلا بجمع ابن على والده لنهد قصرا مشيدا بالفعل .

الباشا لن يغفر لى اذا تنصلت أو تراجعت ، وقلت لنفسى بعدها ، الحق حق .

انتهى حديثنا وقمنا ، ويراودنى احساس بأننى اتآمر على ولد عزبة عويس فى السر بفتح ملفات قديمة ومواجهته بها ، ليس من حق أحد اجباره على الإقدام على هذه الخطوة ، هو وحده الذى يقرر المكان والزمان وفقا لظروفه .

قلت :

- واذا رفض سعادة المستشار ، وتنكر .

اجابنى الباشا على الفور ، قال :

- أنا لا يهمنى كرامة ، أنا يهمنى أمر محمد نجيب ، نخبره بالحقيقة ، هذا واجبنا ، وعلى كرامة ان يقرر موقفه ، علنا أو سرا ، فورا ، أو على مهل ، وفقا لأحواله ومصالحه . محمد نجيب دخله من مكتبى عشرة أضعاف مرتب كرامة وليس فى حاجة اليه ، وثروته تطاول ثروة الأميرة جويدان ، محمد نجيب شاب ، ثرى ، وثرى جدا .

بعدها غمز لى بعينيه وهز عصاه ، وقال :

ـ كرامة لن يكون خاسرا ، سوف يكسب من هذه الصفقة ، وربما تشطح به الأحلام للزواج مرة ثانية من صفية هانم بعد رحيلى ، نحن بشر يارفيق .

قـلـت :

ـ حاشا لله .

قال الباشا فى رنة شجن :

ـ هذه هى الحياة يارفيق . موجة وراء موجة ، تصادم وذوبان ، وأحمق من لا يكتشف سر الوجود فى شبابه .

بعدها صارحنى الباشا ، قال :

ـ اذا طلبت صفية هانم العودة الى كرامة سرحان طلقتها ، هو أولى بها منى . أنا عجوز فى نهاية ايامى وهما مستقبلهما قادم .

فى هذه اللحظة فقط ، ادركت اننى أخاطب عجوزا هدته الأيام وهاهو يفتح قلبه ، ويفضفض ، وأحسست بعطف عليه ، فقد بدا لى فى حاجة الى العون الشديد ، وقلت لنفسى ، كلامه كسر قلبى .

تركنا المقهى ، وسرنا قليلا ، وقد تقدم العمر بنا عشرات السنين فجأة ، ورأيت كم يعانى الرجل من المتاعب الجسمية والروحية ، بسبب نبله ، واقشعر جسدى من الصقيع الخارجي والداخلى ، فما ينتظرنا مع تقدم العمر ، فظيع ، فمصيرنا الوحدة ، والحرمان ، الرجل فقد ابنته ، وهاهو على وشك فقدان ابنه ، وعلى استعداد لترك زوجته لتعيش حياتها من جديد ، ماذا تبقى له ؟ القبور لا تستقبل الناس الا فرادى ، وهاهو يعد نفسه لدخول قبره وحيدا كما جاء إلى الدنيا . قلت :

ـ اننى افكر فى العودة الى مصر ، مهما كانت المخاطر ، ما رأيك ياباشا ؟

أجابنى على الفور ، قال :

ـ هذا خير قرار يارفيق ، ولا اعتقد ان هناك متاعب ، الرئيس حسنى مبارك ليس السادات وليس جمال عبدالناصر .

قـلـت :

- قتلتنى الغربة وأنا فلاح ، وسوف أعود خلال اسابيع .

كانت بحيرة جنيف خلفنا ونحن نسير وهواؤها القارس يلفحنا من الخلف بينما نخترق شارع "مونبت بلان" ، وسرنا على الرصيف حتى نبتعد عن تيارات الهواء القوية ، قال الباشا :

- لا تحمل هما يارفيق ، الأمر أبسط مما تتصور ، وصفية هانم تقوم حاليا بترتيب الأمر مع سعادة المستشار ، ومحمد نجيب لن يصاب بصدمة كما تتصور ، هى معلومة فقط .

قلـت :

- حـاضـر .

لا يشغلنى فى هذه الساعة كرامة سرحان أو محمد نجيب ، بعد أن كسر هذا الشيخ الجليل قلبى ، وجعلنى أسير الى جواره ، وكأننى أودعه بالحياة ، يأتى الى جنيف ليترك ابنه الذى رباه طفلا لرجل آخر وربما يضحى بزوجته أيضا .

يسير بى من مقهى الى مقهى وكأنه لا يود مفارقتى له ، كما أنه لم يبد رغبة فى زيارة زهية هذا الصباح ، أرى عالما يتفتت أمامى الى شظايا بعد أن سقطت الأقنعة ، كافة الأقنعة ، مسكين من يواجه هذه اللحظة بمفرده . وليس أتعس من الدكتور أحمد السيد باشا سوى الرفيق جورديا امرى الذى افنى حياته فى خدمة الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ، وهاهو يعيش لحظة تساقط الثمار العطنة وتحلل الشجرة .

ماذا ينتظرنا ؟

الحياة موجة وراء موجة ، تصادم وذوبان ، كما قال الباشا ، لكنها ايضا متجددة ، لا تعرف السكون ، وربما وربما ، وتوقفت عن التفكير .

عاودتنى آلام الكلى بسبب البرودة ، وأسرعت بالسير الى فندقى وقد تبينت طريقى ، أما الباشا فقد ابدى رغبة فى التسكع فى المدينة سيرا على الأقدام وإنهاء بعض الأمور المصرفية .

ـ ١٢ ـ

سعادة المستشار كرامة سرحان السقا يجلس فى بهو الفندق منتظرا خال عباس ابوحميدة ، الفلاح البسيط ، الهارب الى براغ ليعمل فى أوساط اتحاد العمال الشيوعى الدولى .

ياللمفارقة ياكرامة .

بعد ثلاثين عاما تضيق بك مسالك الحياة لتتسول نصيحة من رجل بسيط كالخال عباس !! تأتى الى فندقه دون موعد ، وتنتظر فى البهو مثل المتسولين . هانت عليك نفسك ياكرامة الى هذا الحد .

الناس تدخل الى الفندق وتخرج فى عجلة من أمرها ، وهو جالس على مقعد ينفث الدخان ، ليست له القدرة على الحركة فخطوته التالية فى رحم المستقبل ولم تتحدد معالمها او تتضح مساراتها .

هل يترك كرامة سرحان نفسه للمصادفات تحركه كما تشاء أم يمسك بزمام الأمور ويحدد خطواته المقبلة ؟ كنت دائما مستسلما للمقادير ، فكن مرة واحدة أنت ياكرامة .

مجيئه الى عباس أبوحميدة ، ليس لطلب النصيحة ، ولكن ليستمد منه شجاعة يفتقدها ، هذا رجل اعتقل وسجن وهرب وشرد ، ولم ينكسر عوده ، بل زادت حيويته ، واتسعت آماله وأصبحت باتساع الكون . فهاهو يعمل فى براغ ويستعد للعودة الى القاهرة .

جلس كرامة وسرح ، هناك فى عزبة عويس كان يقضى نهاره فوق شجرة جميز كالقرد ، وعيناه على شرفة الأميرة جويدان ، أغصان الشجرة تؤلمه وهو يتحايل عليها بتكوير جسده ليجد الجلسة المريحة ، والأميرة لا تطل من الشرفة لأيام طويلة ، فالأمراء لا يقفون فى الشرفات يتأملون

المزروعات وأشجار المانجو الباسقة ، يجلسون فى غرفات القصر يشمون أريجها عن بعد ، فعيونهم قد ملت الخضرة من كثرة النعيم ، واعتدل كرامة فى جلسته كى يبعد عنه أوراق الشجرة المدببة ، حرك مقعدته ودفع قدمه بقوة ليستند بها ولا يسقط وتراب الطريق الناعم يضايق خياشيمه ويحجب عنه الطريق وهو يلتصق بعينيه من الداخل .

رتب كرامة سرحان أوراقه وصهد عزبة عويس يرهقه بينما العرق يتصبب على وجهه ويتجمع تحت انفه ويختلط بعفار الطريق قال : ليس أمامه من أعمال فى الأيام التالية سوى اتمام صفقة بيع القصر والعزبة ، وهذه صفقة ضخمة وليست بالأمر السهل .

أب يبيع لابنه املاك زوجته ، وجد الحسبة سمجة وسخيفة على روحه ، قال : زوجته الأميرة تبيع قصرها الى أحمد السيد باشا ، استراح قلبه .

طلب كأسا من الويسكى ، هذه هى مشاغله فى الأيام القادمة ، ومع طعم الويسكى فى فمه ، اشعل سيجارا فخما ، واستراح فى المقعد المريح .

ابسنت لن تكون فى حاجة مادية بعد بيع القصر ويمكنها البقاء فى جنيف أو أية مدينة أوربية أخرى لمتابعة دراستها ، أما هو فيرحل مع جويدان الى القاهرة أو الإسكندرية ويتفرغ لدراسة الشعر .

فجأة تبين كرامة انه لم يطلع زوجته بعد بانباء هذه الصفقة فقد توالت عليه الأحداث هذا الصباح فشغلته عن زوجته وعن الصفقة . هل كان فى مقدوره الذهاب الى الهند على هذا النحو ؟ كلا . فهذا ليس نقلا ، لكنه عقوبة ، وهو لم يرتكب ما يستحق العقاب عليه .

قال كرامة سرحان ، هذه المرة ، لا ، ولم يندم .

لمح الخال عباس أبوحميدة قادما الى الفندق ، رآه وهو يعبر الطريق فوقف فى منتصف البهو منتظرا .

قال الخال عباس أبوحميدة وهو يحضنه :

ـ فرحتى كبيرة يابن بلدى . فرحتى كبيرة .

دعاه كرامة الى الغداء ، وقال :
- وحشتنى ياخال .

كان الخال عباس مرهقا من تلك الجولة التى قام بها فى انحاء المدينة فى صحبة الدكتور أحمد السيد باشا فى هذا الجو البارد وفى حاجة الى اراحة قدميه لدقائق . قال :
- هيا نصعد الى غرفتى . أبدل حذائى . وأعد أوراق الجلسة القادمة .

صعد كرامة سرحان معه الى الغرفة ، يود ان يفاتحه فى مسألة استقالته وفى مسألة بيع عزبة عويس الى الباشا غير ان قلب الخال عباس كان مشغولا عنه ، وتريث كرامة فى حديثه .

دخل خال عباس أبوحميدة الى الحمام ووضع قدميه فى مياه ساخنة فضاعت آلام اصابعه خاصة اصابع القدم اليمنى التى تؤلمه فى الشتاء . جفف قدميه ، قائلا لنفسه : الحق حق . ولابد من مفاتحة سعادة المستشار .

فجأة قال المستشار كرامة سرحان :
- استقلت من الوظيفة ياخال عباس . الآن أنا دبلوماسى سابق .

نظر اليه خال عباس أبوحميدة متعجبا ، سأل :
- ليه ياولدى ؟

سأله خال عباس ابوحميدة ، وكأنه يقول له ، هل يحق لواحد مثلك من ضعاف الناس الاستقالة ، هذا شرف يفخر به كبار القوم ، ويقومون به لتسجيل مواقف سياسية .

اراحه كرامة سرحان ، قال :
- استقالتى ليست لأسباب سياسية ، رفضت النقل الى الهند . ظروفى لا تسمح .

مال خال عباس برأسه الي اليمين ، متأملا حال الدنيا ، فهاهو ولد عزبة عويس يستقيل من منصبه فجأة دون مقدمات فيقلب "الترابيزة" على

رأسه ورأس الجميع ، قال عباس أبوحميدة لنفسه : هذا يوم أغبر من طلعته ومليء بالمفاجآت .

هل تسعد استقالته زهية هانم وابنها محمد نجيب ؟ هل فى مقدوره الآن مفاتحة كرامة بخصوص محمد نجيب ؟ ما رأى الباشا فى هذه الاستقالة .

وتنحنح الخال عباس أبوحميدة ، وبسمل ، وبعدها قال :

- ياولدى ربما من الأفضل تأخذ رأى الدكتور أحمد السيد باشا فى الموضوع ، فهو من كبار القوم ويفهم فى هذه الأمور .

قال كرامة آسفا :

- الاستقالة انتهى أمرها .

بعدها أضاف قائلا :

- الباشا عرض شراء قصر المرحوم والد جويدان وكذلك اربعين فدانا .

وقف الخال عباس فى حيرة ، امضى ساعات الصباح مع الباشا ولم يخبره بنيته ، وان كان قد صارحه بمشاغله واحزانه الشخصية ، وفتح له قلبه ، فاغرقه فى أحزانه وهمومه ، لكنه حجب عنه خططه المالية ورغبته فى شراء العزبة .

قال خال عباس أبوحميدة لنفسه مهونا الأمر • علية القوم بحورهم عميقة ، وليس من السهل عليهم التبسط مع الآخزين .

وبعدها قال لنفسه ، ربما هى نزوة طارئة من الباشا او دردشة سريعة فى لحظة فراغ .

تذكر عباس أبوحميدة ان الباشا قبل انصرافهما اخبره أنه سوف ينهى بعض الأمور المصرفية ، المسألة جد ولا مزاح فيها ، والنقود الآن جاهزة فى البنك أو فى الفندق .

طال صمت خال عباس أبوحميدة ، وبعدها سأل :

- وما رأى سمو الأميرة فى مسألة بيع العزبة ؟

أجابه كرامة ، قال :

- لم اطلع جويدان بعد على هذا العرض .

وبعدها أضاف :

- لقد جرى كل شيء فى عجلة ، طلبنى الباشا لمقابلته فى الفندق ، فتوجهت اليه ، وبعدها صعدت الى محمود بك القرشى وكيل الوزارة ، وقدمت له استقالتى ، ثم جئت الى هنا .

انتهى عباس ابوحميدة من أوراقه ، وقد صدت نفسه عن الطعام ، قال :

- هيـا بنـا .

وبعدها أضاف : أمامى جلسة ساخنة فى أروقة المنظمة ، وربما تستمر طوال الليل .

خرجـا سويـا .

فى المصعد كان خال عباس أبوحميدة يقلب الأمر برمته ، فهذه خطة من الباشا لتسوية كافة المسائل المعلقة دفعة واحدة ، ضربة معلم ، عملية البيع والشراء سوف تستغرق وقتا ، وسوف يغرق كرامة فى اضابير العزبة والقصر ، وتأخذ المساومات بين الأميرة وزهية هانم ومحمد نجيب طريقها ، وتكتشف سمو الأميرة السر .

هذه هى حكمة الشيوخ التى لا تخيب ، رأى الباشا ان يجمع الشمل بين الأسرتين ، بالأخذ والعطاء واذا فشلت الصفقة لن يندم عليها فقد أدت مهمتها بعد التقاء زهية هانم بالأميرة جويدان ، وأهم من ذلك كله التقاء محمد نجيب بوالده كرامة سرحان وأخته من والده ابسنت .

تعجب خال عباس من رغبة الباشا فى شراء عزبة عويس وهو فى نهاية العمر وليست له دراية بالزراعة كما ان القصر فى حوزة وزارة التربية والوزارة لن تتنازل عنه اذا آلت ملكيته الى الباشا أو ابنه ، والباشا لن يطاوعه قلبه على غلق معهد فنى يخرج مئات الزراعيين ، خاصة اذا كان ذلك المعهد فى خدمة العزبة التى ترعرت فيها زوجته ، واختفت فيها ابنته ، وحفظت سرها فى أوقات الشدة حيث كان محمد ابراهيم أمام رئيس القلم

السياسى يطاردها ويعتبرها مسئولة عما يجرى فى مصر من مقاومة للنظام الملكى .

قال خال عباس ابوحميدة لنفسه : الباشا لا ينوى شراء العزبة . وسأل كرامة قائلا :

ـ ياسعادة المستشار . هل كشف الباشا عن قصده من شراء العزبة ؟

أجاب كرامة قائلا :

ـ كــلا .

سأل خال عباس أبوحميدة :

ـ اليس ذلك غريبا ؟

أجاب كرامة مكملا :

ـ كل الغرابة ياخال .

سأل خال عباس ابوحميدة ، قال :

ـ وما رأيك ياسعادة المستشار ؟ فى عملية البيع ؟

أجابه على الفور ، قال :

ـ الرأى رأى زوجتى فهذه أملاك والدها وأنا لا اتدخل فى شئونها المالية .

قال خال عباس معلقا :

ـ بارك الله فيك .

انطلقت بهما السيارة وقد حل بهما الصمت . صمت كالضجيج بعد أن أخذتهما الحياة على غرة وتبدلت مساراتها . عباس أبوحميدة فلاح عزبة عويس أصبح مغتربا ويعمل وسط اتحاد العمال التقدمى ببراغ وكرامة سرحان يترك عمله بالخارجية وتراوده فكرة الانفصال عن زوجته الأميرة جويدان ويتريث فى مصارحة ابنه بالحقيقة .

مصرع الرئيس السادات على هذا النحو قلب الأوضاع رأسا على عقب بعد ان قويت شوكة الجماعات الإسلامية وتشابكت خطوطها مع جماعات

النهب المنظم وغلاة الرجعية فى المنطقة .

عقل الأمة غيب وطرد المثقفون وهاجروا الى بقاع الأرض بعد أن انتعشت جوقة الزمر وقرع الطبول وتلاحمت خيوط رجال السياسة برجال الانفتاح السعيد فترسخت قيم النهب وانكفأ رجال الطبقة المتوسطة على انفسهم .

غاب المشروع القومى عن البال وقبع الناس داخل ذواتهم يلعقون جراحهم كالكلاب المضروبة بالرصاص .

مات جمال عبدالناصر ، فانفض مولد الثورة وتفرق الناس ، مولد كموالد الطهور والزفاف له بداية وله نهاية ، واولئك الذين اكلوا حمص المولد وشربوا الشربات تنكروا للعريس ، وبحثوا عن غيره ، عن مولد آخر للحمص .

سأل كرامة ، قائلا :

ـ ما الحل ياخال .

كان عباس ابوحميدة الى جواره فى السيارة ، نظر اليه فادرك بفراسته أنه يسأل عن حال البلد ، وليس عن أموره الشخصية ، وعرف ذلك من نظراته ونبرة صوته ، فأجاب قائلا :

ـ بعد سوكارنو لابد أن يحكم سوهارتو . هذه طبيعة الأمور . فبعد جمال عبدالناصر كان لابد ان يتولى السلطة الرئيس السادات ، ولا تنس ياسعادة المستشار ان الرئيس قد حكم برجال عبدالناصر فيما عدا القلة من رجال مكتبه والمقربين اليه ، هؤلاء وضعهم فى السجن بعد محاكمة سياسية ظالمة ، ليتخلص من منافستهم له ، أما الآخرون ، فساروا معه على الدرب الطويل .

قال كرامة سرحان السقا لنفسه : حقيقة حكم الرئيس السادات برجال عبدالناصر .

وبعدها سأل نفسه قائلا : أليس ذلك غريبا ؟

بدأ كرامة هذه المرة فى طرح الأسئلة وقد تخلص من الحرص بعد تقديمه استقالته . احس بأن عقله استعاد نشاطه وحيويته ، فهذه تساؤلات كان لا يسمح لها فى السابق ان تطوف برأسه .

يمتلك كرامة فى هذه الساعات حرية طرح الأسئلة ، وهذه حرية ثمينة ، واذا كان لا يمتلك اجابات لهذه الأسئلة ، فمن حظه ان الخال عباس ابوحميدة الى جواره .

حقيقة كرامة يسأل نفسه ، على انفراد وهو يقود السيارة ، ولم يبح بعد بكل ما يطوف برأسه ، لكنها تساؤلات ، والتساؤلات حالة من النشاط الذهنى الذى افتقده ـ بارادته ـ فقد امضى سنوات العمل مستمعا ، وعلى شفتيه دائما كلمة : حاضر .

تحول كرامة من حالة الاستماع الى حالة التفكير ، وهاهى ذى تأتى فرصة الكلام ، فليتكلم .

قال كرامة سرحان السقا بصوت عال للخال عباس ابوحميدة :
ـ تحدى الرئيس السادات ـ رغبة الناس ، فمات غير مأسوف عليه .

أكمل خال عباس أبوحميدة قائلا فى حسرة :
ـ ويل للحاكم اذا تحدى رغبة الناس وأحبط امانيهم .

بعدها أكمل قائلا :
ـ أحلام الناس ياولدى كثيرة ، منها المستحيل ، ومنها البسيط ، وكان جمال عبدالناصر يتبنى الأحلام المستحيلة ، يحترمها ، يتحدث عنها ، يقنع الناس بانه يضعها ضمن الأولويات ، اما الأحلام الصغيرة ، فسعى لتحقيقها ، الغى الألقاب ، حدد الملكية ، وجه ضربة للاقطاع ، طبق مجانية التعليم ، أقام مستشفيات ومدارس ، اهتم بشئون الرى ، سعى للقضاء على البطالة .

أجاب كرامة وكأنه يحدث نفسه :
ـ نعم ياخال .

الخال عباس كان مهموما ، فبعد ان كسر قلبه الدكتور أحمد السيد

باشا ، هاهو كرامة ابن عزبة عويس يعلن افلاسه ، وربما يخرج من المولد بلا حمص ، ربط نفسه فى عجلة الرئيس الراحل ، مسلحا بكلمة : حاضر . وقد حلت ساعة الحساب .

على الطعام ، جلسا ، يمضغان فى روية القليل من المأكولات والكثير من الصمت ، وكل منهما تشغله مشاغله ، كرامة يتعلق بماضيه ، والخال عباس مهموم بايامه القادمة وسط هذه التغيرات الكاسحة .

قال الخال عباس لنفسه : الحق حق .

لكنه صمت وبلع الكلام ولم يبح بما فى قلبه ، فرفيقه اصبح ينتسب الى الأمراء ، ويهمه بيع عزبة اللواء بعد ان آلت الى زوجته ، واذا كان قد اصطفاه فى لحظة ضعف ، فسرعان ما يسترد قواه وعافيته ، ويتنمر مرة اخرى .

رأى الخال عباس الدنيا الواسعة ، وكيف حصر كرامة نفسه فى خية ، فقال لنفسه ، لن يخرج ولدنا كرامة من ازمته الا اذا رأى الدنيا الواسعة وسمى الأشياء باسمائها الحقيقية . اما اذا بقى على هذا الحال فسوف تأكله مخاوفه .

ورفع رأسه عن المائدة وتأمل بنيانه العريض ، وقال لنفسه : خسارة ياولدى .

الشدائد وعذاب المعتقلات علمت الخال عباس ان الناس نفوس ، نفس قوية ، واخرى ضعيفة هشة . وكان يفتح قلبه للضعاف قبل الأقوياء ، فالناس فى حاجة الى كلمة حلوة .

قال الخال عباس مشجعا :

- هذه صفحة جديدة ياولدى . حياة اخرى ، مليئة بالنعم ، وانظر كيف التقينا هنا جميعا مصادفة ، زهية هانم .

بعدها تريث برهة ، قبل ان ينطق قائلا :

- ومحمد نجيب .

خفق قلب كرامة عندما سمع اسم محمد نجيب ، هذا ابنه ، من زهية عاملة الترحيلة ، وليس من زهية هانم زوجة الدكتور أحمد السيد باشا ، فهذه امرأة اخرى غريبة عنه ، واصبحت لا تنتمى الى عزبة عويس ، وبعدها ضحك قائلا لنفسه ولخال عباس ابوحميدة :

ـ كلنا تغيرنا .

نظر اليه الخال عباس مستفسرا ، فاضاف كرامة قائلا :

ـ دعتنى صباح اليوم زهية لزيارتها فى المستشفى ، ولما ذهبت اليها طردتنى . طردتنى شر طردة ياخال .

توقف خال عباس عن الطعام ، تساءل ، قال :

ـ لماذا ياولدى ؟

اجاب كرامة وقد خفض من صوته ، قال :

ـ مسألة يطول شرحها وتعود الى ايام الصبا . ايام الطيش .

هز خال عباس ابوحميدة رأسه ، صمت عن الكلام وتوقف عن الطعام ، ولم يكن فى حاجة الى سؤال أو جواب ، فالخطاب يظهر من عنوانه ، وقد أعرب كرامة عن نيته ، وكشف عن مقصده ، وقال لنفسه : الجبان جبان حتى اذا تزوج من اميرة او عمل فى الخارجية ردحا من الزمن .

هذا رجل يهرب من ماضيه ، فى لحظة فقد فيها مستقبل ايامه ، ويا ويل من يتنكر لأيامه السابقة ، فى لحظة ضعف .

قال عباس أبوحميدة لنفسه : هذه حالة ميئوس منها ، وقرر عدم مصارحته بما يعرف .

عندما سألة كرامة ، قائلا :

ـ ماذا افعل ياخال ؟

اجابه الخال عباس وهو يطوح رأسه ، قائلا :

ـ ربنا يجعل العواقب سليمة .

وقاما معا .

(١٣)

ايقظتنى جويدان من النوم ، وأحسست فى صوتها بنبرة فرحة وحدثتنى كطفلة صغيرة مشاكسة ، قالت :

ـ استعدى ياجلبهار للعيش معى فى الإسكندرية . كرامة استقال من الوظيفة وسوف ابيع القصر والعزبة .

كنت شبه نائمة ، ورأيتها كطفلة صغيرة يدفعها فضولها لتحطيم لعبتها وممارسة متعة الفرجة والاكتشاف . سألتها :

ـ ماذا جرى ياسمو الأميرة ؟

اجابتنى فى جد هذه المرة ، وقد عادت الى طبيعتها وصبغت صوتها رنة أسى ، ويبدو أنها قد تبينت أنها ايقظتنى من النوم ، فأحسست بندم ، قالت :

ـ سعادة المستشار رفض النقل الى الهند وقدم استقالته .

قلت لها :

ـ مبـــروك .

أكملت حديثها ، قالت :

ـ وافقنى على ضرورة العيش فى الإسكندرية فى الشتاء .

ضحكت ، قلت :

ـ حياة أسرية هادئة .

قاطعتنى ، قالت :

ـ سوف يفتتح مكتبا للاستيراد والتصدير .

تبينت أنها قد أشارت الى بيع العزبة ، سألتها ، قلت :

ـ وما حكاية بيع العزبة ؟

اجابتنى ، قالت :

- الدكتور أحمد السيد باشا عرض شراء القصر واربعين فدانا .

وبعدها ، اكملت :

- تصورى ياسمو الأميرة ، قصر أبى اللواء عويس ، أصبح مدرسة لتخريج الفلاحين . خرب . بيعه أفضل .

أغرقتنى جويدان بمشروعاتها المفاجئة ، وحانت منى نظرة الى الساعة فوجدتها السابعة صباحا ، وأنا من عادتى أن أنعس يومى السبت والأحد حتى الحادية عشرة صباحا ، لأخذ كفايتى من النوم وأعوض تعب الأسبوع .

قلت لنفسى : سامحك الله ياجويدان . هذه ليست ساعة الحديث حول مشروعات ، واليوم يوم أحد ، ورأيت أن أسايرها فى فرحتها دون تعليق أو مناقشة ، وان كان قد استقر فى عزمى ان استقالة كرامة من عمله فى الخارجية ، تحمل فى طياتها رغبته فى الطلاق ، ولا أدرى ما الذى دفعنى الى هذ اليقين ، حيث لا علاقة بين الاستقالة والطلاق .

لكنه إحساس ، والمرأة أحاسيسها أصدق من عقلها ، وقلت لنفسى : فرحتك لن تتم ياجويدان .

بعدها قلت لنفسى : ربما جويدان يسعدها الطلاق .

غبت عن جويدان لحظات ، كنت اردد فيها ، كلمات ، نعم . نعم وغرقت فى افكارى ، وأنا امسك بالهاتف ، وتبينت فجأة أنها تحدثنى عن كرامة فى ود شديد ، وكأن مشاكلها معه قد انتهت دفعة واحدة ، قلت لنفسى ضاحكة : ما أشد تقلبات قلب المرأة .

انتقدتنى علا المجد أول أمس قائلة :

- كفى ياسمو الأميرة عن ترديد هذه الأكلاشيهات التى لا معنى لها .

قالتها فى أدب مصطنع ، وعلى مسمع من الزملاء فضايقتنى ، وكدت أتشاجر معها ، غير ان صديقى أنور سلامة ، شغلنى عنها بطريقة لبقة ، وصحبنى بعيدا لنأخذ قهوتنا وقد أدار الحديث بيننا فى وجهة أخرى .

تذكرت هذا كله ، بينما جويدان تحادثنى على التليفون ، ويبدو انها تبينت عدم متابعتى لها ومشاركتى فرحتها ، فسألتنى ، قالت :

ـ انت بخير ياجلبهار .

قلت لها دون مقدمات :

ـ ضايقتنى زميلة يوم الخميس فحرقت دمى .

صمتت جويدان فترة قصيرة ، وبعدها سألتنى ، قالت :

ـ مـن هـى ؟

أجبتها على الفور ، قلت :

ـ عـلا المجـد .

ضحكـت ، قالت :

ـ عـلا المجـد .

أكملت قائلة ، وقد زاد غيظى :

ـ هذه البنت "المفعوصة" انتقدت طريقتى فى الحديث . تصورى .

قالت لى جويدان على التليفون :

ـ هـذه البنت !!

وضحكت ضحكة عالية .

بعدها قالت :

ـ هذه فضيحتها بجلاجل .

تعجبت . سألتها عما تقصد ، فأجلت الحديث الى ان نلتقى ، قائلة ، هذه اسرار .

ايقظتنى من النوم فى هذه الساعة لتخبرنى باستقالة زوجها وكان فى مقدورها الانتظار حتى تحادثنى ـ كعادتها ـ قرب الساعة الحادية عشرة .

قلت لنفسى : هذه السيدة تحطم لعبتها بيديها لتتفرج عليها ، تظن انه بسفرها الى الإسكندرية وانغماسها فى الأعمال التجارية سوف تضمن

عودة كرامة اليها . كرامة عقله مشغول باوهام كثيرة وروحه افسدها الماضى واحلامه حطمها مقتل السادات على هذا النحو الفاجع .

فى سنوات عز السادات بعد حرب أكتوبر بقليل كان كرامة يردد لنفسه وللآخرين قائلا :

ـ حلم جمال عبدالناصر فى الاشتراكية والقومية العربية قد فشل بسبب عوامل خارجية قوية لا قبل لمصر بها اما حلم السادات فى بناء التنمية عن طريق الرأسمالية سوف يجد دعما عالميا بعد حرب اكتوبر اما الوحدة العربية والقومية فلها الله .

قلت له ذات مرة :

ـ اسمع ياكرامة . الحلم الفردى هو اساس تقدم المجتمع .

اجابنى فى حسرة ، قال :

ـ الهم العام يؤرقنى ياجلبهار ، فأنا لست اميرا ، وقد لحقت مجانية التعليم فى الجامعة فتوقفت عن بيع العقود والجرى وراء السياح فى منطقة الأهرامات ، ولا تنسى اننى التحقت بالخارجية دون واسطة .

قلت له على الفور :

ـ وتزوجت اميرة ايضا دون واسطة . هذا هو المشروع الفردى .

ضحك ، قال لى :

ـ انت كنت واسطتى ياسمو الأميرة .

ذات مرة ، قلت لكرامة :

ـ الرئيس مبارك يسير على خطى السادات .

حدثنى كدبلوماسى ، اجابنى فى اقتضاب ، قال :

ـ مصر لها سياسات ثابتة .

كانت جويدان تحدثنى ، وأنا غافلة عنها ، تحدثنى عن ثمن العزبة ومحاميها وايضا زميلنا الجديد الدكتور على سموحة ، وانتبهت اليها عندما ذكرت الدكتور على سموحة ، وسألتنى عن سبب عجز يده اليسرى عن

الحركة ، سألت نفسي : ماذا جرى ياجويدان ؟

بين اليقظة والنعاس ، رأيت جويدان تتعلق بزميلتا الجديد الدكتور على سموحة ، وتجرى وراءه الى الإسكندرية ، فتضايقت ، وبدا لى الأمر كله كابوسيا .

سألتنى جويدان :
– متى نلتقى ؟

اجبتها ، قائلة :
– على الغداء ، عندى .

رحبت بدعوتى لها ، فهى تود الحديث ، وجدت ما يشغلها فى حياتها الفارغة ، قرأت ان تشغلنى به ، بيع العزبة ، السفر الى الإسكندرية ، التعلق بعلى سموحة ، استقالة كرامة من العمل ، الانغماس فى اعمال تجارية فاشلة ، وهذه كلها مسائل لا تستهوينى بالمرة ، فقلت لها ، أنا متعجلة لسماع حكاية علا المجد ، فاجابتنى :
– تقصدى فضيحة علا المجد ؟

قلت لها :
– نعم .

جلسات النساء تميمة ، فهى ممارسة للحب والبغضاء على الهواء ، خاصة عندما تزينها الغيرة والمؤمرات الصغيرة ، اما اذا تجاوزت التميمة حدود الدعابة المشروعة والمزاح ، تحولت الى فضائح ، وهذه اشياء مقززة لى ، ترفضها نفسى ، وتمجها مشاعرى ، فأنا تعودت ان اسمى الأشياء باسمائها الصريحة الواضحة .

قلت :
– جويدان . امامنا جلسة تميمة فنية ممتعة .

اجابتنى ، ضاحكة على الطرف الآخر :
– واية تميمة ياحبيبتى .

استعدت نشاطى ، وقد أسعدتنى ضحكتها ، فمن متع الدنيا أن تستيقظ امرأة لتتقبل قبلة من حبيب على التليفون أو ضحكة من صديقة أو قريبة لها .

انتهت مكالمتنا ، وقمت الى الحمام ، اغتسلت ، ووضعت على بدلة التدريب البسيطة ، وقررت التوجه الى النادى ، وممارسة الجرى ، هذا صباح مشرق ، له شمس وسماؤه صافية ، على الرغم من برودة الجو الشديدة ، وأنا يجدد نشاطى الجرى المعتدل ، كما انه يفرغ طاقتى الزائدة ، ويمدنى بحيوية طوال الأسبوع .

(١٤)

مباحثات واوراق كثيرة . ترك الدكتور أحمد السيد باشا لصديق له من المحامين فى جنيف الفراغ منها مع الأميرة جويدان ومحاميها وقد تابع محمد نجيب تطور الصفقة مع كرامة سرحان والأميرة جويدان .

ترك الباشا الأمر لهما ، ولم يشغل باله بالصفقة ، فثقته فى خبرة محاميه كبيرة ، فهذا صديق له من سنوات الأربعينيات . محام يهودى عمل فى مصر لسنوات طوال فى سلك المحاماة ، وانشغل بالسياسة فى اوساط الحركة الشيوعية .

كان الرجل معاديا للحركة الصهيونية وقيام دولة إسرائيل وطرد من مصر سنة ١٩٥٨ بسبب انتماءاته اليسارية ، فاختار جنيف مقرا له ، وقد رفض الذهاب الى باريس عن عمد ، بسبب كراهيته لهنرى كورييل وانحياز المثقفين الفرنسيين الى إسرائيل .

واقتصرت احاديث الدكتور أحمد السيد باشا مع محاميه اليهودى بن هارون على عموميات الصفقة وقد انشغلا بالحديث عن الماضى وما فعلته الأيام بمصر .

قال بن هارون ضمن حديثه :

- ياباشا . الوطن هو الذكريات .

فتوقف الدكتور أحمد السيد باشا عند هذا القول طويلا . نعم . الوطن هو الذكريات .

لما رأى بن هارون توقف الباشا عند هذا القول : الوطن هو الذكريات . أضاف قائلا : هذا القول ياباشا للكاتب السويسرى الشهير ماكس

فريش . وكتبه اثناء هجرة مؤقتة له للولايات المتحدة استمرت ثلاث سنوات .

سأل بن هارون قائلا :

ـ المصريون هنا فى جنيف لا يشغلهم سوى ترديد تفاصيل مصرع السادات ومتابعة التحقيقات ، هل استمعت اليهم ؟ يعيشون الأحداث وكأنها وقعت أمس ، وليس فى العام الماضى .

اجاب الباشا ، قائلا :

ـ استمعت لبعضهم . بعضهم حزين لموته وآخرون فرحون اما كثرتهم فيتخوفون من ابداء رأى قاطع امامى . فأنا غريب ، وباشا سابق .

أضاف بن هارون ، قائلا :

ـ السادات رحمه الله استحق مصيره ليس لأنه وقع اتفاقية سلام مع إسرائيل ، فكلنا يعرف ان اتفاقيات السلام غير العادلة ليست الا هدنة حرب ، لكن أخطاءه السياسية هى انه عمل لمسح ذكريات الوطن ياباشا . ذكريات الوطن ضاعت فى عهده من اذهان الناس ، والوطن هو الذكريات .

اضاف بن هارون ، قائلا فى حسرة :

ـ طردنى عبدالناصر من مصر عام ١٩٥٨ شر طردة ليس بسبب عقيدتى الدينية لكن بسبب ارائى السياسية اليسارية ، وصداقتى لليساريين ـ كان مواطنا مصريا عظيما ، عمل على نشر الثقافة والذكريات والأحلام ، والوطن ذكريات واحلام .

أضاف بن هارون قائلا :

ـ طردنى عبدالناصر من مصر ولم يسقط الجنسية عنى . ووصلتنى بعدها رسالة منه ، عن طريق واحد من المقربين لديه ، قال فيها انه رحمنى من اعتقال فى الواحات لعدة سنوات ، وانقذنى من تعذيب اللواء همت .

ونظر الىّ ضاحكا .

فاجبته ساخطا ، قلت :

- ياليت الرئيس اعتقلني . عذاب الغربة اقسى من الضرب ، كما ان الهروب من مصر في ذلك الحين كان خيانة ، فكيف يهنأ لي العيش ، واصدقائي ومعارفي في الواحات ؟

اجابني الرجل ، قال :
- كان صراعا سياسيا ، والصراعات السياسية لها متاعبها وآثامها .

كان الدكتور أحمد السيد باشا يستمع لصديقه صامتا ، فقد فرقت السنين بينهما ، واقتصرت الاتصالات على مكالمات تليفونية من حين الى آخر عند سفره الى عاصمة اجنبية .

منذ قدم الباشا الى جنيف وهو يعيش احوال الوطن على نحو لم يعشه من قبل ، فماذا جرى ؟ هل مصر في ازمة روحية ، بعد مقتل أول رئيس على هذا النحو؟

في سفريات الباشا السابقة كانت احاديث الناس تتصرف الى آخر الأخبار الواردة من الوطن ، اما اليوم فاحاديث الناس تتصرف الى احوال البلد وتلك الأزمة الروحية التي تخيم عليها .

فجأة قال بن هارون :
- كراهيتي للسادات رحمه الله لا حد لها . والغرب هنا يقيم له مناحة وتزل فيها لطم على رأى اخوتنا الفلاحين .

ضحك الباشا لهذا التعبير ، وكان الحديث بينهما يجري بالعامية المصرية ، وكأنهما في المعادي أو في قرية مصرية ، وليس في جنيف .

قال الباشا مبتسما :
- على كل حال اعتقلت أنا بدلا منك ، وفي نهاية العمر ايضا . يبدو ان الاعتقال قد اصبح لعنة في مصر تلاحق الجميع .

سأل بن هارون :
- كيف ياباشا ؟

اجابه الدكتور السيد باشا ضاحكا :

ـ فى حملة سبتمبر الشهيرة مع فؤاد باشا سراج الدين ومحمد حسنين هيكل وعدة وزراء . أصابتنى الدور .

ضرب بن هارون كفا بكف ، قال :
ـ آسف ياباشـا .

عرف بن هارون فى حينه ان حملة الاعتقالات قد شملت الجميع لكنه لم يتصور للحظة واحدة ان تمتد الحملة الى صديقه ، فهذه حماقة ما بعدها حماقة فالدكتور لم يكن عضوا فى حزب أو فى جماعة ما .

قال الدكتور أحمد السيد باشا حزينا :
ـ ابنتى الوحيدة الدكتور أوديت قضت فى أزمة مارس ١٩٥٤ ، فى عهد عبدالناصر ، وأنا دخلت المعتقل فى اواخر عهد السادات ، ولا أحد يعرف ماذا يجرى لنا فى عهد الرئيس مبارك ؟

أجاب بن هارون ، قائلا :
ـ عشرات من المقالات تصدر كل يوم حول الرئيس مبارك وكلها تتسم بالغموض . هذا رجل لم يفصح عما يدور فى رأسه بعد ، والمشكلة فى رأيى انها اصبحت تمس الشارع المصرى وليس الجهاز الحاكم أو الصحافة او الإعلام ، لقد خلقت الجماعات الإسلامية ذاكرة اخرى للوطن ، العودة الى القرن الأول الهجرى ، تحت شعار تطبيق الشريعة الإسلامية والإسلام هو الحل ، والعودة الى الوراء دعوة مثالية ، استندت اليها الصهيونية السياسية فى انشاء المستوطنات فى القرن الماضى ثم اقامت دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ .

اخذ الدكتور أحمد السيد باشا يستمع فى اهتمام ، فهذه رؤية جديدة عليه ، وتساءل :
ـ هل الجماعات الإسلامية رد فعل لما جرى فى الشرق الأوسط ؟

اجاب بن هارون ، قائلا :
ـ فشل المشروع القومى المصرى مرتين ، مرة فى عهد محمد على سنة ١٨٤٨ ، ومرة اخرى فى عهد عبدالناصر فى سنة ١٩٦٧ ، وفى المرتين ،

اظهر الغرب عداء مبيتا ضد مصر ، ولهذا فمن الطبيعى ان يجرب الناس طريقا آخر ، العودة الى الدين كمقابل للوطنية والقومية ، الدين هنا ليس العقيدة فالشعب المصرى متدين بطبيعته ، الدين فى هذا السياق ، هو التراث والسياسة . هذه حركة ثورية مثل الثورات التى عرفها التاريخ الإسلامى فى السابق ، وتسببت فى تمزيق الخلافة ، وكلنا يعرف ما سببه الخوارج والشيعة من انقسامات .

سأل الدكتور أحمد السيد باشا :

ـ والحل ياحضرة الأفوكاتو ؟

اجاب بن هارون ، قائلا :

ـ هذه ليست جماعة إرهابية ، هذه حركة سياسية تعتمد على الإرهاب فى تحقيق اهدافها ، والفرق بين الجماعات الإرهابية والجماعات السياسية التى تلجأ الى وسائل إرهابية لتحقيق اهدافها يجب ألّا يغيب عن فطنة رجال السياسة والقانون غير ان رجال الأمن غالبا ما تكون لهم الغلبة فى مثل هذه الحالات فتغيب الحقيقة .

هز الدكتور احمد السيد باشا رأسه موافقا وهو يقول :

ـ نعم . نعم .

تابع بن هارون حديثه ، قال :

ـ مقتل الجماعات الإسلامية فى الشرق فى تبنيها لسياسة برجماتية فى الساعات الحازمة جريا على سياسات حسن البنا الذى مد جسورا مع الملك عندما بلغت الحركة الوطنية ذروتها ، ولازالت هتافات الإخوان فى الجامعة فى مديح حكومة اسماعيل صدقى باشا وصمة عار فى جبين الحركة ، حيث لجأت الى الابتذال ومديح اسماعيل صدقى بدعوى ان اسمه قد ذكر فى القرآن الكريم يعتبر ..

توقف بن هارون عن الحديث ، فذكر الدكتور أحمد السيد باشا الهتاف الذى رفعه الإخوان فى الجامعة :

ـ واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

الدكتور أحمد السيد باشا يذكر هذه الاحداث وكأنها قد وقعت اليوم ،

عندما رفع الإخوان مصطفى مؤمن وهو يردد الآية القرآنية الكريمة دفاعا عن اسماعيل صدقى باشا فى مواجهة المظاهرات المعادية له . حقيقة دفع حسن البنا حياته ثمنا لمعارضة سياسات ابراهيم عبدالهادى باشا بعدها بعدة سنوات ، لكن بعد فوات الأوان فقد تمكن الملك من توجيه ضربات قاضية الى حزب الوفد .

اضاف بن هارون ، قائلا :

- المناورات السياسية والتحالفات السرية من طبيعة العمل السياسى العلنى ، اما الجماعات المثالية اذا لجأت الى المناورة واتباع الوسائل البرجماتية المؤقتة فقد فقدت مصداقيتها واساس وجودها وكان فى مقدور حركة الإخوان ان تضخ دماءً جديدة فى الحياة السياسية فى مصر اذا تمكست بمثاليتها وتخلت عن رغبتها فى الحكم . لكنها للأسف ربطت نفسها بسياسات البترو دولار ، ودخلت الحرب الباردة الى جانب الولايات المتحدة فى مواجهة الاتحاد السوفييتى فى افغانستان . وتعاونت مع السادات فى بداية عهده فى مواجهة المثقفين واليساريين .

بعدها قال بن هارون :

- اخطر الجماعات الإسلامية فى المنطقة برمتها هى جماعة شكرى مصطفى بسبب تمسكها بالمثاليات وابتعادها عن البرجماتية ، فهذه الجماعة سوف تفرخ عشرات من الجماعات التى تتخذ الإرهاب وسيلة لتحقيق اهدافها .

سأل الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :

- والحـــل ؟

اجاب بن هارون ، قائلا :

- الدفاع عن ذاكرة الأمة وتاريخها . التصدى لهذه الجماعات فى الشارع المصرى دفاعا عن احلام الشعب وليس دفاعا عن مؤسسة الرئاسة فقط .

هز الدكتور أحمد السيد باشا رأسه متأملا لكنه توقف عن الحديث ، حل

به تعب ، والحديث في هذه المنطقة يعتبر من الأنشطة السياسية التى ينأى بنفسه عنها عن عمد ، فاهتماماته فكرية فى المقام الأول .

بن هارون يعتبر نفسه تلميذا من تلامذة الدكتور أحمد السيد باشا كما ان صداقة جمعته بابنته الراحلة الدكتورة أوديت ورفاقها ، ولم يغب عنه عزوف استاذه عن الخوض فى قضايا شائكة ، فتوقف عن الحديث على الفور ، معتذرا عن هذه الدردشة .

(١٥)

دعا الدكتور أحمد السيد باشا كرامة سرحان وعائلته الى عشاء فى الفندق بمناسبة انتهاء المحامين من اعداد العقد وتحديد ثمن الصفقة وطريقة الدفع وكذلك بمناسبة خروج زهية هانم من المستشفى وقد استعادت بعض عافيتها .

وفى الحقيقة ، رفضت زهية البقاء فى المستشفى وفضلت البقاء فى جناحها فى الفندق ، فشدد الأطباء على ضرورة نومها فى السرير لعدة ايام اخرى ، حتى لا يدهمها النزيف ثانية .

زهية جالسة فى سريرها ، وحولها زوجها ، وكرامة سرحان ، والخال عباس ابوحميدة ، ومحمد نجيب وصديقته السويدية ، وقد طلب الباشا عشاء للجميع فى جناحه .

اعد الجرسونات المائدة ، بينما انشغل الجميع فى احاديث عابرة جانبية وقد طلت السياسة عليهم بعد استقالة كرامة سرحان من منصبه ، فالرجل يعرف الكثير مما جرى .

الأميرة جويدان وابنتها ابسنت اعتذرتا عن عدم المجىء ، فبعد أول لقاء للأميرة جويدان مع زهية هانم فى المستشفى ، أحست بالغيرة نحوها ، ولما التقت بمحمد نجيب لإنهاء الصفقة ، اعجبت به فى البداية ، ثم تحول اعجابها الى دهشة ، وبعدها تحولت الدهشة الى يقين .

غضبت الأميرة جويدان فى البداية ، ثم كتمت غضبها ، واستكانت ، وقد غابت فرحتها ببيع القصر واربعين فدانا ، فبالغت فى قيمة الصفقة .

سألت زهية هانم كرامة سرحان عن سمو الأميرة وابسنت ، وكلفته بنقل تحياتها لهما .

قال كرامة سرحان :

ـ حــاضـــر .

كان الباشا يوزع اهتماماته على الجميع ، زهية هانم ، كرامة ، محمد نجيب ، والفتاة السويدية الشقراء التى تتحدث العربية بصعوبة وان كانت تفهمها بشكل جيد ، اما الخال عباس ابوحميدة ، فكان جالسا وهو اقرب الى الصمت ، يرقب هذا المشهد ، قائلا لنفسه : ربنا يجعل العواقب سليمة .

نشرت صحف الصباح صورا لبعض المتهمين فى احداث اسيوط وقد لمح كرامة بين صور المتهمين صورة رفيق طفولته وصباه رشاد الترجمان فوقع قلبه . قرأ ما كتبته الصحف عن خطورته الى جانب عبود الزمر ، فتعجب . وسأل نفسه : ماذا جرى فى البلد ؟ وماذا جمع الشامى على المغربى ياناس ؟

مال كرامة على خال عباس ، سأل ، قال :

ـ هل رأيت الصحف اليوم ياخال ؟

أجابه الخال عباس على الفور قائلا :

ـ نعم . وياليتنى ما رأيتها .

انقطع حبل الحديث بينهما ، وحل صمت عليهما ، وعاد كل منهما يفتش فى دفاتر أيامه ، وتطفو الذكريات متقطعة كشريط فيلم قديم امام اعينهما . صور عزبة عويس ، البدرشين ، نزلة السمان ، الحوامدية ، أبوالنمرس ، الأماكن دون ناس صور جرداء ، مثل كروت الكارت بوستال التى لا قيمة فنية لها ، أما الناس فهم الذين يجعلون للأماكن طعما ورائحة ومشاعر جياشة . رشاد الترجمان زميل دراسة فى المدرسة الابتدائية ، انشغل بالجرى وراء الجمال وتسويق العاديات للسياح وتوقف عن الدراسة بعد حصوله على شهادة الثقافة بتفوق . كانت حركة السياحة مضروبة بعد قيام الثورة بسبب العداء الغربى لحركة الجيش ، وانشغل رشاد الترجمان مع اخوته واعمامه واخواله فى تدبير أمور معيشتهم .

لما دبر لى خال عباس وظيفة بثمانية جنيهات مع اليوزباشى شهدى الششتاوى فى هيئة التحرير ، واخذنى معه لجرد قصور العائلة المالكة ، فدخلت الى قصر اللواء عويس من الباب ، وغازلت ابنته الأميرة جويدان ، وعاونتها فى تهريب مجوهراتها بعيدا عن عيون اللجنة ، بعد ان سمح لى حضرة اليوزباشى ان ادخل مخدع نومها بمفردى ، قال لى :

ـ سامع ياكرامة . سوف اتركك معها ساعة زمن . انت وشطارتك .

تعلقت بى وكنت منقذها ، ولما رويت ذلك لرفيقى رشاد الترجمان ، نصحنى بالابتعاد عن هذا الرجل : شهدى الششتاوى .

قال لى :

ـ اين ضميرك ؟ هذا ليس بقشيشا نتحايل لأخذه من سائح او سائحة بمعسول الكلام . هذه خيانة . كما ان مصادرة الأملاك ليست فى شرع الله .

ربطت مصيرى بمصير اليوزباشى شهدى الششتاوى ، فابتعد عنى رشاد الترجمان . خاصمنى . وانشغلت عنه بترديد الهتافات والحماس لحركة الجيش ووضعت نفسى فى خدمة اليوزباشى شهدى الششتاوى ، حتى غرر بى ، وجعلنى ، اكتب شكوى فى الدكتور أحمد السيد باشا وابنته المرحومة اوديت اتهمهما فيها بخطف زهية من عزبة عويس وحبسها فى قصرهما فى المعادى . وقعت على الشكوى بهذه اليد التى امدها اليوم للدكتور أحمد السيد باشا دون خجل . كان ذلك فى أزمة مارس ١٩٥٤ والصراع بين البكباشى جمال عبدالناصر وكافة القوى السياسية على اشده .

حانت نظرة من كرامة سرحان الى الدكتور أحمد السيد باشا ، فخفض رأسه ، وانطوى على نفسه ، وكان الباشا جالسا مرفوع الهامة ، يبتسم .

قال كرامة سرحان لنفسه ، الآن وقد مضت الأيام بحلوها وشرها ، لا يهمنى فى هذا المولد كله سوى ابنى ، وقد شغلته عنى هذه الفتاة .

كان محمد نجيب مشغولا بالفتاة ، يداعبها ، يقفان ويطلان من النافذة ،

ثم يعودان الى مقعديهما ، وعينا زهية لا تفارقهما فى القيام أو القعود ، اما الباشا فقد انشغل بالحديث مع خال عباس ابوحميدة .

كنت أود ان اشخط فى محمد نجيب واطلب منه ان يجلس هادئا ويبتعد عن هذه الفتاة ويكف عن وضع يده على شعرها واحاطتها بذراعه ، كأنه يتحسس نبضات قلبها . عيب . لكننى رأيت نفسى فى جلستى فوق شجرة الجميز ، وكل اعضائى تنتفض ، اذا فتحت نافذة الأميرة جويدان ، ترتعش اطرافى ، ويسخن جسدى ، وكانت النافذة تفتح ولا تطل منها الأميرة ، لكن الرعشة لا تفارقنى .

ابناء الفقراء فرحتهم لا تتم ابدا ، ومتعهم قليلة ، وكنت اكتفى من العشق بفتح النافذة ، حتى أصبحت النوافذ المفتوحة تثيرنى وتقربنى الى النساء .

ضربتى الباشا مائة جلدة ، ورعتنى زهية ، حتى طابت جروحى دون تسمم ، واخذتنى فى حضنها وهى تبكى ، طابت جروح جسدى ، وبقى جرحى الداخلى مفتوحا ينزف .

ولما اخذتها فى العشية ناحية الساقية المهجورة فى الخص ، كانت السماء صافية والنجوم ساطعة مبدورة تضىء ، وأحسست بنوافذ الأرض كلها مفتوحة فغصت فى داخلها .

غاب عن جنيف ورنت كلمات الموال تشدو :
يابهية خبرينى .. ع اللى قتل ياسين
وعد ومكتوب على .. ومسطر عالجبين
وأنا كل ما اقول التوبة
ترمينى المقادير .

اللحن فى أذن كرامة ، وأناس عزبة عويس فى عينيه ، هى لحظات من الشجن ، من الإحباط ، والمقعد المريح يسند ظهره ، والسجادة الثمينة تغوص فيها اقدامه ، والهواء المكيف منعش ، كل هذا يشده الى حاضره الآنى ويبعد عنه تلك الأيام الحزينة .

المقعد الوثير . السجادة الثمينة . الهواء المكيف : هى أشياء ساكنة لكنها تشده اليها بحبال واربطة متينة ، تجعله يرفض ماضيه ويتنكر له ، ينفى انه وانه وانه .

الأشياء الجامدة تسكنها ارواح . وقد تقمصته روح الأشياء .

سأل الدكتور أحمد السيد باشا الخال عباس ابوحميدة ، قال :
- هل تعرف اين رمت المقادير بالرفيق بن هارون ؟

قال عباس ابوحميدة :
- اعتقد انه يعيش فى باريس .

ضحك الدكتور أحمد السيد باشا ، اكمل :
- كلا يارفيق . صديقنا بن هارون يعيش فى جنيف منذ عام ١٩٥٨ ، وقد التقيته بعد ظهر اليوم . كما هو . عاشق لمصر ومولع بالتحليل السياسى .

ضحك الخال عباس ابوحميدة ، قال :
- هذا الرجل اغرق الحركة اليسارية فى تحليلات بعضها اثبتت الأيام صحته وبعضها طوته صفحات الأيام ، رجل له قدرة فائقة على التنظير واقامة نسق متكامل من التفاصيل الدقيقة ، وكلما غرق فى التفاصيل ، ابتعد عن الرؤية السليمة ، وخانه ذكاؤه .

نظر الدكتور أحمد السيد باشا الى النافذة ، وسرح قليلا ، بعدها قال :
- يارفيق ، ماهو سر تشرذم الحركات اليسارية فى الوطن العربى ؟ وحبها للانقسام والتوالد ؟

اجاب الرفيق عباس ابوحميدة ، قائلا :
- التشرذم لم يكن مقصورا علينا فقط ، انظر الى حزب الوفد الذى خلف لنا السعديين ، والكتلة الوفدية ، الميل الى التشرذم سمة سائدة فى العمل العربى ، حيث روح القبيلة اقوى من الحزب ، كما أن الطبقات فى المجتمع العربى شديدة التنوع ، فالفقراء طبقات مختلفة ، والأغنياء طبقات مختلفة ، والمصالح لم تتبلور بعد ، فالجرسونات يدافعون عن مصالح

اصحاب المقاهى ، وتعدد الرؤى والمصالح يؤدى بالضرورة الى انقسامات ، وقد اعجبنى رأى للكاتب الناصرى محمد حسنين هيكل قال فيه أنه يتوقع استمرار حالة من التشرذم فى العالم العربى حتى عقد التسعينيات الى ان تتبلور مصالح الكتل والطبقات فى المجتمع العربى فى تنظيمات تعبر عنها .

هز الباشا رأسه ، وبعدها ، قال :

ـ صدقت يارفيق .

تبينت زهية هانم فى جلستها ان كرامة يجلس وحيدا ، وقد انشغل الجميع عنه ، محمد نجيب سرقته مارينا منهم ، والباشا مشغول بالحديث الى الخال عباس أبوحميدة ، فالتفتت الى كرامة ، قالت :

ـ ياسعادة المستشار ، ماهى مشروعاتك المقبلة بعد الاستقالة ؟

كرامة يعتقد ـ ومعه حق ـ ان من يسأله عن ايامه القادمة يورطه ، يتآمر عليه ، فما بالنا اذا كانت زهية صاحبة هذا التساؤل ، انها تقصد بسؤالها معرفة نيته فيما يتعلق بمحمد نجيب وزوجته الأميرة جويدان . نظر اليها وهى راقدة فى سوء نية ، قال لنفسه : النساء كيدهن عظيم حتى بعد ان يفقدن الرحم . طبيعتهن الشريرة تتغلب عليهم .

اجاب كرامة ، قال :

ـ لم أفكر بعد .

تنهدت زهية ، قالت :

ـ طيب ياابن بلدى .

عرفت ان كرامة لا يزال على تردده ، وتعلقت عيناها بمحمد نجيب وبفتاته مارينا السويدية ، قالت لنفسها : مسكين ياابنى . هذا هو الرجل الآخر ، يجلس صامتا مثل ابى الهول . لا شىء يحرك مشاعره ، فيطالب بالضنا ، يقول : هذا ابنى .

زهية لا تعرف على وجه الدقة مقصد الباشا من شراء العزبة والقصر . وقد احجمت عن سؤاله ، فهى لا تود العودة الى المعيشة فى ذلك القصر

الموحش والذى قطنته فى السابق عائلة اللواء عويس ـ فهذا القصر محل مظالم فظيعة ومن يسكنه تتقمصه الشياطين وتسود أيامه ، وكان حلمها فى السابق ان تهد الثورة هذا القصر على ساكنيه ، وتسويه بالأرض .

جاءت الأيام ومضت ، وهاهو عقد بيع القصر أصبح جاهزا ، والمشترى زهية الصفطى ، هدية الباشا لها . ومضى محمد نجيب قائد الثورة ومضى جمال عبدالناصر ، ومضى أنور السادات ، وقالت زهية لنفسها : لتكن ايام حسنى مبارك أفضل .

سأل الخال عباس ابوحميدة فجأة ، قال :
ـ ياباشا . لم ترو لى شيئا عن فترة الاعتقال الأخيرة وكيف تلقيتم نبأ مصرع الرئيس السادات ؟

ضحك الباشا ، قال :
ـ وصل الزنزانة نبأ اطلاق الرصاص على الرئيس السادات قرب الظهيرة ، وكنا فى الزنزانة أربعة ، فؤاد سراج الدين باشا ، ومحمد حسنين هكيل ، والمؤرخ الشاب صلاح عيسى ، وأنا . فخيم علينا الوجوم ، ففى هذه الساعة ، كانت كل الاحتمالات واردة ، والسؤال المعلق على رءوسنا كان ما مصير الرئيس ؟ رفضنا الطعام بطريقة عفوية ، وساد الزنازين الأخرى صمت مفاجىء ، وادركنا ان النبأ قد شاع ، وكان محمد حسنين هيكل هو أول المتحدثين ، قال :
ـ كان الرجل صديقا لى ، مهما جرى وحصل منه .

وجلس هيكل على البرش صامتا ، وبان عليه حزن عميق .

اكمل الباشا حديثه ، قال :
ـ لفت نظرى على الفور ، الطريقة التى تحدث بها هكيل ، تحدث وكأن مكروها قد أصاب الرئيس ، وهذه الملاحظة لم تفت فؤاد سراج الدين باشا . طلب فؤاد باشا من صلاح عيسى ، استقصاء تفاصيل الخبر . كان صمت مريب يخيم على الزنازين وردهات السجن ، وقد توقفت الحركة فى الممرات ، ووقف صلاح عيسى واخذ يدق على الباب دقات خفيفة ، مناديا

العسكرى الواقف امام الزنزانة ، ياخال . بعد فترة ، فتحت الطاقة ، وجاء صوت خافت يقول : ذبحوه . واختفى الصوت مرة الثانية ، غاب فى الصمت .

اكمل الباشا روايته ، قال :

ـ سقطت دمعتان وسالتا على خد محمد حسنين هيكل ، أما فؤاد سراج الدين باشا فقد انشغل فى قراءة الفاتحة ، وبقى صلاح عيسى واقفا الى جوار الباب لالتقاط أقل نأمة ، بعد حوالى ساعة أو ساعتين ، فالزمن فى تلك الساعات ثقيل ، حدث هرج ومرج فى بقية الزنازين ، وبعدها انطلقت هتافات "تحيا مصر" . "تحيا مصر" . أعقبها على الفور قراءة لآيات الذكر الحكيم ، فقرأت الفاتحة على روحه ، فقد أصبح فى رحاب الله .

أضاف الباشا قائلا :

ـ قرب الساعة الخامسة ، فتح الباب ، وهل مأمور السجن وفى صحبته تشريفة ، قال فى صوت هادئ : لا شماتة فى الموت ، البقية فى حياتكم ، الرئيس السادات فى رحاب الله ، وطلب منا الهدوء ، واغلقت علينا الزنزانة مرة أخرى .

سأل الباشا ، قال :

ـ كيف وصلك النبأ يارفيق فى الغربة ؟

اجاب خال عباس ، قائلا :

ـ جاءنى الرفاق فى براغ ، واخطرونى بخبر اطلاق الرصاص على الرئيس السادات من مسافة قريبة ، وفى الفترة الزمنية التى كان مصير الرئيس فيها مجهولا ، انتابت الجميع مخاوف كثيرة من قيام مذبحة فى المعتقلات تودى بحياة مئات من المناضلين والمفكرين المصريين بدافع الانتقام ، وتكرار مذبحة القلعة الشهيرة .

أكمل الخال عباس قائلا :

ـ كانت مخاوف الرفاق فى براغ حقيقية ، وبدأنا فى قراءة كشوف المعتقلين من العمال ، فالسلطة الجريحة ، تلجأ عادة الى الانتقام ، ولم

تهدأ مخاوفنا الا بعد التأكد من وفاة الرئيس .

ضحك الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :
- يبدو ان المشتغلين بالسياسة لهم حسابات اخرى ، ففى الحقيقة هاجس الانتقام لم يخطر ببالى البتة ، فى تلك الساعات الكئيبة ، غير اننى فيما بعد علمت ان الهاجس لم يكن بعيدا عن ذهن رفيقى خاصة فؤاد سراج الدين باشا ومحمد حسنين هكيل ، أما صلاح عيسى ، وأنا ، فشغلنا بمعرفة الأخبار ، وفى الحقيقة ياخال ، لم يبد أحد شماتة فى الرئيس ، وكان الحزن هو الغالب على الجميع .

ضحكت زهية ، قالت :
- يابرودة اعصابكم ايها الرجال ، فور سماع طلقات الرصاص على شاشة التليفزيون وقطع الإرسال ، اخذنا العربية طيارة الى معتقل طرة ، كانت عربات الأمن تحيط بالمعتقل ، ووجدت مجموعة من اقارب المعتقلين وزوجاتهم ، أغمضنا أعيننا وتوقفنا عن الكلام ، واتجهت آذاننا ناحية المعتقل ، لسماع الرصاص الذى سوف ينهمر ليحصد المعتقلين ، لكن الله سلم وستر .

أضاف الدكتور أحمد السيد باشا ، قال :
- فكرة الانتقام على هذا النحو البشع من الخصوم السياسيين لا مجال لها للمشتغل بالقانون ، لهذا لم ترد على بالى مطلقا ، أما المشتغلون بالسياسة فى مصر فيبدو ان هذا الهاجس لا يفارقهم من واقع تجاربهم المريرة ، ومصرع الرئيس على هذا النحو الفاجع يؤكد هذه القاعدة ، فقد انتقم الخصوم من الرئيس باطلاق النار عليه فى واحدة من اخطر العمليات الانتحارية ، فاصابوه فى مقتل امام شاشات التليفزيون الذى كان يحن اليه ويلجأ اليه فى ساعات الفرح والشدة .

كانت شهية الباشا مفتوحة للكلام بعد مقابلته لصديقه بن هارون ، كما ان خروج زهية من المستشفى اراح باله ، أضاف قائلا :
- سألت فؤاد باشا سراج الدين ، ومحمد حسنين هيكل بعدها بأيام مستفسرا عن سبب يقينهما من مصرع الرئيس السادات فور تلقى النبأ ،

فابتسم فؤاد باشا وتهرب من اجابتى ، اما محمد حسنين هيكل ، فقال ، كانت الدلائل تشير الى مصرع السادات ، فلو كان فى الرئيس "نفس" بعد اطلاق الرصاص عليه ، لوجه خطابا الى الأمة ، نفس واحد ، يسعفه بالحديث لما فوت هذه الفرصة الثمينة ، ولعل خطاب جمال عبدالناصر بعد حادثة المنشية ، يطفو فى الذاكرة مرة اخرى ، غير ان التاريخ عادة لا يعيد نفسه .

قال محمد حسنين هيكل جملته ، وعيناه فيهما لمعة غريبة ، لمعة تنم عن ذكاء فطرى شديد وثقة فى النفس . ذكاء يوفر لصاحبه النوم هادىء البال بضمير مستريح بعيدا عن مشاغل الصغار وألاعيبهم . فى هذه اللحظة ، قلت لنفسى كسيف البال : اين محمد حسنين هيكل والدكتور جمال حمدان من صناعة القرار الاستراتيجى ؟ الأول يشاركنى زنزانتى ، والثانى حبيس صومعته كراهب ، وكلاهما تحت الحصار ، اما بقية المثقفين ففى غربة مفروضة عليهم فى أرض الله الواسعة . لك الله يامصر .

هى أحاديث عابرة ، فيها من الإحباط والأسى اكثر مما فيها من التفاؤل والأمل ، والجرسونات فى حركة دائبة لإعداد المأدبة فى الصالون المرفق بالجناح ، وحالة من الترقب تشغل الجميع .

اقتربت مارينا من سعادة المستشار كرامة سرحان ، وتحدثت اليه بالعامية المصرية كبنات البلد ، قالت :

- ياأبيه تعال معنا الى السويد . والدى رجل صناعة وهوايته تربية الخيول العربية .

ياأبيـه .

انتفضت زهية فى جلستها فى الفراش ، وابتسمت عينا الباشا ، وأحس الخال عباس ابوحميدة باقتراب العاصفة .

اكملت مارينا حديثها ، وهى تنظر فى عينى كرامة سرحان ، قالت :

- اوبسالا مدينة جميلة ، وشتاء شمال السويد ليس فظيعا كما يتصور الناس . تعال معنا ياأبيه .

سأل الباشا ، قال :
ـ متى السفر يامارينا ؟

أجابت الفتاة ، قالت :
ـ بعد يومين ياباشا .

كان محمد نجيب يضحك بشدة ، فتاته تخاطب والده كرامة سرحان ، قائلة : ياأبيه ، بينما هو يحادثه قائلا : ياسعادة المستشار .

ادرك خال عباس ابوحميدة ، ان الفتاة تعرف الحكاية من أولها ، وان الباشا قد نجح فى احاطة كرامة بشبكة واهية من الخيوط ، شبكة واهية ، لكنها متماسكة وكل خيط فيها يسلم الى آخر .

سأل الباشا مارينا ، قال :
ـ هل تعرفين معنى كلمة ياأبيه ؟

أجابت الفتاة فى جدية شديدة وهى تبتسم ، قالت :
ـ بنت البلد المؤدبة تنادى والد رجلها بأبيه .

اقتربت مارينا من كرامة سرحان ، وانحنت امامه ، فتساقط شعرها ، وتدلى ثدياها وبانا ، نظرت فى عينيه ، وكأنها تهزه بنظراتها ليتحرك ، وضعت يدها على ذقنه ، وادارت وجهه قليلا ، وهى تتأمله ، قالت :

الخالق الناطق محمد نجيب ياأبيه .

أجاب كرامة سرحان بكلمات مدغمة : قال :
ـ نعم . نعم .

تراجعت مارينا فجأة عدة خطوات الى الخلف ، سوت شعرها ، نظرت الى زهية هانم فى حسرة ، ومدت يدها الى محمد نجيب ، وسحبته اليها ، وسارت به نحو الباب ، قالت :
ـ ليست بنا شهية الى الطعام ؟

نادت عليها زهية هانم ، خائفة ، قالت :
ـ مارينا الى اين ؟

اجابت الفتاة ضاحكة ، قالت :
- الى غرفتنا .

بعدها أضافت الفتاة فى سخرية ، قالت :
- امامنا اشياء احلى واجمل .

ضربت زهية هانم صدرها بيدها ، بكت ، هاهى الفتاة تخطفه منها دون خجل ، التفتت زهية هانم متضرعة الى الباشا ، قالت :
- ياباشـا .

هز الباشا رأسه ، قال :
- اتركيهما على راحتهما .

هاهو ابنى يسحب فتاته تحت ابطه ويذهب بها الى جناحه أو غرفته فى الفندق ليمارس معها لعبة الحب ، والتفت كرامة سرحان ناحية زهية هانم فوجدها تتمتم غاضبة ، وهى تفترسه بنظراتها ، هاهو الرجل الآخر يصمت . نادته الفتاة السويدية بكلمة أبيه ، لكنه لم يتحرك ، ظل جامدا فى جلسته ، الآخر يلاحقه فى أدق شئون حياته ، يدفعه الى الصمت ، بينما عواطفه جياشة ، يود العيش مثل الآخرين ، لكنه الجبن .

ياخسارتك يامصر .

لا يعرف كرامة سرحان على وجه الدقة اذا كانت زهية هانم قد نطقت بها أم تلفعت بالصمت ، لكنه سمعها باذنيه ، واحسها بقلبه ، وفهمها بعقله ، معها كل الحق ، اذا قالت : ياخسارتك يامصر . وياخسارتك ياكرامة سرحان السقا .

قال كرامة سرحان لنفسه : من شابه أباه فما ظلم . هاهو ابنى فى غرفته يدغدغ لحم الفتاة ويغوص فى شعرها ، وليس بحاجة للجلوس فوق شجرة كالقرد ، ونظر الى زهية غاضبا ، قال :
- هـذا ابنـك .

أجابته زهية هانم فى هدوء قائلة :
- نعم . هو ابنى ياسعادة المستشار .

الباشا وعباس ابوحميدة انصتا ، طرطقا اذنيهما لمعرفة تطور الحوار بينهما ، لكن الحوار كما بدأ فجأة ، وعلى غفلة ، انتهى ايضا فجأة ودون تعقيب .

غمز الباشا بعينه اليسرى لعباس ابوحميدة ، كأنه يقول له :
ـ خطتى نجحت .

ومال عباس ابوحميدة برأسه وأراحه على كتفه ، فى انتظار كلمة من هنا ، وكلمة من هناك يشتعل بعدها الحوار ساخنا ، عتابا حارا ، فوجه زهية هانم كان ينم عن غضب شديد ، على الرغم من قولها : نعم . هو ابنى ياكرامة ، فى لهجة هادئة .

سأل الخال عباس نفسه :
ـ هل قالت زهية هانم ياكرامة أم نادته بلقبه ، ياسعادة المستشار ؟

تحير الخال عباس ، ذاكرته أضحت تخونه ، ولم يعد يدقق فيما يسمعه ، واستبعد ان تكون خاطبته باسمه فى حضرة زوجها .

أكملت زهية هانم حديثها ، قالت :
ـ ياكرامة ياابن بلدى . البنية السويدية القادمة من بلاد الشمال الباردة قلبها تحرك ، قالت : ياأبيه .

توقفت زهية هانم عن الحديث عن عمد ، لم تكمل جملتها ، وتركتها ناقصة ، لم ترد تأنيبه أو الاساءة اليه ، حادثته هذه المرة ، وكأنها تخاطب رجلا آخر ، مكملة حديثها :
ـ رأيت الموت فى هذه الجراحة . الحياة قصيرة جدا . أنا أحببت ابسنت . هى ابنتى التى لم انجبها . وأنت ...

وتوقفت زهية هانم ، بلعت الكلمات ، غطت وجهها بالوسادة ، وحولت رأسها ناحية الحائط ، غابت عنهم بين دموعها الصامتة .

قام الباشا من جلسته واتجه ناحية كرامة سرحان ، قال :
ـ ياسعادة المستشار . خذنى محاميا لك .

وعاد بعدها الى موضعه .

قال كرامة سرحان :
ـ ياباشا . هو ابنى من زهية هانم . محمد نجيب ابنى . هذه حقيقة .

تدخل الخال عباس ابوحميدة فى الحديث ، قال :
ـ الحمد الله على لم الشمل . واين ؟ فى جنيف . ومتى ؟ بعد ثلاثين عاما . هذه هى الحياة .

لا يرضى خال عباس أبوحميدة ان تتحول الجلسة الى محاكمة لكرامة سرحان ولد عزبة عويس ورأى فى قلب الشيخ الجليل الدكتور أحمد السيد باشا شرا من ناحية كرامة الى جانب حنكة واسعة فقد رسم كل شىء بالمسطرة وكما اراد له تم وكأنه يلعب بمقادير الآخرين .

هذه حكمة الشيوخ الذين خبرتهم الحياة وما حكاية شراء العزبة الا ستارا واهيا لجمع الشمل ، والتفت الخال عباس الى كرامة ، قال :
ـ محمد نجيب شاب امامه مستقبل عظيم .

اجاب كرامة ، قال :
ـ محمد نجيب ينتسب لى من ناحية الدم ، لكنه تربى فى بيت مجد وعلم ، هو ابن للباشا ايضا .

قال خال عباس لنفسه ، احسن سعادة المستشار القول ، ونظر الى الباشا فوجده راضيا ، اما زهية فكانت سعيدة ، واحس خال عباس بواجبه فى هذه اللحظة ، الواجب الذى كلفه به الباشا فى تلك الرحلة الصباحية التى اصابته بوجع الكلى مرة أخرى . قال الباشا له :
ـ مهمتك يارفيق محمد نجيب . كلمة أو كلمتان تلقى بهما على مسامعه كالقنبلة ، واياك من المبالغة .

هاقد حل دوره ، فماذا يقول وماذا يعيد ؟

جلس الخال عباس صامتا ، يعيد ويزيد الكلمات فى رأسه بعد ان أجاد الباشا اللعب باوراقه ، وخلص ذمته من ناحية الولد الذى رباه وبعد ان

خلص ذمته من ناحية زهية التى منحته شبابها ورعته فى محنته وشيخوخته . هذا رجل نبيل ، شيخ جليل وان كان قلبه ليس صافيا من ناحية كرامة بسبب نذالة فى خلقه . الباشا لا يعرف ان ابناء الفقراء تطحنهم تطلعاتهم وتهرس عظامهم هرسا ، وولد عزبة عويس تلقى على ظهره مائة جلدة ، كانت كفيلة بالقضاء عليه .

قال الخال عباس لنفسه فى تلك اللحظة : الرحمة قبل العدل ياباشا .

ودور خال عباس الكلام فى رأسه : وبعد فترة ، قال :

ـ الزواج والطلاق ياباشا من سنن الحياة ، الناس قلوب ، شهوات ومطامع ، وكرامة مثل المرحوم والده سرحان السقا ، لم يترك مليحة فى العزبة الا وغازلها ، وكانت فضائح والده سرحان السقا على كل لسان فى البر ، غير ان كرامة تعلق قلبه بزهية ، الصبية اليافعة ، زينة البنات ، ولم يتركها الا بعد زواجه منها بعقد عرفى ، ولم يستمر زواجهما الا بضعة أشهر ، حملت فيها زهية منه بمحمد نجيب ، ولما قامت الثورة ، طلب منها كرامة اسقاط الحمل ، فرفضت ابنتنا زهية ، وقررت الهرب من العزبة .

كانت زهية هانم تستمع الى الخال عباس ، وهى تخفى وجهها ، تارة بالوسادة ، وتارة بطرف الغطاء ، تدفق الدم فى عروقها ، احمرت وجنتاها وتشابكت فى روحها مشاعر الندم والخجل والغرور أيضا ، ففى داخلها بذرة صلبة تدفعها للدفاع عن لحظتها الآنية ، فقد حصلت على كل شىء بيديها ، انتزعته من الصخور ، ربت ابنها ، وشاركته التعليم ، وحبست شبابها فى صومعة الدكتور أحمد السيد باشا ، بدأت العمل فى القصر كخادمة ثم دادة ثم وصيفة ثم سكرتيرة واخيرا زوجة . وفى كل مرحلة كانت مطالب الجسد تشدها الى اسفل ، عندما كانت خادمة ، كان المكوجى اللعين يداعبها ، يطلبها للزواج ، لكنها قاومت ، ولما دخلت الجامعة لم يسلم جسدها من سهام عيون الطلبة والمعيدين ، ولما التحقت بفصول الغناء فى الأوبرا ، وقع فى غرامها جمع من الفنانين الصاعدين فى عالم الغناء ، اجسادهم فتية ، وارواحهم ملتهبة وكأن نيرانا تمسك بها ، ونفوسهم حائرة حيرتها فى عزبة عويس ، وكانت تطيب جروحهم وكأنها طبيبة روحية .

فى غرفات دار الأوبرا قبل احتراقها عرفت المأساة الإنسانية وضعف قلب الإنسان ، وصعوبة وضعيته فى هذا العالم ، وكانت هزيمة ٦٧ فى قلبها كالعلقم .

ولما احترقت الأوبرا بكت وبكت وتوقفت عن الغناء ، وحانت منها نظرة الى كرامة سرحان ، وجدته هادئا فى جلسته ، يستمع الى أكاذيب خال عباس ابوحميدة بقلب راض ، ونفس مستريحة ، فقالت لنفسها ، حتى لا تلومه : هذه هى الدبلوماسية .

ياخال عباس ، لماذا ترهق نفسك ؟

كانت نزوة منى ، اخذته فى حضنى برغبتى ، من شدة كراهيتى للواء عويس وزوجته الأميرة شويكار وابنتهما الأميرة جويدان ، كنت ثائرة على وضعيتنا فى العزبة ، عبيد ، نضرب بالكرابيج ، ونساق كالسائمة ، ولما ضربك اللواء عويس بالكرباج ياكرامة تقطع قلبى ، ربطوك فى شجرة الجميز ، ونادى المنادى ، تأديب كرامة ولد سرحان السقا على يد اللواء عويس . احضر وشوف حفل التأديب . الجلد اصلاح وتهذيب . المربى الفاضل ووالد الجميع اللواء عويس ياوران جلالة الملك فاروق يؤدب ولد سرحان السقا لخروجه عن اللياقة وحدود الأدب بالحديث الى الأميرة الصغيرة بنت العز والمجد .

حفل تعذيبك ياكرامة نادى عليه المنادى وباركه فقيه العزبة ، أبوك السقا ، راح فيها ومات ، وانت ياابن المدارس يامتعلم تتزوج من الأميرة الصغيرة .

عطفت عليه واخذته فى حضنى واسلمته جسدى ياخال ، لم يكن بيننا عقد زواج عرفى أو شرعى ، نزوة أو ثورة ، ولما حملت ، رفضت اسقاط الجنين ، حملته فى بطنى وهربت ، قلت له :
ـ لن اطالبك بشىء ياكرامة . انت فى سكة وأنا فى سكة .

لا تطيل ياخال عباس المقدمات ، فكلنا هنا نعرف القصة . أنت والباشا وكرامة وأنا .

نحت زهية الوسادة عنها . جلست فى السرير . تواجههم بنظراتها المتقدة . ليست متهمة وليست فى حاجة كى تتجمل . قالت لنفسها : هذا ابنى وقد اسميته على اسم قائد ثورة يوليو محمد نجيب . مخلصنا من العذاب .

التفت اليها الباشا ، وقد رأى ملامح الغضب على وجهها ، سألها :
- فيه حاجة ياصفية هانم .

هذا الشيخ الجليل يتابعها بقلبه ويقرأ ما يدور فى رأسها ، يطيب خاطرها فى لحظة ضيقها ، فى تلك اللحظة التى تلحق نيران جهنمية فيها بروحها ، كم هى حلوة مناداته لها فى تلك اللحظة بصفية هانم !! انه يبعد عنها كوابيس الماضى . يناديها باسم والدته . ينتزعها من الغرق فى اللحظة التى تتقطع فيها انفاسها وتشرف على الهلاك .

ابتسمت وبانت الابتسامة فى عينيها ، قالت :
- تذكرت ياباشا عزبة عويس . تضايقت . الماضى ليس صفحة أو صفحات فى كتاب تاريخ نطويها ونتجاوزها . الماضى موجود فى الحاضر ياحبيبى .

نطقت زهية كلمة حبيبى بكل الحب الذى يمكن ان تحمله امرأة لرجل ، مهما كان يكبرها فى العمر أو فى المقام ، ووقعت الكلمة على أذنى الخال عباس ابوحميدة كالبلسم ، ريح حلوة فى لحظة هجير . رفع رأسه ، وتنفس فى راحة ، وكان منذ مجيئه يحس بالعطش فى فمه ، بسبب مرض السكر ، ففارقه جفاف الحلق والشفتين .

قال الخال عباس لنفسه : أصيلة وبنت أصول يازهية .

كانت أوامر الباشا ان تعد زجاجات الشمبانيا للاحتفال بتوقيع عقد البيع فى الساعة السابعة مساء ، فور حضور محاميه بن هارون ومعه الأوراق ، وقد أعد الشيكات وفقا لما تم الاتفاق عليه .

ونظر الباشا الى ساعته ، وقد حلت الساعة السابعة ، فهز رأسه راضيا ، وفى تلك اللحظة دق جرس التليفون .

استمع الباشا الى محدثه ، وبعدها قال :
ـ لا عليك . كل شيء وارد . نحن فى الانتظار .

وضع الباشا السماعة ، وبعدها قال :
ـ هذا يوم ملىء بالمفاجآت .

لم يبين الباشا مقصده ، وكذلك لم يفصح عن شخصية محدثه ، فقال خال عباس ، وقد لعب الفأر فى عبه : اللهم اجعل العواقب سليمة .

التفت اليه الباشا ، قال :
ـ عندى مفاجأة لك يارفيق عباس ، لن اكشف عنها .

ضحك خال عباس ابوحميدة ، قال :
ـ مقبولة مقدما ياباشا .

دقق كرامة سرحان فى ساعة معصمه وقد تجاوزت السابعة بدقائق ، أحس بالعطش ، فقام الى البوفيه وتناول كوبا من الماء ، كان فى نيته تناول الويسكى ، لكنه كبح جماح رغبته ، فالبوفيه لم يفتتح بعد ، وعليه مراعاة الأصول .

هو فى حاجة الى شراب قوى يخفف من ضيقه بما يجرى حوله ، شراب يسند عوده ويشد عزمه ، فاذا كان الباشا الداهية قد أعد مفاجأة سارة للخال عباس فلابد أنه أعد مفاجأة له هو الآخر ، وقال كرامة لنفسه ، وجرعات المياه تنزلق فى جوفه ، مفاجأة سارة أو غير سارة ، أصبحت الأمور تتساوى فى نظره ، فات العمر وما تبقى الا أقل القليل .

قال الباشا وكأنه يرد على تساؤلات كرامة سرحان الصامتة ، المحامى فى الطريق ، وسوف يفتتح البوفيه سعادة المستشار .

اجاب كرامة بطريقة تقليدية ، قال :
ـ العفو ياباشا .

أشارت زهية هانم الى الباشا ليقترب منها ، وهمست فى اذنه ببضع كلمات ، ضحك على أثرها الباشا ، قال :

ـ مارينا لن تأكل محمد نجيب .

لكنه توجه الى التليفون ، مستجيبا لرغبتها ، ادار القرص ، قال :
ـ ايوه يامحمد . البوفيه جاهز . نحن فى الانتظار .

التفت بعدها الى زهية هانم ، قال :
ـ مارينا تستكمل زينتها وينزلان بعد دقائق .

بانت الراحة على وجه زهية ، استراحت تقاطيعها ، فبان جمال وجهها على الرغم من شحوبه قليلا ، قالت :
ـ قلب الأم ياباشا لا يطاوعها .

كرامة سرحان فى حالة انتظار ، اعتذرت زوجته الأميرة جويدان عن الحضور بشكل غير لائق ، ومنعت ابسنت من الحضور أيضا ، وادعت أن عمها حمدى بك سوف يصل الى جنيف صباح اليوم ، وهى فى حاجة اليه ، فماذا تعد جويدان له من مفاجآت ؟

صفقة بيع القصر لا تشغل كرامة ، اذا تمت مرحبا بها ، واذا تعثرت لن يخسر شيئا ، فهذه أموال زوجته وابنته ، اما هو فلا يمتلك فى هذه الدنيا الا لقبه ، مستشار سابق .

ماذا يود من محمد نجيب ؟

شاب شق طريقه فى الحياة بمفرده ، وبعد ثلاثين عاما من مولده يأتى غريب ليقل له : اسمع أنا أبوك ، فماذا يعنى ذلك كله ؟

وجد القصة سخيفة من أولها الى آخرها ، واشتاق الى كأس من الويسكى ليبل ريقه ويرطب حلقه .

الغيرة والعشق ، الميلاد والموت ، هى الحقائق الوحيدة فى هذا العالم ، وما عدا ذلك كوابيس واحلام ، بعضها محبط وبعضها مفرح .

وصل بن هارون المحامى ، ولا يعرف كرامة لماذا اختار الدكتور أحمد السيد باشا هذا الرجل دون غيره من المحامين الكبار الذين تعج بهم مدينة جنيف .

وكانت مفاجأة أن لقاء بن هارون بخال عباس كان حارا جدا ومفعما بمشاعر إنسانية ، وربما هذه هى مفاجأة الباشا لخال عباس . غرباء جمعهم لقاء بعيدا عن الوطن أما هو فكان يعرف بن هارون ، ويكن له مشاعر كراهية ، فهذا الرجل الرفيع القصير صاحب النظارات السميكة كالمرابى كان معاديا للرئيس السادات ويكتب فى الصحف تحاليل سياسية ضده . وكان كرامة فى بعض الأحيان يرد عليه ، فتنشر الصحف ردوده ، اما اذا كانت هناك ندوة فكان يفضل الغياب عنها ، لأنه ليس فى مقدور احد مجاراة هذا الرجل فى الحديث ، ليس بسبب فصاحته فقط ولكن بسبب اتساع علمه ومعرفته بما يدور فى الكواليس فى الشرق الأوسط .

التفت بن هارون الى زهية هانم ، اغرقها فى قبلاته متمنيا لها الشفاء العاجل ، ثم تفرغ الى كرامة سرحان ، قال :

ـ اهلا سعادة المستشار .

اجابه كرامة سرحان قائلا :

ـ اهلا مسيو بن هارون .

ادرك خال عباس ان بن هارون على معرفة بكرامة سرحان ولد بلده عزبة عويس ، وان بن هارون لن يرحمه ، فقال :

ـ سعادة المستشار كرامة سرحان بلدياتى يابن هارون . من عزبة عويس .

صمت بن هارون قليلا ، هذه هى المفاجأة التى لم ينتظرها ، فخال عباس يدافع عن هذا الرجل ، وقال لنفسه : هذه مصر بلد العجائب .

طلب الباشا من سعادة المستشار افتتاح البوفيه فى اللحظة التى هلت فيها مارينا ومحمد نجيب ، فتنازل كرامة سرحان لابنه .

كانت مارينا ترتدى فستان سهرة وتحلى جيدها وصدرها بالمجوهرات وقد تركت شعرها الطويل على كتفيها كسبائك الذهب فبدت كفاتنة ساحرة وقد زادها طول قامتها جمالا .

رحبت بها زهية هانم ، قبلتها ، وكأنها تخشى عليها من الحسد .

تناول محمد نجيب كأسا من البرتقال ، رفعه فى يده ، قال :
ـ فى صحة الجميع .

وأحضرت مارينا لزهية هانم كوبا من عصير الليمون ووقفت الى جوار فراشها ، بينما انغمس الرجال فى حديث صاخب على مقربة من البوفيه .

هذه هى أول مرة تلتفت فيها زهية الى قوام مارينا وجمالها وقد تزينت فبدت كأميرة ساحرة ، بعد ان كانت تراها فى لباس المستشفى الأبيض الواسع او البنطلونات الواسعة التى لا كسم لها .

بدلت الفتاة ملابسها فى غرفة محمد نجيب ، ماذا يعنى ذلك ، وماذا يدور بينهما من وراء ظهرها ، هل انتقلت للاقامة معه فى الفندق ، هكذا ؟

كرامة سرحان السقا مشروبه المفضل الويسكى ، اما بن هارون فقد اكتفى بكأس من الشمبانيا ، بينما عب الخال عباس شيئا من المياه المعدنية ، لمعالجة متاعب الكلى .

أحاديث جانبية فيها طعم الذكريات الحلوة والمرة ، عشرة عمر جمعت بين الباشا وبن هارون وخال عباس ، يتحدثون وطيف الدكتورة أوديت لايفارقهم فقد كانت واسطة العقد بين المشتغلين بالسياسة على اختلاف مشاربهم .

سأل الباشا الخال عباس على مسمع من بن هارون ، قال :
ـ ما رأيك يارفيق فى نشر مذكرات الدكتورة أوديت حاليا .

تساءل بن هارون على الفور ، قال :
ـ أين هذه المذكرات ؟ يجب نشرها على الفور ، وعدم نشرها خيانة ؟ لقد كانت المرحومة أبعد نظرا منا جميعا .

توجه الباشا الى المكتب ، وفتح درجا وتناول المذكرات ، قال :
ـ هذه النسخة لك .

تناول بن هارون المذكرات ، ووقف متعجبا ، قال :
ـ مذكرات الدكتورة أوديت فى درج مفتوح فى فندق فى جنيف ، هذه المذكرات فى حاجة الى خزينة سرية فى بنك من البنوك .

ضحك الباشا طويلا من مخاوف اليساريين حتى فى الغربة ، قال :

- ابنتى رحلت عن الدنيا فى عام ١٩٥٤ ، لا أحد يذكرها الآن او يهتم باقوالها ، لقد رحل أبطال المسرحية ، جمال عبدالناصر ، محمد نجيب ، بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ، السادات ، لقد ضاعت أوراق أزمة مارس وطوتها صفحات التاريخ الهادرة ، حتى ثورة ١٩٥٢ لم تعد تشغل أحدا من الذين قاموا بها ومد الله فى أجلهم .

قال بن هارون ، آسفا :

- معك حق ياباشا . العالم أصبح غير العالم ، نحن ننتسب الى الماضى .

وبعدها أضاف بن هارون :

- بعد مصرع السادات ، قررت عدم الانشغال بالقضايا السياسية ، اعتزلت السياسة ، وسوف اتفرغ للقانون .

قال الدكتور أحمد السيد باشا لنفسه متمتما :

- الخروج من التاريخ . آخر واجبات الكائن الحى العاقل . لحظة صعبة لكنها وجوبية الأداء كما يقول القانونيون . النساء المشتغلات بالفنون هن أول من أدرك هذه الحقيقة ، واطلقن عليها كلمة مهذبة ، الاعتزال .

قال بن هارون كسيف البال :

- المأساة ياباشا اننا خرجنا جميعا فى وقت مبكر جدا ونحن فى قمة العطاء . حقيقة لا يبقى على المداود غير شر البقر . الطاعون والمجاعات هى وحدها التى تجبر الناس على الفرار ، وما جرى فى مصر فى زمن السادات يشبه الطاعون ، فرار كجماعى .

بعدها أضاف بن هارون ، قائلا :

- ما نردده هذه الساعة فى جنيف ياباشا ، يردده مئات غيرنا من المثقفين المصريين المطرودين ، فى كافة انحاء المعمورة . مقاهى لندن وباريس وروما وبرلين تغص بالمصريين ، حتى المدن الصغيرة فى بلدان الشمال عرفت المهاجرين المصريين لأسباب سياسية .

اخذ كرامة سرحان يستمع صامتا ، لا يعلق ، وفى بعض الأحيان كان

يهز رأسه موافقا على مضض .

كان الخال عباس يرقب بن هارون متعجبا ، فالرجل لم يفتر حماسه ، كما انه لم يتغير كثيرا بفعل السنين ، بل ازداد شبابا وحيوية ، وان كانت صلعته قد اتسعت بعد تساقط الشعيرات على جانبى فروة الرأس .

هذا الرجل يحلم بأشياء مستحيلة ، ويبنى خياله على أسس من الواقع ويخرجه نسقا متكاملا ، نسقا فكريا جديرا بالمناقشة والاختلاف - على المستوى النظرى - أما الواقع ، فكان عنيدا دوما ، رافضا لكل ما يقدمه بن هارون .

لم يدل بعد بن هارون بدلوه ، وترقب خال عباس الإفصاح عما يدور فى هذا الرأس المثلثى ، بعد ان زادته الغربة خيالا على خيال ، وتقطعت حباله بالواقع المعاش .

وضع بن هارون مذكرات الدكتورة أوديت فى حقيبته ، وتناول منها ملفا وقدمه إلى الباشا ، وقال :

- على العشاء سوف نتحدث فى التفاصيل ياباشا .

وافقه الباشا بهزة من رأسه .

اقترب بن هارون بعدها من كرامة سرحان ، وكأنه قد تخلص من الحرج بعد حديثه الى الباشا ، سأله ، قال :

- علمت اليوم من سمو الأميرة جويدان ، انك استقلت من الحكومة .

اجابه كرامة بحسن نية ، قال :

- نعم . سوف اتفرغ لأعمالى الخاصة .

ضحك بن هارون ، قال :

- تجارة النفط أم تجارة السلاح !!

التقط خال عباس الخيط ، هل يتاجر ابن عزبة عويس فى السلاح أو النفط ، هل يغرق نفسه فى أموال المافيا ؟ ونظرت زهية ومحمد نجيب اليه فى دهشة .

اجابه كرامة ، قال :

- ذهبت بعيدا جدا يامسيو بن هارون .

قال بن هارون :

- مسيو سرحان له خبرة واسعة فى تجارة النفط وإدارة الصفقات السرية ، وللحقيقة والتاريخ فقد فشلت محاولات الإسرائيليين الأوغاد فى شراء ذمته ، وأفسد خططهم ، وها أنا اقولها بصراحة ، محاولتان جرتا لتصفيته جسديا على يد مافيا البترول ، الأولى بدس السم له فى نيس ، وقد افشلتها مخابرات الأخ الأكبر اى الولايات المتحدة الأمريكية ، والثانية فى حادثة عربية ، وهو فى الطريق الى الغابة السوداء لمقابلة السادات ، وقد أحبطتها دوائر حلف الناتو .

كان كرامة سرحان يقف مستمعا وكأن الحديث يخص رجلا آخر . كتفاه عريضان كحائط صلد ، قامته مرفوعة ، وبنيته القوية الفارعة ، تجعله يقف كقلعة متينة البنيان . قلعة غارقة فى الصمت .

صرخت زهية هانم فزعة ، قالت :

- سم وحادثة عربية . ياسعادة المستشار ، ماذا جرى ؟

قال خال عباس مبتئسا ، هاهو صديقنا بن هارون ، ولد العباسية الشرقية تأتيه الأنباء من دوائر حلف الناتو والمخابرات الأمريكية مباشرة ، والقتيل ، من ؟ كرامة ولد سرحان السقا ولد عزبة عويس .

حرك الخال عباس كوب الماء فى يده وقربه من فمه ليسد عطشه ، وبعدها سأل ، قال :

- زدنى علما يارفيق . ماذا جرى ؟

قال بن هارون :

- هذه أشياء يعرفها سعادة المستشار .

قال كرامة سرحان مترفعا :

- سوق النفط لها بورصة واسعار النفط معلنة وليست سرا ، ولأن النفط سلعة استراتيجية ، فأسعار التسليم تختلف ، وكل دولة تدير مخزونها من النفط بدقة شديدة ، وتوفر احتياجاتها من السوق الآجلة ، وبعد اتفاقية كامب ديفيد ، وتسليم آبار سيناء النفطية لمصر ، سعت إسرائيل لتأمين احتياجاتها من النفط من مصر وتعهد السادات لهم بذلك لدفع عملية السلام

واتمام الانسحاب ، وتشكلت شركة قطاع خاص ذات طبيعة سرية للنفط فى الخارج تشترى النفط من الحكومة المصرية لتعيد بيعه الى إسرائيل .

هذه كلها أشياء معروفة ، وليست سرا ، فقد أدار السادات معركة مترامية الأطراف وعلى جبهات متعددة ، وقال الباشا لنفسه ، سعادة المستشار ، يفضل الصمت على البوح .

أحس كرامة سرحان بالعيون ترقبه ، بفضولهم ، قال موضحا :

ـ سوق النفط متشعب ، له علاقة بالناقلات العملاقة ، والبنوك ، ومكاتب سمسرة ، وشركات تأمين ، ووسطاء ، وكذلك بقرارات دولية ، وبالأحوال الجوية أيضا ، فالتنبؤات الجوية تلعب دورا كبيرا فى المراهنة على السعر ، والتلاعب يتم فى بيع المعلومات ، والبيوع الآجلة ، وتوفير الحاجات العاجلة ، جنوب افريقيا مثلا فى حاجة الى كميات اضافية من النفط توفرها من السوق السوداء بعيدا عن قرارات المقاطعة الدولية .

تحدث كرامة سرحان عن النفط وسوقه ولم يتحدث عن دوره .

زهية هانم أصبحت قلقة على كرامة سرحان وعلى ابنها أيضا . سم . حوادث عربيات . هذه غابة .

دعا الباشا الجميع الى المأدبة فى الغربة الملحقة ، قال لهم ، الحديث ذو شجون ، وسوف نستكمله .

كانت الأماكن مرتبة وعليها الأسماء ، غير أن تخلف الأميرة جويدان وابنتها ابسنت ، وفراغ مقعديهما ، سمح للآخرين بالتجاوز ، جلس خال عباس الى جوار بن هارون ، وجلست مارينا الى جانب كرامة سرحان ، أما صفية هانم فقد تدثرت بالروب ، وجلست بين ابنها وزوجها فى مواجهة كرامة سرحان .

دارت الاطباق ، وفتحت زجاجات نبيذ من افخر الانواع واعتقها وكان الجرسونات فى ملابسهم الزاهية يرحبون بالضيوف وبعد الانتهاء من الطبق الاول ، ودردشة سريعة ، قال بن هارون موجها الحديث الى الباشا :

ـ رفضت الأميرة جويدان توقيع العقد . تراجعت عن البيع . حضرت الى مكتبى ومعها عمها حمدى بك ومحاميها . واعربا عن استعدادهما لدفع

تعويض معقول عن تراجعهما عن الصفقة .

توقف كرامة سرحان عن المضغ ، عملتها الأميرة جويدان من وراء ظهره ، استمعت الى نصيحة عمها حمدى بك ، وصل حمدى بك الى جنيف صباح اليوم ، فغيرت جويدان رأيها بعد الظهر .

لا يضايق كرامة عدم بيع العزبة ، يضايقه فقط ان زوجته اتخذت قرارها دون الحديث معه أو اخطاره ، ليعلم بالخبر على العشاء الذى اقيم احتفالا باتمام الصفقة .

قال الباشا متوجها بالحديث الى بن هارون :
- اننى اتفهم دوافع سمو الأميرة واقدرها ولست فى حاجة الى تنفيذ الشرط الجزائى ، أو الى تعويض مادى . اخطر سمو الأميرة غدا برأيى .

بعدها التفت الباشا الى كرامة سرحان معتذرا ، قال :
- ليس لنا حظ ياسعادة المستشار فى دخول عزبة عويس .

كان الخال عباس يتابع الحديث ضاحكا ، فقد كانت تساوره الشكوك حول هذه الصفقة الغريبة ، قال لنفسه : هذه شبكة من الخيوط حاكها الباشا ليغرق فيها كرامة ويلم شمل الجميع .

تابع بن هارون حديثه ، قال :
- حمدى بك وضع خطة لتقسيم الارض واقامة فيلات عليها ، ووصف مشروعه بأنه اكبر مشروع استثمارى فى مجال البناء والتشييد ، واسماه مشروع تقسيم أراضى اللواء عويس .

قال الخال عباس متأففا :
- هذه اراض من اجود الأراضى الزراعية ، افنى اللواء عويس عمره فى زيادة غلتها ، كان يمر عليها يوميا ، يتحسس ترابها ويشمه ، يقبض عليه فى كفه ويقبله ، ويقول عطر تراب وطين عزبة عويس ، ينافس عطور باريس .

ضرب خال عباس كفا بكف ، قال :
- وآخرة المتمة تدق عواميد الحديث فى هذه الأرض ، وتقام الالواح

الاسمنتية عليها ، هذا خراب ، هذه ارض تنتج الخضار والموالح طوال العام ، وبها أشجار مانجو .

بعدها مال خال عباس براسه ناحية الباشا ، سأله ، قال :
- وماذا كانت النية من شراء القصر والعزم من شراء اربعين فدانا ؟

تردد الباشا لحظة فى الحديث ، بعدها ، قال :
- كنت اطمع فى تطوير الارض وادخال وسائل الزراعة الحديثة وتدريب طلبة المعهد عليها .

نسى خال عباس حكاية كرامة سرحان والأميرة ومحمد نجيب والتفت الى الأرض التى سوف تجرف لتدق فيها خوازيق وتفرش بحصيرة المسلح ، تقمصته روح الفلاح فى زهوتها وقوتها ، وهو الذى امضى حياته فى عزبة عويس يفلح ويزرع خمسة فدانين امكن انقاذها بشق النفس من عائلة عويس باشا الأعرج واولاده ، وضاع فيها أخوال وأعمام ، وجده هو الذى اطلق النار على الأميرالاى عويس الكبير فاصابه بالعرج ، ورفع خال عباس يده ، واخذ يسوى كم الجاكيت وكأنه يسوى كم الجلباب الواسع ، قال فى حدة :

- هذه ارض زراعية ، خارج كردون مدينة الجيزة ، ولا يجوز تقسيمها للبناء .

ضحك بن هارون ، وقال :
- السمكة تفسد من رأسها ياخال ..

بن هارون ، نادى على عباس ابوحميدة ، قال ، ياخال ، وليس يارفيق ، ليحادثه كفلاح ، ويخفف من حدة ثورته ، ويخرجه من همومه ، أكمل قائلا :
- حمدى بك اعد نفسه ، اطلعنى على اوراق التقسيم وموافقة المحافظ والسلطات الإدارية ، حتى مصلحة الآثار ، والتقسيم لا يشمل اربعين فدانا ، ولكن العزبة باكملها ، وعلى عدة سنوات ، حوالى عشر سنوات .

كان الباشا يتابع الحديث فى صمت . تنازل عن شراء الصفقة عن طيب خاطر ، وانتقلت القضية الآن الى عباس ابوحميدة ، اصبحت تهمه ، فهذه حياته ، فعباس ابوحميدة ، عمل فى اوساط العمال فى الحركة اليسارية ،

لكنه لم يتنكر لأصله ، كفلاح .

عباس ابوحميدة يعرف ارض عزبة عويس حوضا حوضا ، ويعرف تاريخها ، ويعود به الى الخديوى اسماعيل عندما سهل للاميرالاى عويس الكبير وضع يده على هذه الأرض ، بعد ان حل خراب بها فى عهد محمد على باشا .

قصرت عائلة ابوجبل الشر ، وتساهلت مع الغزاة الجدد ، أما عائلة ابوحميدة فقد رفضت المساومة ، جيلا بعد جيل ، واحتفظت بنتف من الأرض بشق النفس ، وعرف عباس ابوحميدة فى وقت مبكر ، ان معركته ليست فى عزبة عويس ، ولكن هناك فى القاهرة ، فعمل بالسياسة .

فجأة تخلى كرامة سرحان عن صمته ، قال :

ـ يبدو ان عزبة عويس عليها العين منذ حركة الجيش .

تابع كرامة حديثه ، متوجا به الى عباس ابو حميدة ، قال :

ـ فى عام ٥٣ ، عند جرد املاك اللواء عويس والأمراء ، دخل القصر حضرة اليوزباشى شهدى الشَشتاوى ، كرئيس للجنة الجرد ، وكنت واحدا منها ، حلم حياته كان منح القصر للرئيس جمال عبدالناصر ، وبناء مساكن للضباط فى المنطقة .

ضحك خال عباس ، قال :

ـ ذكرتنى ياسعادة المستشار . اليوزباشى شهدى الششتاوى ، أنا لم أره منذ مارس ٥٤ ، فقد طرده جمال عبدالناصر من الجيش ومن الحياة السياسية بأكملها ، وعرفت انه عمل بالتجارة فى عهد السادات ، تجارة على واسع ، استيراد معدات هندسة وعسكرية .

بن هاون يتابع الحديث بآذان مفتوحة ، وبعدها سأل :

ـ أليس ذلك الرجل هو الذى نظم اضطرابات العمال فى سنة ١٩٥٤ ، فحسم الصراع لصالح جمال عبدالناصر ضد محمد نجيب .

ضحك الخال عباس ابوحميدة ، وهو يتذكر تلك الأيام ، قال :

ـ فرض على اليوزباشى شهدى الششتاوى رقابة أربعا وعشرين ساعة ، وكنت وقتها متخفيا فى شقة صغيرة فى المنيرة ، ووصلتنا رسالة من الرئيس جمال عبدالناصر باجراء مشاورات حول الأزمة ، وبعدها كان

مفاوضى هذا الرجل شهدى الششتاوى ، وياله من رجل ، يتحسس مسدسه عند سماع كلمة ديموقراطية أو حرية ، فرفضت الحديث اليه ، وقطعت المفاوضات ، وطلب جمال عبدالناصر بعدها ، ان تكون صلتى بمساعده ، اليوزباشى أنور عرفة .

جرح الباشا لم يندمل بعد تماما ، خفت حدة الآلام ، وزادت المرارة ، بفعل السنين ، وتأمل مسارات الأحداث ، ما يرويه عباس أبوحميدة فى بساطة ، ودعة ، سطرته ابنته أوديت فى مذكراتها بدمها ، باعصاب مشتعلة ، وفكر متقد ، ورؤية أثبتت الأيام صحة معظمها ، ووجدت نفسها سائرة ضد تيار الأحداث ، رفضت العلاج ، بعد الحادثة ، ومضت .

رفضت الحياة وهى طبيبة .

كل ما يدور حوله على العشاء يذكره بالماضى ، تنويعات على لحن واحد ، وقاوم الباشا الاسترسال لخواطره ، التفت الى ضيوفه ، برهة ، دقائق معدودة ، بعدها هزمته خواطره ، دهمته بقوة ، قال :

- اليوزباشى شهدى الششتاوى هو قاتل ابنتى الدكتورة أوديت .

نظرت اليه زهية هانم فى تضرع ان يكبح جماح عواطفه ، فتلك قضية سياسية ضاعت اضابيرها فى ظل احداث جسام ، وقيدت ضد مجهول ، فبعد منتصف ليلة تعيسة صدمت عربة جيش مسرعة سيارة الدكتورة أوديت ، ونزلت الدكتورة من سيارتها سليمة ، وقادت السيارة بعدها الى البيت .

بعد فترة صمت ، قال بن هارون :

- اليوزباشى شهدى الشتتاوى هنا فى الفندق . فى غرفة ٦٠١ .

صمت بن هارون ، وانشغل بتقطيع قطعة لحم ، وقبل ان يدس الشوكة فيها ليرفعها الى فمه ، اكمل حديثه ، قال :

- جاء فى صحبة حمدى بك لإتمام صفقات لم يفصح عنها .

هذه ليست جريمة عادية ، فالقاتل فى الفندق ، ومذكرات القتيلة فى درج مفتوح ، وما جرى مضى عليه اكثر من ربع قرن من الزمان ، وسقط بالتقادم .

تمالك الباشا ، تماسك ، سيطر على مخاوفه وهواجسه ، قال لنفسه : كم من المنتصرين في حلبة التاريخ ، كانت المشانق أحق بهم من أقواس النصر ؟

ابتعد طوال حياته العملية عن السياسة ، وشق طريقا مخالفا لرفيق الدراسة الدكتور محمد حسنين هيكل ، وهاهى السياسة تتابعه حتى آخر العمر .

التفت الباشا الى رفيق ابنته عباس ابوحميدة ، يطمئن عليه ، سأل :

ـ متى العودة الى القاهرة يارفيق ؟

أجاب عباس أبوحميدة ، فى ثقة ، فطريقه أصبح واضحا ، وقد صح عزمه وخلصت نيته ، قال :

ـ السفر الى براغ لإنهاء عملى هناك ، والعودة الى القاهرة ، لإنقاذ عزبة عويس حتى لا يقع لها ما وقع لمنطقة الهرم .

هز الباشا رأسه راضيا ، ابتسم ، وجد عباس ابوحميدة لنفسه معركة يشغل بها سنواته القادمة ، وأحس بصفاء الذهن ، حرك قطع اللحم فى الطبق ، كأنه يعبث بها ، قال :

ـ وصيتى نشر مذكرات ابنتى .

قالت زهية هانم شيئا ، وطوح الباشا رأسه على كتفه ، صرخ عباس ابوحميدة وكان يجلس فى مقابلته : ياباشا . ياباشا . ياباشا .

خرج السر الإلهى فى غمضة عين .

ـ انتهت ـ

رقم الايداع : ١٩٩٤/٩٧٩١
I.S.B.N
977 - 07 - 7514 - 8